راحة الأرواح

ويليه

الرقائق الرواسية

كلاهما تأليف

قطب العارفين السيد محمد أبي الهدى الصيادي الرفاعي

المتوفى ١٣٢٨هـ

ويليهما

الدرة البيضاء

تأليف

قطب العارفين محمد مهدي الصيادي الرفاعي الرواس

المتوفى ١٢٨٧هـ

ويليه

صوت الهزار وزنق العذار

ويليه

حديقة المعاني في حقيقة الترجم الإنساني

ذيل أبي الهدى الصيادي الرفاعي

ويليه

برقمة البلابل

محمد مهدي الصيادي الرفاعي الرواس

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

الكتاب: راحة الأرواح

RĀḤAT AL-ʾARWĀḤ

المؤلف: السيد محمد أبو الهدى الصيّادي الرفاعي

المحقق: أحمد فريد المزيدي

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 240

سنة الطباعة: 2005 م

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-4523-1

9 782745 145239 90000

الطبعة الأولى

٢٠٠٥ م. ١٤٢٦ هـ

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة: رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor

هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية

Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.

هاتف: ١١/ ٨٠٤٨١٠ / ٥ ٩٦١+ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

فاكس: ٨٠٤٨١٣ / ٥ ٩٦١+ رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ترجمة مختصرة للمصنف

هو الإمام الكامل، والعالِم العامِل، الشيخ الهمام، مرآة الزمان، الحجّة البرهان سيدي محمد بن حسن وادي بن علي بن خزام الصيادي الرفاعي، الحسيني (أبو الهدى).

من أهل الطريق، ومشارك في العلوم الإسلامية والأدبية.

وُلِد في خان شيخون من أعمال حلب سنة ١٢٦٦ هـ، وتعلّم بحلب، ووُلّي نقابة الأشراف فيها، ثم رحل إلى القسطنطينية واتصل بالسلطان عبد الحميد الثاني العثماني، فقلّده مشيخة المشايخ، وحَظِيَ عنده واستمر في خدمته زهاء ثلاثين سنة، ولما خُلع عبد الحميد، نُفي الشيخ إلى جزيرة الأمراء في رينكيبو، وتوفي بها سنة ١٣٢٨ هـ.

من تصانيفه:

١ ـ تنوير الأبصار في طبقات السادة الرفاعية الأخيار.

٢ ـ ضوء الشمس في قوله ﷺ بني الإسلام على خمس.

٣ ـ الحقيقة الباهرة في أسرار الشريعة الباهرة ـ بتحقيقنا.

٤ ـ روض البسام في أشهر البطون القرشية بالشام.

٥ ـ الفجر المنير في بعض ما ورد على لسان الرفاعي الكبير ـ بتحقيقنا.

٦ ـ القواعد المرعية في أصول الطريقة الرفاعية ـ بتحقيقنا.

٧ ـ الطريقة الرفاعية ـ بتحقيقنا.

٨ ـ الرقائق الرواسية ـ بتحقيقنا.

٩ ـ النصيحة القدسية ـ بتحقيقنا.

١٠ ـ راحة الأرواح ـ بتحقيقنا.

١١ ـ روح الحكمة ـ بتحقيقنا.

وانظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٣٢٤، ٣٢٥)، وتاريخ آداب اللغة لزيدان (٤/ ٢٩٥)، ومعجم المؤلفين لكحالة (٣/ ٢٤١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمد الشاكرين. والصلاة والسلام على سيّد الوجودات نبيّنا وسيّدنا ومولانا محمد النبي الصادق الأمين. وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين. وعلى التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيقول العبد المستند إلى عناية الله تعالى في جميع الأحوال والدواعي، محمد أبو الهدى ابن المرحوم أبي البركات السيد حسن وادي آل خزام الصيادي الرفاعي، أيده الله بما أيد به عباده الصالحين وغفر له ولوالديه وللمسلمين آمين:

هذه رسالة لطيفة ذات فصول شريفة، انتقيتها من كلمات شيخي وسيدي خاتمة الزاهدين، تاج الحكماء الربانيين، فخر العلماء العاملين، درّة قلادة الأولياء العارفين، بهاء الملة والشريعة والدين، المقبل على الله المُعرِض عن الناس، القطب الفرد الكبير السيد محمد مهدي آل خزام الصيادي الرفاعي الشهير بالرواس قدّس الله تعالى روحه وسرّه، وأفاض علينا بره، ومزجتها بشيء من كلمات كانت وردت عليّ، وهبطت من حضرة الإلهام إليّ، وفيها استطرادات تتضمن شيئًا من كلام خواصّ الزمان، مظهر المجد المُصان لسان العرفان، مولاي وسيدي الوالد الماجد، طيَّب الله مرقده، وأبلج في طالع القرب لديه فرقده، فجاءت بحمد الله تعالى رسالة تسيل منها ينابيع الحقائق النبوية وتلمع منها بوارق الرقائق الوجدانية، تفيض بيد العزم الرباني بركة الذوق الطيب لإفهام الموفقين، وتطلع بجذوة المدد الرحماني صبح العرفان في سمٰوات الباب المخلصين وإن الله لمع المتقين، وقد سمّيتها **(راحة الأرواح)**، وذلك لمعنى يُشير إلى مضامينها الشريفة، ودقائقها اللطيفة التي تبهج بها أسرار المحققين، وترتاح لها أرواح أهل العرفان واليقين. والله المُعين.

قال لي شيخنا قدّس الله سرّه ونفعنا به: إذا استنار القلب بنور التوحيد، تنزّه عن ظلمة الشكوك وترفّع بعزم البرهان المحض عن التشوق إلى الأدلة النقلية، والبراهين العقلية وقوفًا مع النص، وتحققًا بتصديق المخبر الصادق الذي انطوت الأدلة والبراهين كلها بجملة من جوامع كلمه، وهذا النور الذي يُفاض على القلب هو سرّ قول سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه: التوحيد وجدان تعظيم في القلب يمنع عن التعطيل والتشبيه.

وقال شيخنا قدّس الله سرّه: كل دليل جدلي أو برهان عقلي أورده العارفون لإثبات سر التوحيد فهو تثبت لقلوب الضعفاء الذين تنصرف عقولهم بقادحة الشك لكثرة السؤال والقيل والقال. وإلا فالأمر أظهر من أن يؤيد بدليل، وأوضح من أن يستبدل عليه ببرهان.

جمالك في كل الشؤونات ظاهر　　له كل أصناف الوجود تشير

وقال شيخنا قدّس الله سرّه وروحه ونفعنا به: لا تجتمع الهمة على قبلتين، ولم يجعل الله لرجل في جوفه من قلبين، ولا تفزع عزيمة السر إلى معبودين، ولا يدخل الداخل بيتًا من بابين، ولا تنقسم مادة النظر إلى مشهدين، والواحد لا يكون اثنين. انتهى كلامه رضي الله عنه. وقد كنت ذكرت عبارته هذه لسيدي ومولاي الوالد قدّس الله روحه ونفعني والمحبين به فبكى، وقال: والمرأة لا تعطى لرجلين، واليد لا تمد لشيخين، والحب المحض لا يقبل شريكًا في البين. قلت: وهذا مشهد من تحقق فوجد وخرج عن عوائق العلائق وانصرف عن الخلائق إلى الخالق ووقف في الوحدة مع الكثرة، ولم تسقط همته الكثرة عن مشهد الوحدة، وتلك وحدة النظر، لا الوحدة التي يمزج بها الغالط المؤثر بالأثر، والباريء بالبشر، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

قال شيخنا قدّس الله سرّه وروحه: العاقل الرباني يعظم الآثار لأجل المؤثر ويرفع النظر إلى المؤثر عن الآثار، ويراها أبرزت للاعتبار لا للاشتغال بها عن مبدعها. تكبر همته عن الحرص عليها والانصراف إليها، يريدها ليجمع بها القلوب على الاعتبار بحكمة صانعها، والإعظام لجلال مصوّرها، فهو فيما يؤول إلى ذاته واقف مع القدر، راضٍ بسره مستسلم لحكمه، وفيما يؤول لجمع القلوب على الحق، ويعلي كلمة أمره في ملكه، قوي الشكيمة عظيم العزيمة، يستكشف سر القدر بالهمة العالية والعزيمة الصادقة، ويثور بحسن الظن بالله ولا ينفلت مع

غرضه، وينبت أسير مرضه، يود أن لو ثبتت في لوح مظهرية الأمة سطوة الأكاسرة ومنعة القياصرة وشوكة الخوافين ودولة جميع السلاطين، ليكون ذلك سببًا لإعلاء كلمة الله وإعزاز شأن رسول الله عليه أفضل صلوات الله وتسليمات الله، ويكون في كل ذلك مواليًا لله، صحيح الاتباع لرسوله ﷺ، لا ينازع الأمر أهله، بعيدًا عن شقّ العصا، خالص النصيحة لله ولرسوله ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم، نافعًا للناس على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم ومشاربهم ومذاهبهم، لينًا لأهل الحق صعبًا على أهل الباطل يرضى لله ويغضب لله، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويعرض عن الجاهلين الذين لا تقف هممهم إلا مع أغراضهم. فهم شواغل بلا طائل، وفي كل شؤوناته يطيب بالله وبحزب الله، ويحب مَن أحب الله ولا إلـه إلا الله. قلت: وفي كلامه الشريف هذا أخذ من رقائق علم النبي ﷺ سر الجمع بين آداب الدنيا وآداب الآخرة، يعرف ذلك العارفون، وسيأتي له من هذا القبيل كلام إن شاء الله، هو أوضح في مبناه وأصرح في معناه، يسحر الألباب، ويفيض أسرار الغيوب للأحباب، ويدخل على العقول الكريمة والقلوب السليمة من كل باب. وقد ذكرت هذه الجملة لسيدي الوالد الماجد طيّب الله مرقده، فقال نِعم الوارث المحمدي في المسلمين، كالوالد للعائلة يعمل لهم، وإن كان فيما يرى يعمل لنفسه. ومعلوم أن سعي الآباء لأبنائهم يختلف. فمنهم من يخبط بسعيه فيجمع لأبنائه من كل حرام وحلال، فإذا أكلوا مما جناه لهم فسدوا. ومنهم من يجمع لهم من الحلال الطيب فإذا أكلوا ازدادوا نورًا وأعانوه في شأنه، فطاب ذكرهم وعلا أمرهم والموفّق هو الله. فلهذا ينبغي للمرشد أن يخدم المسلمين بحال النبي الأمين ﷺ وآدابه وطريقه، لا برأي نفسه وأفكاره وتدبيره فإنه إن خلط نفسه في البين أفسد الأمر عليه وعلى أتباعه وظهرت فيهم العجائب من المخالفات والعياذ بالله تعالى. انتهى كلامه، لا زالت منشورة في حضرة القبول أعلامه.

وقال شيخنا خاتمة الصديقين رضي الله عنه وعنّا به ونفعنا بعلومه والمسلمين: همّة العارف لا تجتمع إلا على الله لأنها من مدد الله، فلا ترجع إلا إلى الله، إنا لله وإنا إليه راجعون. وهمة الغافل لا تجتمع إلا على بغية نفسية لأنها من نزغ الشيطان فلا يثيرها إلا ليجمعها على حال من أحوال النفس، وهنا مفترق الركبان. انتهى كلامه العالي، فتدبر أيها اللبيب، وافهم مزايا هذا الكلام الشريف العجيب وانتفع منه وبه فإن كلام أهل الحق من نفحات الحق.

فائدة:

قلت لسيدي وشيخي القطب المشار إليه رضوان الله عليه: سيدي ماذا يصنع المسكين الغافل إذا كانت همته مثارة بنزغ الشيطان مجتمعة بذلك النزغ على مقاصد النفس؟ فقال: العلاج ذكره الحكيم العظيم، وفي كلامه القديم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عِمرَان: الآيتان ١٣٥، ١٣٦] انتهى. كان سيدي الوالد الماجد يقول: قلبي يقول لي إن الاستغفار بعد الذنب بشرط تركه وعدم العودة إليه هو عبارة عن اعتذار العاجز للقوي، وتذلل العديم للكريم، ولذلك فالعاقبة فيه سليمة، انتهى. فانظر أيها المحب لطف هذا التعبير، وحلاوة هذا التقرير وأحبب القوم وخذ لك من حالهم بركة تصلحك إن شاء الله وتأخذ بزمام قلبك إلى الله والموفق هو الله.

قال شيخنا رضي الله عنه: التسليم للقدر هو صحة الرضا عن المقدور بعد وقوع القدر. والتوكل هو حسن الظن بالله أنه يحفظ بلطفه عبده، المتوكل عليه من صدمات الأقدار، يفهم هذا من سر قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطّلَاق: الآية ٣]. ولذا فالتسليم للقدر لا يقعد عزم العارف عن طلب الخير، ودفع الشر والاهتمام بمصلحة الدنيا والدين قعودًا مع القدر حتى تبرز حقيقته الكامنة للعيان، فإن ذلك يخالف فقه المصطفى ﷺ، فإنه قال للأعرابي الذي استشاره بأمر ناقته: «اعقلها وتوكل» أي اعقلها فإن سر القدر بشأنها مجهول، عليك أن ترضى به بعد وقوعه وتوكل بعد أن تعقلها، أي أحسن ظنك بالله تعالى إنه يحفظ لك بلطفه ناقتك من صدمة قدره. وهناك فلا بطالة في العمل ولا نقص في الأدب ولا وهن في العزم، ولا هتك لستر العقل ولا انحطاط عن أثر الشرع. قلت: هذا أدب شيخنا الأكبر سيد الطوائف أبي العلمين إمام الرجال قطب الأقطاب، محبوب النبي الأعظم ﷺ، مولانا الغوث المقدم السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنه فإنه قال: لا تقل قدره أوقفني عن السير إليه، هذا من بطالتك، من كسل عزمك وفتور عزيمتك، اجعل القضاء والقدر صفاء وابعث معهما قلبك ويقينك واعتقادك، واجعل العقل والتدبير صفًا، وابعث معهما رأيك وحزمك، واملك برأيك واعتمادك وأقم بين الصفّين حرب العمل وكن أنت في صف العقل والتدبير المؤيد بحسن الظن بالله وبصدق الاعتماد عليه سبحانه، فإذا انكشف غبار ذلك الحرب عن غلبة لك في أمرك فقد أثمر غصن

أملك بربك وحسن ظنك به وصدق اعتمادك عليه ففزت بمطلوبك، وإن انكشف الغبار عن مغلوبية لك في شأنك فقد انكشف لك غطاء القدر وأنت حينئذٍ معذور وسعيك مشكور وعملك عند الله تعالى وخاصة عباده مبرور. انتهى كلامه الشريف وهو كلام مسكت وللجاحدين مبهت، فخذه أيها المحب وكن من الشاكرين.

وقال شيخنا رضي الله عنه: قلب العبد العارف طائر بين الخوف والرجاء، وقلب البطال ملتصق بالرجاء وحده، وقلب المردود بعيد عن الكلمتين، دينه هواه، ينقلب بمرضه مع غرضه، وعلى هذا فالمردود لا قلب له. وقال شيخنا رضي الله عنه: يطير القلب إلى حضرة الله بجناحي الصدق واليقين، ويسقط عن طلب الحق بكثرة الاهتمام بالدنيا والاشتغال بجمع حطامها والقعود عن نفع الناس والتجرد لنشر الخير فيهم، والساقط من لم يبصر من خلال ستور الأكوان غير نفسه، والموفق يرى الناس وهو فيهم يريد جلب الخير له ولهم ودفع الشرّ عنه وعنهم. وذلك الرجل الكامل.

وقال شيخنا رضي الله عنه: المعاني لها صور يعرف ذلك أهل العلم بالأثر، وفي الحقائق رقائق، وفي الرقائق أساليب تسير في القلوب بيد اللطف الخفي كثيرة الأنواع لا يعلمها إلا الله تعالى وهي معنى ما قيل: لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق. وأما الطرق المعروفة اصطلاحًا، فكلها طريق واحد والقافلة السائرة في ذلك الطريق قافلة واحدة، غير أن الخادم في برهة المسير يعرف المخدوم ويجله ويعتني بخدمته على مشربه وطوره ولا بدع فالمرشد الكامل الذي يتبع في المنهاج، وينتهي إليه الأمر في المسير إنما هو رسول الله ﷺ لا سواه وكل رجال القافلة خدامه وأتباعه ولهم في رواحلهم خدم فإذا سئل خادم أحدهم قال: أنا خادم فلان وهو كذا يقوم وكذا يقعد، ويصف حاله ويثني عليه، وإذا سئل عن غيره من بقية رجال الطريق ذكره بخير وأحسن الثناء عليه أيضًا على أنه من القافلة وهو أخ في الطريق لمخدومه لا فرق بينهم. نعم في القافلة السابق واللاحق والجامع لهم إنما هو ذلك الطريق المحمدي الذي قام لهم فيه مرشدًا معلمًا للخير دالًا عليه موصلًا إليه رسول الله ﷺ، فعلى قدر التحلي بأحواله والعمل بأعماله والتخلق بأخلاقه والتمكن باتباعه تكون رتبة القرب للسائر، والسائرون على أثره ﷺ قافلة أتباعه. والخلص المعدودون من أتباعه، هم أولياء الله المحبون المقربون ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس: الآية ٦٢]. ولما كانت بضائع حالهم، وشرائف أخلاقهم ومناقب أتباعهم كما هي مجهولة

عند الناس. والعلوم عندهم أنهم رجال قافلة طريق الحق إذن لزم على من خدمهم وانتظم بسلكهم وكان من حزبهم أن يخدم مخدومه ويعظمه ويثني عليه ويعرف له حق الاتباع، وأن يحفظ قلبه ولسانه من سوء الأدب مع بقية رجال القافلة إخوان مخدومه، بل عليه أن يجلهم ويعلي قدرهم ويثني عليهم بعد مخدومه الذي يجب عليه شكره دونهم على أنه ربيب مائدته ومشمول نعمته، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله وهذا نظام الأدب مع الله وأولياء الله فعليك به والموفق الله. وأنشد هنا رضي الله عنه:

طريق القوم أهل الله واحد ... فقل لابن الزوايا والمساجد
أبوك ولي أمرك يوم تسري ... وما الباقون بالقوم الأباعد
فأيد مجد والدك ابتهاجًا ... وعظم قدر إخوته الأماجد

انتهى كلامه رضي الله عنه. وكان سيدي الوالد الماجد رحمه الله تعالى رحمة واسعة يقول: الأدب مع القوم والمحبة لهم جميعًا علامة القبول، والأدب الكامل والمحبة الوافرة للشيخ بشروطها علامة السعادة الأبدية إن شاء الله. ويقول طاب ثراه: القوم أعيان الحضرة أكابر دواوين الشهود زيهم في الحضرة واحد وطريقهم واحد ومرشدهم واحد، غير أن مشاربهم مختلفة فالذي يلزم على الطالب أن يحبهم ويعظمهم ويفنى بشيخه ليشرب مشربه ويتأدب بأدبه، وبعد الكمال يصير مطلعًا على مشارب الجميع وعارفًا بعاداتهم بل يصير منهم رضي الله تعالى عنهم. وأول شرط الفنى في الشيخ أن يعمى المريد عن متابعة غيره. فيكون وراءه القدم على القدم. ومتى عمي المريد أبصر، قلت: هذا معنى كلام القطب السيد مهدي الرفاعي نقيب البصرة قدّس سرّه:

إن عيني غيركم ما نظرت ... عميت عن غيركم فأبصرت

قال شيخنا مرشد الوقت رضي الله عنه ونفعنا والمسلمين بعلومه آمين: الحكيم المحمدي شأنه مع الخلق جمع وشأنه مع الخالق فرق وشأنه مع نفسه انسلاخ.

نظر الخلق بباصرة الجمع وقف مع الكل منهم على جادة الأدب وقر كبيرهم ورحم صغيرهم وعظم عزيزهم وحنا على مهملهم وأحب صالحهم ونصح طالحهم وأراد الخير لهم جميعًا وكذلك خير الناس من ينفع الناس، وذا نظر إلى قدس الخالق بباصرة الفرق نزّهه في ذاته وصفاته عن سمات الحدوث وقرأ بلسان العرفان من آي الفرقان ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: الآيات ١ - ٤]. وإذا نظر إلى نفسه بباصرة الانسلاخ عنها تجرد بعد رؤيتها وهناك وقد أمن. قال قائلهم على لسان الغيب: قيل لي: خل نفسك وتعال.

لطيفة:

كان سيدي الوالد الماجد طاب مرقده يقول: ما رأيت نفسي قدامي إلا وجدت قلبي وراء (آه ما أعذب هذا التعبير) وفيه معنى من كلام سيدنا الصديق الأكبر رضي الله عنه فإنه قال: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله. ولهذا انسلخت همته الشريفة عن رؤية الأشياء بالكلية وعلت إلى قدس الله، فإن من يرى الأشياء قبل الله ينحجب بالأشياء الفانية عن خالقها الباقي، ومن يرى هيبة الله وعظمة قدسه قبل الأشياء يقف مع الحق في كل شأن له من الشؤون الكونية فيسمع بالله ويبصر بالله ويتحرك بالله ويسكن بالله ويكون شغله بالله ورجوعه إلى الله ووِرده الجامع لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال شيخنا علامة الزمان مرشد العصر المجدد الأكمل رضي الله عنه: جهل المرء ببدايته يعلمه أن له مبدأ، وجهله بنهايته يعلمه أن له معيدًا، وهناك يفهم سر قوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: الآية ٥٥]. وقال رضي الله عنه: لو صح العلم لصح التسليم ولكمل الرضا، وهذا مأخوذ من معنى كلام المرشد الأعظم ﷺ، من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب، وقال: العارف خائف من ربه مطمئن بذكره سبحانه لا ينفك عن حسن الظن بالله طرفة عين ولا تمر عليه آونة إلا ويزداد بالله تعالى ظنًا حسنًا، خوفه يمنعه عن السقوط وحسن ظنه يمنعه عن القنوط، وقال رضي الله عنه: العارف إذا انبسط بلطائف المنن المعنوية انفلتت عليه الألسن بالقدح والذم والطعن ولكن هي ألسن المبعودين المقطوعين، نعم قال قائل القوم: لا يكون الصديق صديقًا كاملًا إلا إذا قال بزندقته أربعون صديقًا، غير أن هذا يتضمن معنى آخر في مقام آخر، وذلك أن الصديق لا يكمل حتى يخرج من عقبات الوجود، فلا يبقى في طرف زوايا قلبه انبساط بغير الله تعالى فإذا انفلتت عليه ألسن المعبودين بقي في زوايا سره الانبساط بفهم الصديقين من معنى قول القائل:

إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضبانًا عليّ لئامها

وإذا بقي فيه شيء من الانبساط في حاله أو مقامه لأحد ولو من أقرانه فهو حالة كونه صديقًا لا يعد كاملًا، فإذا قال بزندقته من جنسه أربعون، انقطعت حبال انبساطه

عنهم أيضًا وخرج من عقبة الاطمئنان بفهمهم له وعلمهم به، ورضي بعلم الله وحده في كل شأن من شؤوناته، ومع ذلك فإن أول من ينفلت بالذم للصديقين وعصابة الحق إنما هي ألسن المعبودين والمردودين، وتثور عليهم زفرات نفوسهم سيما أهل البغي من المعاصرين، إذ المعاصرة حرمان والانحجاب عن الكامل بحجاب الزمان أقوى ما يكون من السلطة على أذهان أهل الافتتان والله المستعان. وقال رضي الله عنه: متى زوى العاقل هذه الأشياء عنه، قرب نور الحق منه إذ الأشياء حجاب عن نور قدس الوهاب ومن الحكمة في السير إلى الحق إفراده بالطلب والقصد والنظر، ومتى توجه طلب السائر أو قصده أو نظره إلى غيره أخطأ الطريق وزل، وما عليه من جناح إذا تشبث برجال الدلالة عليه السائرين قبله إليه الواصلين الخالصين فأولئك هم قافلة الحق، وهداة الخلق فبهداهم اقتده فإن السير مع الدليل على صحة الطلب دليل.

قلت: قد ذكرت هذه العبارة إلى خواص العصر سيدي الوالد قدّس سرّه فطاب لها جدًا، فقال: نعم، كما أن شرب الماء وأكل الطعام ولبس اللباس لا ينافي اعتقاد العبد أن الأجل محتوم وأن المحيي هو الله، فكذلك اتباع الدليل في طريق الله لا ينافي صدق العبدية لله تعالى بل هو من آلات صدق العبدية عند المحققين، قلت له: فحينئذٍ الاستغاثة بأهل الله رضي الله تعالى عنهم من هذا القبيل، قال: نعم لا شك بذلك وانظر إلى آثار الله في ملكه، فإن الناس يخشون من الأسد ويألفون النعجة لأن المؤثر وضع في الأسد قوة الافتراس ووضع في النعجة الأنس وجعلها آلة نفع محض للإنسان، فإذا استعمل الإنسان ما يصونه من الأسد ويجلب له النعجة لينتفع بها يكون منقادًا لحكم التأثير الذي وضعه المؤثر في الأسد والنعجة. وكذلك المستعين بعباد الله الصالحين، يعلم أن الحق سبحانه أعطاهم قوة الإغاثة ووضع فيهم هذا السر، فطلب سر الإغاثة هو دليل على كمال الإيمان بالله تعالى لا كما يزعم المتمحلون من أن المستعين بأهل الله والطالب الإغاثة من عباد الله الصالحين يعتقد فيهم الفعل دون الله تعالى حاشا ولا يقول بذلك عاقل فضلًا عن أهل الصدق واليقين من المسلمين. وعندي أن المستمد من أهل الله إذا قال المدد يا سيدي يا رفاعي المدد يا جيلاني المدد يا بدوي المدد يا دسوقي مثلًا فكأنه يخاطب روحه الطاهرة قائلًا: أفض علي يا ولي الله مما أفاض الله عليك ووضعه من السر فيك، والولي مأمور بإعانة السائل وإغاثة الطالب. ومثل ذلك المنادي كمثل الفقير الذي يسأل من ذي ثروة صدقة والله تعالى قال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾ [الضحى: الآية ١٠]. هذا قولي وحسبي الله ونعم الوكيل. قلت: هل يجد العالم العامل والأديب العاقل إن لم يتمحل لهذا الكلام

الشريف من رد، وكيف يكون إلا إن أخطأ طريق الصواب وأخذه من إنصافه إصراره فأدخله أضيق الأبواب وسيأتي من كلام ساداتنا رجال الطريق ما يؤيد هذا الكلام الحقيق وبالله التوفيق.

قال شيخنا قطب الوقت مرشد الزمان رضي الله عنه: العاقل الكامل معراجه إلى حضرته أدبه لا نسبه ورأس ماله قلبه لا نفسه وقوة ظهره يقينه لا شكه وعلمه منقوله لا معقوله وحكمته دينه لا رأيه، يألف الناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ألفة الناصح المحب، ويقف مع كل واحد منهم في حضرة الحق لا في ساحة الباطل تعلو به همته عن النظر إلى غير الحق وأهل الحق ولا يجانس إلا من صفت مناهله وطابت موارده، ولكن يجالس البر والفاجر وهنا الحكمة فإنه يجالس ولا يجانس وإذا جالس غلب بنور حكمته ظلمة جليسه فأزالها إلا إذا لم يساعده الحال والوقت. هنالك ينصرف عنه انصراف الحكيم ولذلك قال قائل القوم: الصوفي الكامل ابن الوقت يعني لا يضيع حكمة الوقت ويعطيها غير ما يليق لها. وهذا نظر الصديقين وطريق المحققين وعلى ذلك درج أكابر الدين، وقال رضي الله عنه: ومن آداب الحكيم: صفاء السر، وصدق القول، ولطف البيان، ورقة الطبع، وخشونة الهمة فيما لا يلائم الحق وإذا فارق أو وافق كان في الأمرين حكيمًا وفي الطريقين كريمًا واندمج بسلك الذين إذا مروا باللغو مروا كرامًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا. وقال رضي الله عنه: حضرات القوم أهل الله، أحياءً كانوا أو أمواتًا. أبواب الحضور مع الله تعالى، فإذا دخلت حضرة من حضراتهم في حياتهم أو بعد مماتهم فكن أديبًا حاضر القلب وقف معهم وقفة الخشية من الله الذي اختارهم له أحبابًا وأقامهم عن بنيه نوابًا وجعلهم لحضرة قدسه أبوابًا. ولقد رأى فقيه اليمن البجلي رحمه الله ونفع به، رسول الله ﷺ في المنام فقال له عليه الصلاة والسلام: «وقوفك بين يدي ولي الله كحلب شاة أو كشي بيضة خير لك من أن تعبد الله حتى تتقطع إربًا إربًا»، قال: حيًا كان أو ميتًا يا رسول الله، قال: «حيًا كان أو ميتًا». قلت: يريد بالعبادة الغير المفروضة. ثم قال شيخنا رضي الله عنه وعنا به: ولا يجهل أسرار الوضع الإلـهي إلا القاصر. كان بعض السادة جلوسًا في مكان فسقطت عليهم حية من السقف ففر الجماعة سوى فقيه كان هناك فلما رجعوا سأله بعضهم قائلًا: لِمَ يا فقيه لم تفر من الحية، فقال: إن هي إلا دودة، فقال: دع هذا الهذيان الله تعالى سماها حية وأنت تسميها دودة. فانقطعت حجته. نقل هذه الواقعة العارف القوصي في الوحيد وغيره وقد أراد ذلك العارف إثبات حقيقة الوضع الإلـهي وإلا فالحقائق حينئذٍ تتغير والحال

أن الحقائق ثابتة والمثبت لها واضعها له الحكم وإليه ترجعون. قلت: ذكرت هذه الكلمات الشريفة لسيدي الوالد الماجد طاب ثراه فقال: يا ولدي لا شك أن العارف يقول: الحية حية وفيها سُمّ قاتل كذا خلقها خالقها وكذا وضع فيها سر الإسمام غير أنه يعلم أنها لا تسم إلا بالقضاء والقدر. فلهذا ينسلخ عن رؤيتها ويكون خوفه من الصانع الذي جعلها محلًا لظهور قضائه وقدره فإذا فر منها ففراره من قدر الله وقضائه إلى رحمته وصونه وعنايته، قلت له: بلغنا عن القطب الفرد الجليل مولاي الشيخ عبد القادر الجيلاني قدّس الله سرّه وروحه ونفعنا به، أنه كان يتكلم على القضاء والقدر فسقطت حية عظيمة من السقف وسعت إليه والتفت على عنقه ثم خرجت من كمه ففر الجمع ولم يتغير بل ولا قطع كلامه فقيل له بعد: ما هذا، فقال: إن هي إلا دودة يحركها القضاء والقدر. فما هذا الشأن المخالف لما قاله العارف الذي مر ذكره، فقال طاب مرقده: صدق حضرة القطب الجيلاني رضي الله عنه وكلامه لم يخالف كلام العارف الذي مر ذكره فإن الذي سقط في مجلس حضرة القطب الجيلاني ما هو حية بل هو دودة امتحان بزي حية، ويقال: إنها جني تزيا بذلك الزي ليختبر ثبات الشيخ رضي الله عنه بالتسليم في ذلك الموطن لحكم القضاء والقدر، فأظهر قدّس الله سرّه ما عنده من بضاعة اليقين والتسليم اللائقة به وبأمثاله من سادات الرجال وأبطال الدواوين رضي الله عنهم، ولكن الذي سقط في مجلس ذلك العارف فهو حية كما هي ولذلك قال للفقيه الذي سماها دودة: دع الهذيان الله تعالى سماها حية وأنت تسميها دودة، يعني لا تصادم سر كن فإن الصانع قال لنوعها: كن حية فلا تقل بمجرد الهذيان لها أنت دودة، وفي هذا تأديب للسالكين وتهذيب للواصلين والله المعين. قلت: انظر أيها المنصف للطف هذا التقرير ورقة هذا التعبير وافطن لما فيه من الأدب مع القوم أهل الله ومن دقة النظر في تأويل كلماتهم كما يليق لمقاماتهم، وكل الغرابة في أن سيدي الوالد الماجد طاب ثراه قرأ القرآن العظيم بعد أن بلغ من السن إلى ثلاثين سنة ولم يطالع كتب القوم بل كانت تقرأ له ويسمع وإنما كان تعبيره وتقريره من محض الإلهام الصمداني والفتح الرباني وذلك سر تقوى الله، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٢]. ولا ريب فإن سيدي الوالد الماجد طيب الله مرقده كان كنزًا مطلسمًا لم تفتح أرصاده إلا للموفقين، فإن مظهريته مظهرية هيبة وجلال وعلو حال وقد انضم لذلك رفعة شأن دنيوي وهذا كله من الحجب للأعين السيئة التي لم تنظر إلا الحجب وإلا فأرباب البصائر من أهل الكمال. وصحيح الحال كانوا عارفين بجليل مقامه متلذذين بلطائف كلامه وكان قدّس سرّه

يقول: القوم اتبع نحوهم ولا تسأل عن نحوهم. بعض القوم ألسنتهم لحانة وقلوبهم معربة. عكس بعض الناس الذين ألسنتهم معربة وقلوبهم لجانة. قلت: وهذا هو الإعراب الصحيح والطراز المليح والهادي هو الله.

قال شيخنا رضي الله عنه ونفعنا والمسلمين بعلومه: الزاهد المحمدي إذا زهد الدنيا وأهلها في نفسه، لم يزهد مصلحة الأمة بل همته قائمة بكلها لإعلاء شأن الأمة فيما ينفعها في أمر دينها ودنياها. وهذا هو زهد العارفين من الصديقين وأئمة الدين والصحابة المرضيين وأهل البيت الطاهرين بل وساداتنا النبيّين والمرسلين. وأما الزاهد الذي يزهد الدنيا وأهلها ومصلحة الأمة أيضًا فهو مجذوب مرفوع عنه القلم يتبرك به وتغتنم نفحته ولكن لا يقلد في السير فافهم. والله يتولى هداك. قلت وفي هذه النكتة، زلق أهل الترهات عبيد الدنيا الذين يفضلون دنياهم على دينهم بل هم عن الدين ومزاياه الكريمة في حجاب، وغلطوا وسقطوا وأرادوا قطع الأمة عن طريق السادة الأئمة رجال قافلة الحق رضي الله عنهم لجهلهم وسوء فهمهم، وظنوا أن مبنى طريق القوم رضي الله عنهم هو تخريب الدنيا والانقطاع عنها في الجبال. والحال أن زهد القوم الذين يقلدون في الطريق هو كما ذكره سيدنا وشيخنا رضي الله عنه عبارة عن زهد الدنيا وأهلها في نفس الزاهد وإلا إذا كانت الدنيا بحذافيرها بيده، ولم تكن في قلبه لا يضر ذلك وهو في عرف القوم زاهد، وإذا كان لا يملك من الدنيا ما يبل اللهاة وهو مشغول القلب بمحبة الدنيا مظهر للتقشف في العيش والملبس لا يعد في عرف القوم زاهدًا بل هو من طلاب الدنيا ولا فرق بينه وبين أولئك المتلصصين الذين همهم دنياهم ودينهم دراهمهم وقبلتهم نساؤهم وسيأتي إن شاء الله من كلام مشايخنا الكرام في هذا المعنى البيان الشافي والتبيان الكافي وحسبنا الله وكفى.

قال خواص الوقت سيدي الوالد الماجد طاب مرقده: إذا عمرت الدنيا في القلب خربت أعمال القالب، وإذا خربت الدنيا في القلب عمرت أعمال القالب. وقال نوّر الله ضريحه: والله لا فرق عندي بين لبس فروة ثمينة وثوب شعر مرقع. قلت له: كيف يكون هذا والحقيقتان مختلفتان وللفروة الثمينة شأن من الوضع الإلـهي والثوب الخشن المرقع شأن؟ فقال: هذا إذا كانت الفروة في السوق والثوب أيضًا ولكن إذا كان الملبس الحقيقي ألبسني ذلك الثوب فهو عندي كفروة الرجل الآخر، بل أجل تعظيمًا للملبس وتلذذًا بصنعه فإنه لا يختار لي إلا الخير وكلما فعل المحبوب محبوب، وقال نفعني الله به: الكامل بخوفه يأمن الناس، وبجوعه يشبع الناس،

وبفقره يغني الناس. قلت: لا شك أن الله يرحم البعض بالبعض ويغيث البعض بالبعض ويدفع البعض بالبعض جاءت بذلك الآيات ووردت الأخبار والدلالات وقامت البراهين العقليات وكلام العارفين رضوان الله تعالى عليهم جامع لأسرار الآيات والأخبار والدلالات والبراهين العقلية والحقائق النظرية، يعرف ذلك من وفقه الله لمحبتهم وأدخله في زمرتهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجَادلة: الآية ٢٢].

قال شيخنا عارف زمانه وسيد العارفين في أوانه رضي الله عنه: العصمة لجام همم الأنبياء والمرسلين والذنب لجام همم الصالحين فإن الأنبياء أوقفت هممهم العصمة الربانية المخصوصة لهم، عليهم الصلاة والسلام، عن طلب الغير، وحثت بها إلى الله تعالى. وإن الصالحين أوقف هممهم الذنب أو الهفوة أو الزلة عن طلب الغير بصادم الندم وحثها ذلك إلى الله بسائق التوبة والإنابة والخوف. قلت: وهذا التعبير الرقيق والتقرير الرشيق لم يسبق شيخنا رضي الله عنه به سابق من عرفاء القوم رضي الله عنه وعنهم، وفيه غاية البلاغة المحمدية والفصاحة الهاشمية والرقة الأحمدية، وقد قلت فيما يقارب. هذا المعنى الشريف والرمز المبارك اللطيف:

ساقني الذنب بالخضوع إليكم   وكستني الآثام ذلّا صريحًا
بدلوا الذل بالعناية عزا   واجعلوا الكسر بالقبول صحيحًا

قال خواص الزمان سيدي الوالد الماجد سقى الله ضريحه بوابل الرحمة عندي: إن تذلل المذنبين بالإخلاص ولهفتهم وبكاءهم وحنينهم وأنينهم وتململهم على عتبة باب الكرم ولوعتهم وخشوعهم وانكسارهم وخضوعهم أرجى من عبادة الأمين الذي يزعم أنه ليس بمذنب، وأسرع لاجتذاب نفحة المدد وأقرب لحضرة القبول، هذا إذا لم أقل إن أمنه يحبط عمله. آه ما أعذب صياح المنكسرين في الخلوات. آه ما أجمل رجوعهم باللهفة من الذنب إلى الرب. أنعم برجوع المقبولين المبشرين. يقول الحبيب الأعظم ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له». المكرمين بنص قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: الآية ٢٠١] فانظر يا ولدي وتدبر تعلم حينئذٍ أن الله تعالى عدهم في علمه من المتقين والعاقبة للمتقين انتهى كلامه.

فصل مختصر فيه شيء من نوابغ حكمنا والله ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٩] وبه المستعان، طيش العاقل خير من متانة الخبّ، بخل الكريم خير من

كرم البخيل، العقل ميزان العقل يقف في النقطة الوسطى لا يفرط ولا يفرط حيل الخب اللئيم كيفما صنعت وصنعت وأضمرت وسترت هي ظاهرة، اللئيم ينتقي الكلمة السيئة من ألوف الكلمات الطيبة، علامة الماكر أول ما يقع على التأويل القبيح وعقل الكريم أول ما يقع على التأويل الحسن. الحقود لا يعفو ولا ينسى، والمتشوف للمكر قد يعفو ولكن لا ينسى، وسليم القلب العلي الهمة يعفو ويجهد أن ينسى. الكريم يترقب فعلًا أو قولًا يرضيك به واللئيم يترقب قولًا أو فعلًا يسيئك به. المعروف لا يذكر إلا بعد أن يجحد ويكفر. الكريم يذكر المعروف إذا جحد وكفر لا ليمن به ولكن ليصون شرف المعروف من الاحتقار فإن القليل من المعروف محترم عند أهل المعروف، من أضمر الخيانة لأحد من الناس لم يسلم من صدمات الغيب، الخائن ساقط محتقر ولو نطح القمر لا بد أن يفطن الزمان للخوان ولو بعد حين فيرميهم، وإذا رماهم ما دفعهم بعد ذلك. من غلا دمه بالأعراض واشتغلت أفكاره بالأحقاد وأمل المعالي بالحيل مثاله كحمار الرحى يدور وغايته مبتداه. قد يظهر الخائن بثوب الأمين والماكر الغادر بكسوة السليم القلب المأمون الغوائل ولكن تصرعه الأقدار من نيته على أم رأسه فكلما وثب سقط. تلذ للنذل معاشرة مثله ولو بالإهانة وتصعب عليه معاشرة الكرام ولو بالعز والصيانة. الكريم وفيّ ولو غدره صديقه، واللئيم غدار ولو عامله بالوفا رفيقه. الوغد يرى الذي له ولا يرى الذي عليه، الطاهر القلب الصادق الحب يرى عيب محبوبه وكأنه ما رآه ويجهد أن ينساه ويريد منه كلمة جميلة ليعفو له بها عن قبيحة ثقيلة، والمغشوش القلب الكاذب يحب يختلق لصاحبه العيب حتى لا ترى عينه محاسنه ولا تبصر إلا مساويه التي اختلقها له ويريد منه كلمة كيفما كانت ليجعلها وسيلة يحكم عليه بها بالقبائح ولينسب له بسببها الفضائح. لم ينفع الذكاء بلا عقل وسيع ولم ينفع العقل الوسيع بلا قلب طاهر ونيّة تحمل الخير للناس. اللئيم يخدش عرضه اللئيم بوجه قطعي فيتأول له ويرضى عنه، ويعمر مجده الكريم فيتأول له ويغضب عليه. سيىء الأخلاق عبد ظنونه وكريم الأخلاق ظنه عبده يفطن للحسن ويتغابى عن القبيح. اللئيم إذا أعانه الكريم حقد عليه ووجه سهام الغدر إليه. أعجز الخلق الماكر وأذلهم الغادر وأقبحهم سيىء الأخلاق من حرف الحق وستر الحقيقة ونبذ بعكسهما شرفهما، مات وناره في قلبه. العاقل الكريم يقول: إذا خدش الشرف في العلن ينبغي إعماره في العلن، ويقصد بذلك مداراة الكرام ومصاحبة أهل الفضل وتحسين السيرة وتطهير السريرة، واللئيم يقولها ويقصد بذلك عمل المكر والخديعة والانتقام

والدسيسة والله تعالى يقول: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّـٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: الآية ١٠]، وهنا الفرق بين الرجلين الفاجر أُذنه سماعة للكذب من أهل الكذب، وقلبه مستعد لقبوله منهم، والطيب الطاهر أُذنه سماعة للصدق من أهله، وقلبه يأخذ ما صفا ويدع ما كدر. الخداع المحتال لا يخدع إلا نفسه قال الله تعالى: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البَقَرَة: الآية ٩] الخداع المحتال يضجر بصحبة الكريم الطاهر القلب وينبسط بصحبة أهل الشر والخديعة لأن أقوالهم وأعمالهم توافق ما في نفسه. العاقل يستر أطواره الخبيثة بالأعمال الطيبة، هذا إن كان لئيمًا وعاقلًا حكيمًا والحب بعيد عن هذا، والعاقل الكريم قوله وفعله وكل ما هو عليه طيب في طيب، لن يعثر الكريم وإن عثر قام ثم إن عثر قام ثم إن عثر قام، وإن قام بعدها لم يعثر، ولن يسلم اللئيم فإن قام عثر ثم إن قام عثر ثم إن قام عثر ثم بعد الثالثة، إن عثر لم يقم، والأخلاق روح المرء بها يقوم، المال يفنى والحق يبقى، صفرة اللئيم له نبل اللئيم يرجع إليه يضرب به غيره فيقتل نفسه. قلب المحق أمين بالحق المبطل يريد أن يجعل باطله حقًّا فيقول له تالي الحق: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا. ما وقف مع الحق إلا أهل الحق وكفى بالله وليًّا.

قال شيخنا قدّس الله روحه ونفعنا بعلومه: الشطح نوم لا يؤاخذ فيه الرجل بما يقول ولا يؤخذ عنه ما يقول والحال له عربدة يصدر عنها كلام قد يوافق المنقول وقد يخالف الأصول. فإن وافق قبلناه وإن خالف رددناه وقائله معذور والمتبع للمخالفات مهجور وإلى الله تصير الأمور. قلت: قال خواص الزمان سيدي الوالد عطر الله مرقده: الشطح شبه تحدث من صبوة الحال متى برد الحال بردت، والحال يتحول فالعاقل لا يعتمد على ما لا يثبت. قلت له: حينئذٍ كلما كان صادرًا عن الحال ليس بشيء، قال: بل هو أمر عزيز وشريف غير أن النظر فيه لما قام فيه فإن كان الذي قام فيه هو الخيال وزيادة المقال أو غبار ثائر في البال فليس بشيء وصاحبه لا على شيء، وإن كان الذي قام به هو وارد سماوي انطبق على أصل فرقاني أو نص نبوي أو حال مرضي لا يصادم حكمًا ولا يخالف حقيقة فتؤخذ منه في الحال نتيجته المرضية ويطرح ما عداها ولا يلتفت لنسيجة فإن نسيج الحال فيه ما يشاكل شأن الدعوى وإن لم يكن من الدعوى، وإن النفس:

لطف المحبة في أساليب الهوى ... يبدي بحكم النشر ما كان انطوى
فإذا سرت فيه الملاطفة ارتقى ... وهناك نجم الفرق في جمع هوى
فتطيش الباب وتثبت لوعة ... ويذوب في كون الهوى كون السوى

قال شيخنا الوالد الماجد قدّس الله سرّه وروحه: الحياء يمنع عن التفاخر بالفانيات الزائلات، والأدب يلزم بملازمة الباقيات الصالحات. قلت: ذكرت هذه الجملة لسيدنا وملاذنا وشيخنا غوث الوقت رضي الله عنه فقال: ما ألطف هذه العبارة، وأشرف هذه الإشارة فإن المستعارات تزول وتفنى والوضع الحق يدوم ويبقى، وهذا المعرض الفاني الزائل الذي يوجد في أيدي المغرورين وتندفع به نفوسهم للتعالي على الناس لمّا كان لا يغير حقيقة الوضع الحق الذي قام بهم فالتفاخر والتيه به هو من عدم الحياء، ولو كان الحياء صاحبهم لمنعهم عن التيه بعرض زائل ولله درّ القائل:

قل لمن تاه بالشياب علينا إن فخر الشياب من في الشياب
لو تحلى الكلاب أو تلبس الو شي لما زاد في محل الكلاب

قال شيخنا الغوث الأجلّ عارف الوقت رضي الله عنه: عالم الحدث محض فقر والفقر في عالم الحدث أشرف النعوت، فإن القديم هو الغني، والحادث هو الفقير. فعلى الحادث أن يفتخر بالفقر لأنه وصفه اللازم، وإن غنى الحادث مقيد والغني المطلق هو القديم يعرف هذا كل عاقل، ولهذا ترتفع النفوس من حضيض حدثها بنهضة فقرها تروم الغنى فتعصي الله للغنى. قال سيدنا عيسى المسيح عليه السلام: لو لم يكن للفقر فضيلة على الغنى غير أن الرجل يعصي الله ليستغني ولا يعصي الله ليفتقر لكفى، وقد أخذ هذا المعنى الشريف بعضهم فنظمه شعرًا قال:

يا عائب الفقر ألا تزدجر عيب الغنى أعظم لو تعتبر
إنك تعصى لِتنال الغنى ولست تعصى الله كي تفتقر

ولهذا هز العارفون همم أهلهم وأتباعهم ومحبيهم ومحبوبيهم لطلب العلم النافع وما حثوهم على طلب المال لعلمهم أن المال يمكن استحصاله بالعلم، وانظر سر قول الإمام الهمام الشافعي رضي الله عنه ونفعنا به:

علمي معي حيثما يممت يتبعني قلبي وعاء له لا بطن صندوقي
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق

والعلم النافع هو علم الدين الذي يراد به وجه الله تعالى ولا بأس بتعلم الفنون والأخبار، والاطلاع على الروايات والآثار، وإتقان الصناعة وبيع البضاعة، فإن كل ذلك لا ينافي الوقوف مع العلم النافع الذي يراد به وجه الله، فإن الرجل إذا استغنى

بما علمه الله من مطلق صناعة أو مطلق فن عن أن يذل للناس ويتزلف لما في أيديهم، ثم وفقه الله فأعان الفقير وأغاث الملهوف وأسعف المحتاج ونصر المظلوم وآتى الزكاة وتصدق وبذل في الله، فقد قام بنتيجة العلم النافع وله في الدنيا والآخرة البركة والنجاح والفوز والفلاح، كيف لا وقد ورد في الخبر عن سيد البشر ﷺ: «إن الله يكره العبد البطال» وذلك لأن العبد البطال يشتغل بما لا يعنيه ويترك ما يعنيه، وقد قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(١) يعني ما لا يحتاجه ولا له فيه ضرورة ولا ينفعه ويكون عيشه بذلك الترك حاصلًا، وذلك يشمل الأفعال الزائدة والأقوال الفاضلة وإلا فإذا اشتغل بالأمور التي يكون فيها صلاحه في دينه ونفسه ومعيشته كالأمور التي لا بد منها في قوام البدن وبقاء النوع ونفع الناس والسعي باقتناء الكمالات العلمية والفضائل الخلقية التي هي الوسيلة إلى نيل السعادة الأبدية والنعم السرمدية، فيكون قد اشتغل بما يعنيه ووقع على الخير خافية وبادية ويفسر هذا قول القائل:

اغتنم ركعتين في ظلمة الليل إذا كنت فارغًا مستريحًا
وإذا ما هممت بالخوض في الباطل فاجعل مكانه تسبيحًا

قال سيدي ومولاي الوالد الماجد قدّس الله سرّه وروحه: قلت مرة لشيخنا: إذا صحا صاحب الحال تميل إلى طور الحال وميلها لا يكون إلا لما ترتاح إليه وتلك مزلقة لا محالة. انتهى كلامه رضي الله عنه، فتدبر أيها اللبيب قول هذا السيد الحسيب النسيب واعمل به والله ولي التوفيق.

قال شيخنا غوث الزمان مرشد الأوان رضي الله عنه: الحال يصرع والأدب ينفع والدعوى تقطع والقائل يقول والباري يسمع. قلت: إني ذكرت هذه الجملة إلى سيدي خواص الزمان حضرة الوالد نفعني الله به، وقلت له: ما فهمت كل معانيها، فقال لي: يا ولدي حضرة السيد رجل إمام علامة، وأنا رجل على البركة فطالع كتبه وتتبع حكمة هذه الجملة واستخرجها من كلامه. قلت له: لا بد إلا أن أتبرك بكلامك وأن أفهم رأيك المبارك بهذه الجملة فتبسم وقال: توكلنا على الله والموفق الله الذي يلوح

(١) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٢٠١)، وابن حبان (١/ ٤٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ١٢٨)، (٢٨٨٦)، وفي الأوسط (٣/ ١٨٨)، (٢٨٨١)، (٨/ ٢٠٢)، (٨٤٠٢)، وابن جميع في معجم الشيوخ (ص ٢١٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٤٣، ١٤٤)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٨)، وقال: رواه أحمد والطبراني في الثلاثة... ورجال أحمد والكبير ثقات. قلت: الحديث رواه علي رضي الله عنه، وأبو هريرة مرفوعًا.

لخاطري من قوله: الحال يصرع إلى آخره أن الحالة زلزلة لأهل الأحوال لا بد وأن يرميهم من مرتبة تمكنهم أول وهلة، فإن استقبلوا تلك الصرعة بالأدب بعد وقوعها ومشوا معها على ما يناسب الحال المحمدي فمزجوا أحوالهم بأحوال النبي ﷺ يعني تأدبوا بآدابه، فهنالك يحصل لهم النفع العظيم والخير العميم، وإن ارتاحت النفس لصرعة الحال وزمجرت بعدها بالدعوى والعياذ بالله فهناك تحصل القطيعة حمانا الله وإياك والمسلمين أجمعين آمين. وقول حضرة السيد بعد قوله: والدعوى تقطع والقائل يقول والباري يسمع، هذا غاية التقريع والتحذير فإن الله سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فلذلك يلزم ويجب على القائل أن يقول ويراقب فيما يقول باريه الذي يسمعه. وإذا صحت المراقبة قلّت المعاتبة. انتهى كلامه قدّس الله سرّه.

قال شيخنا مرشد الوقت علامة العصر عارف الزمان رضي الله عنه: الحياء باب القبول ومفتاح الوصول، الحياء جلباب ما لبسه إلا أهل التوفيق هو كما جاء في الخبر شعبة من الإيمان وكاد أن يكون الإيمان كله. من نزع الحياء فقد نزع رداء الإيمان واتبع الشيطان ولذلك جاء في النص الأقدس المحمدي من حديث شريف: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[1] أي إذا رأيت فعلك لا يستحي منه ولا يعيبه أهل المروءات وأرباب العقول فاصنعه وإلا فلا فإن الحياء يمنع العاقل أن يفعل ما يستحي منه.

ارتد الدهر بجلباب الحياء فإمام السادة الرسل حي. قلت: قال سيدي ووالدي خواص الزمان أسد الوقت قدّس الله سرّه: الحياء تاج رؤوس أهل المروءة لا تتم مروءتهم إلا به وإن من نزع منه الحياء لا يؤتمن لا في حضرة ولا في غيبة، وقال أيضًا مرة: الحياة كمال الأخلاق فهو لها كالملح للطعام ومن المروءة أن لا يصحب العاقل إلا من يرى فيه رونق الحياء وقد قلت في الحياء بيتين وهما:

هي الأخلاق أشرفها الحياء ... وأقبحها الصلافة والجفاء
وكل الخير مجمله حياء ... ولا خير إذا ذهب الحياء

قال شيخنا خواص الزمان سيدي الوالد قدّس الله سرّه: باب أهل السلوك إلى الله الإخلاص، وله جناحان: الحياء واليقين. وقال لي مرة ونحن في خدمته في قرية يقال لها معربليت، من قرى أريحا، بنواحي حلب: اقرأ سورة النجم فإن فيها معنى من أعظم المعاني النبوية المحمدية. قلت له: وما هو المعنى العظيم الذي في النجم؟

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٨٤)، (٥/ ٢٢٦٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠).

فقال: ملاطفة القرب والوصول. والله ما قرأت، إلا وأكاد أذوب من لطف الحال الذي يشير إليه ذلك المعنى. وقد ذكرت هذه الجملة لسيدنا وشيخنا، قطب الزمان، غوث الأوان، ملاذ الأفراد الأعيان رضي الله عنه، فبكى، وقال: والله يا ولدي والدك رجل كبير، عظيم المقام، غير أنه من رجال التجريد، ولذلك يستغرب مظهره وحاله وكلامه لدى أهل النفوس، لو عرفت ما تضمنته هذه الجملة لما تحمل قلبك معانيها. فإن معنى ملاطفة القرب والوصول من الله لجناب رسوله الأعظم ﷺ، فيه من حال المحبية والمحبوبية ما لو أفرغ معناه لألباب أهل العرفان، لذابوا وجدًا وغرامًا.

وقال رضي الله عنه، السيد رجب المحمدي الصيادي قدّس الله روحه وطيب ثراه: كيف حال العارف مع من يجهل قدره ولا يعرف سره؟ فضحك وقال: العارف شغله ربه عن غيره، قال سيدي الوالد طاب مرقده: يريد أنه استهلك مراداته في مرادات ربه واشتغل به وحده فما رأى الأغيار ورأى كلما يحدث له من أمر هو من تنزلات القدس فيقابل الكل بالرضا وهذا هو العرفان الكامل. قلت: ذكرت هذه الجملة لشيخنا الغوث الأكمل عارف الوقت رضي الله عنه فضحك ولاحت على وجهه المبارك بوارق المسرة وقال: ما ألطف كلمات هذه الأمة الأمية وما أعذب معاني أسرارها الأحمدية المحمدية، نعم العارف شغله ربه مراده مستهلك في مراده سبحانه يعني لا مراد له دونه، وقد قال سيدنا إمام الطوائف السيد أحمد الكبير الرفاعي الحسيني رضي الله عنه وعنا به لخادمه حين قال له: أي سيدي ادع الله لهذا المريض أي مبارك تريد أن أكون سيىء الأدب لي إرادة وله إرادة. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤] وعزّة الله تعالى لأحمد كل يوم عند الله مائة حاجة مقضية ما سألته منها حاجة، وبعد يومين عوفي المريض بإذن الله تعالى. ذكر ذلك الإمام السبكي في طبقات الشافعية وغيره، وحيث انطمس مراد العارف عن الإرادة وبقي ممحوقًا في كونه وقام على ساق الأدب مستسلمًا لربه، فإقبال الناس عليه وإعراضهم عنه والعطاء منهم والمنع عنده على حد سواء لأنه غاب برؤية تنزلات قدس ربه عن مظاهر الحوادث فانقطع نظره عنهم بالكلية ووقف مع أحكام التنزلات راضيًا لا يرى لكونيته حقًّا في غيرها، وهناك يكون مظهرًا لقول الإمام الحسين الشهيد رضوان الله وسلامه عليه، من اعتمد على حسن اختيار الله تعالى له لم يتمن غير ما اختاره الله له. انتهى.

قال شيخنا وسيدنا الوالد الماجد قدّس سرّه: لم يكن في بيت شيخنا السيد رجب شيء سوى الحصير، فقلت له مرة: لو اتخذنا للزاوية سجاجيد وأشياء، فقال:

لا، هكذا أولى لا يروح لنا شيء ولا نهتم لفقد شيء وبهذا القلب مستريح. قلت: ما أحسن هذا المعنى الجليل والنظر الجميل، وهذا ينطبق على قول بعض حكماء العارفين رضي الله عنهم وهو:

ألم تر أن الدهر يهدم ما بنا ... ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى
ومن سره أن لا يرى ما يسوءه ... فلا يتخذ شيئًا يخاف له فقدا

ويعجبني قول أحد العرفاء نفع الله بهم في الذين يجمعون الحطام وتغرهم الأيام:

جمعوا فما أكلوا الذي جمعوا ... وبنوا مساكنهم فما سكنوا
فكأنهم كانوا بها ظعنًا ... لما استراحوا ساعة ظعنوا

ومع هذا فلكل من أهل الله رضي الله عنهم حال ومقام ومظهر. كل ذلك مُفاض من يد الغيب بإرادة المقيم وهو بكل شيء عليم. قال شيخنا عارف الوقت قطب الزمان غوث العصر رضي الله عنه: المظهر لجميع المظاهر هو الباطن الظاهر فعليك أن تلزم حكم سره في مظهرك حسبما أظهرك، وإذا أخذت بالترقي من حال إلى حال آخر فقف في سرك مع حكمه سبحانه وتعالى حتى ينكشف لك غطاء الإرادة وتبقى معها لا مع اجتهادك ولا مع قصدك ومرادك. فإذا كنت مع الإرادة رافقتك السعادة واتضح لك الأمر وقمت رفيق الأمن والعز. وهكذا أهل الحق رضي الله عنهم أجمعين. انتهى كلامه.

قلت: ومعنى كلام شيخنا وسيدنا عارف الوقت رضي الله عنه يفيد الأمر بحسن الظن بالله تعالى وقد جاء في الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي إن ظن بي خيرًا فله وإن ظن بي شرًا فله)[1] والعبد متى كان حسن الظن بالله وثيق القلب بفعله الجميل سبحانه فإنه لا يرى إلا الخير والبركة والسعادة في جميع أموره. وما أحسن ما ناجى به بعض العارفين ربه الكريم المعين قائلًا:

يا ربّ يا ربّ جد بلطف ... فالعبد ألوت به الهموم
وأنت أهل لكل خير ... ظن بك العبد يا كريم

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٦٨٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١).

وقد نص الشرع الشريف على لزوم التعادل بين الخوف والرجاء فإن الخوف يمنع عن الغفلة والرجاء يمنع عن القنوط إذ الغفلة والعياذ بالله باب الجزاء، والقنوط باب القطيعة، وكلاهما من المصائب، حمانا الله والمسلمين. والمؤمن الكامل لم يزل بين يقظة تهذبه وأمن يثبت إيمانه، وكيف لا يكون المؤمن الكامل العارف العاقل متيقظًا ولمحاضرة الحق متأهبًا وفي كل طرفة ونفس يناد به منادي الأجل أن تهيأ حتى إذا جاء الإبان ترك الأهل والخلان وفارق الأحباب والأوطان وانكشف له الغطاء عن البحر الهائج الذي تتقلب في موجاته ذرات النوع أوائلها وأواخرها أصاغرها وأكابرها، وهناك الدهشة والحيرة اللهم سلم سلم، قد نرى أهل الرفاهية والترفّه في حضيض القبور في تراب كثيف لقمه الدود فراشهم الصعيد الممدود كما قال بعضهم:

عشت دهرًا في نعيم … وسرور واغتباط
ثم صار القبر بيتي … وثرى الأرض بساطي

ولا فرق في التراب بين الغني والفقير والأمير الخطير والعبد الحقير وإلى الله المصير. فإذا كان الأمر كذلك فهل للعاقل سوى التيقظ والتأهب لما لا بد منه ولا محيص عنه، وتقلبات الشؤون والأحوال واعظ مقنع ويعجبني قول القائل:

لما رأتني هند صارفًا بصري … عنها وفي الظرف عن أمثالها زورُ
قالت عهدك مجنونًا فقلت لها … إن الشباب جنون برؤه الكبرُ
قد كنت أمشي على رجلي معتمدًا … واليوم أمشي على ما تنبت الشجرُ
أمشي قليلًا قليلًا وهي تقدمني … كأنني قوس رامٍ وهي لي وتر
من عاش أخلقت الأيام جدته … وخانه بفناه السمع والبصر

وقريب من هذا قول آخر:

صاحب الدنيا كشخص … فوق ظهر البحر واقف
فهو مرعوب بموج … وسحاب وقواصف
وأمانيه سكون … والمصيبات العواصف

ومع كل هذا فحسن الظن بالله سفينة النجاة وحصن الأمن وإذا تعادل الخوف والرجاء نبت ثمر العناية والأمان منهما والموفق الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللّهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة واحشرنا مع

عبادك الصالحين تحت لواء نبيك النبي الأمين عليه وعلى إخوانه النبيين والمرسلين وآل كل وصحب كل أجمعين أفضل الصلوات والتسليمات في جميع الأوقات.

قال سيدنا وملاذنا عارف الوقت شيخنا رضي الله عنه: همة البشر تجمع وهمة الزمان تفرق وهمة البشر ترقع وهمة الزمان تمزق والعاقل من اكتفى بصحبة العقلاء الحكماء وتباعد عن الحمقاء والسفهاء ووقف مع الزمان بما يليق له، قلت: ينطبق قول سيدنا رضي الله عنه على قول القائل:

المرء يجمع والزمان يفرق ... ويظل يرقع والزمان يمزق
ولأن يعادي عاقلًا خير له ... من أن يكون له صديق أحمق
فارغب بنفسك إن تصادق أحمقا ... إن الصديق على الصديق مصدق
وزن الكلام إذا نطقت فإنما ... يبدي عقول ذوي العقول المنطق
ومن الرجال إذا استوت أحلامهم ... من يستشار إذا استشير فيطرق
حتى يجيل بكل وادٍ قلبه ... فيرى ويعرف ما يقول فينطق
لا ألفينك ناويًا في غربة ... إن الغريب بكل سهم يرشق
ما الناس إلا عاملان فعامل ... قد مات من عطش وآخر يغرق
والكل في طلب المعاش وإنما ... بالحظ يرزق منهم من يرزق
لو يرزقون الناس قدر عقولهم ... ألفيت أكثر من يرى يتصدق
حكم القديم بفضله وبأمره ... فموسع في رزقه ومضيق
وإذا الجنازة والعروس تلاقيا ... ورأيت دمع نوائح يترقرق
سكت الذي تبع العروس مهينًا ... ورأيت من تبع الجنازة ينطق
ومتى امرؤ لسعته أفعى دهره ... تركته وهو على اندهاش يصعق
والناس هم فئتان واحدة لها ... شيم وأخرى بالمعائب تزلق
بقي الذين إذا يقولوا يكذبوا ... ومضى الذين إذا يقولوا يصدقوا

هذا على الغالب. وتقلب شؤون الزمان عجائب. قال سيدي الوالد قدّس الله روحه: العبد الصادق مع الله في الأحوال، مثل قلب الرحى، هي تدور، وهو ثابت. وكذلك العبد وهو متوجه بكليته إلى الله تعالى، لا يتزلزل بحركة، الأحوال تدور حوله، وهو مع الله، ثابت طوره التسليم لله، والرضا عن الله. كنت في خان شيخون سنة سبع وسبعين في أوائل شهر رمضان المبارك وقد كنت مشغولًا بالتجارة أجيء بها

من حلب وأسلمها لمن أثق به من إخواننا يبيع ويقبض ويكتب ويحسب، كان ذلك امتثالًا لأمر شيخي المرحوم السيد الحاج أحمد الجندي الصيادي رحمه الله ونفع به فإنه قال لي: يا ولدي سمعت والدي الشيخ السيد مصطفى يقول: بع بعشرة واشتر بعشرة والبركة بين العشرتين. وفتح الله في أمر التجارة وبقيت مشتغلًا بها زمانًا طويلًا حتى حصل الإذن بتركها والاشتغال بأمر الزراعة. قلت: قال الولد رحمه الله ونفعني به: ففي التاريخ الذي تقدم ذكره هتف بي هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه: عجبًا لأهل هذه البليدة لو عرفوك حق المعرفة لقبلوا التراب الذي تحت قدميك، اصبر سترى لك من الجاه والرفعة وعلو القدر عند الله وعند الناس ما يجعل حاسدك مبهوتًا ومُحِبّك قرير العين مسرورًا فحمدت الله تعالى وشكرته وأثنيت عليه وذكرته، وسجدت لربي شكرًا وما علقت القلب لا بحسد الناس لي ولا ببشر الهاتف بل قمت على قدم التوكل على الله تعالى والرضا منه، فلو كانت الدنيا لي ومحقت ما انفككت عن التسليم ولو أعطيت لي كلها ما غبت عن مشهد عبديتي له الملك ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١، وغيرها]. قلت: ذكرت هذه الواقعة لسيدنا وشيخنا غوث الوقت صاحب النيابة المحضة في العصر قطب الزمان رضي الله عنه فقال: ما شاء الله هذا طور أهل التوفيق الذين أنبت الله في قلوبهم شجرة المعرفة وحققهم بها وألزمهم كلمة التقوى فكانوا أحق بها وأهلها ورزقهم مرتبة التمكين والحق أقول: والدك رجل كامل وعبد متمكن واصل أيده الله بالتوفيق وسلكه بمحض فضله أقوم طريق وكساه طرازًا رحمانيًا جماليًا جلاليًا إذا رآه العارف هابه وأحبه وإذا رآه المحجوب هابه وتباعد عنه وإذا رآه الموفق هابه واقترب منه، وفي مظهره حال من حال الغيب تنفعل له الشؤون حسبما يريد من غير إرادة منه ولا قصد، من أحبه حبًا خالصًا لاحظته عين العناية بمحض التوفيق ومن انحرف عنه جاحدًا حاسدًا أو منكرًا معاندًا تأخذه زعازع الأكدار كذا وكذا وهو لا يعلم وإن العين المحمدية لترعاه، فهو وذريته ومحبوه والمتمسكون بوثيقته الخالصون بمودته تحت رعاية النظر المحمدي إلى يوم الدين، فخذ هذه البشرى مني واروها عني وكن من الشاكرين قلت: الحمد لله رب العالمين سمعت شيخنا وسيدنا المشار إليه رضوان الله تعالى عليه. يقول:

إذا القوم أهل الله بشر بعضهم ... بشيء ترقب يا بني ظهوره
فأخبارهم من نور حضرة ربهم ... ولا بد أن الله يكمل نوره

وكون شيخنا رضي الله عنه من أصحاب الإلهام الصحيح والعلم الصريح، وكل كلماته الشريفة من بحر المدد المحمدي مأخوذة ومن فيض السر الإلهي مفاضة، ولقد

جربنا كل ما أشار إليه ونبّه عليه فرأيناه عيانًا ما تخلف منه حرف واحد يدري بذلك الموافق والمخالف والمصاحب والمجانب و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجُمُعَة: الآية ٤]. وقد قال رضي الله عنه: الولي الكامل ينطبع فيه معنى من معاني روح النبي ﷺ يفيض له حكم الغيب سيالة تفاض إلى روحه فتضيء عين بصيرته فيرى المغيب ويشهد المخفي ويبصر ما سيكون بإذن الله تعالى وما ذلك بغريب فإنه من سر روح الحبيب الأعظم الذي لا ينطق عن الهوى بل كل كلامه وحي يوحى رسخ في سره وأفيض من حضرة القدس إلى روحه وهو يفيض بفيض الله إلى عبيد ساحته المحبين المقربين المختارين إلى يوم الدين.

قال شيخنا عارف الوقت الإمام الجليل والعلم الطويل رضي الله عنه: انبلجت الحكمة الساطعة برداء النبي ﷺ فهو معدن الحكمة والشمس التي تجلو الظلمة والحقيقة الثورية المحضة التي تلوح في فضاء الأكوان المؤيد بالمعجزات التي تقيد العلم بصدق ما جاء به بالضرورة العادية عند أهل البصائر الحائز ﷺ أصناف الكمالات العلمية والعملية التي لو سلم حصول كل واحد منها لغيره لما اشتبه العاقل في امتناع اجتماعها فيمن هو مفتر كذاب فهو المكمل بالفتح على وجه لا يتصور في غيره، وقد فتش العقل عن حقيقة النبوة فحصلها ووجدها حاصلة له عليه الصلاة والسلام بدون شك ولا ريب ولا شبهة لكونه مكملًا على وجه جليل عظيم جامع للمحاسن والفضائل لايتصور قط في غيره، فلذلك حكم العقل حكمًا لا يمترى فيه بصدق جنابه وبصحة نبوته وأيد هذا إظهار المعجزات بالتحدي القاطع وقام في كل طور وحال بالمقام الوسط وخير الأمور أواسطها، فالحكمة مأخوذة عنه وصادرة عنه فهو معدنها وصاحبها وروحها ونظمها ومعناها وصاحب جوامع الكلم ومحكمات الجمل وناهيك منها بقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات»[1]. وهو سيد أهل السماحة وقد أعطى غنمًا ملأت ما بين جبلين وقوموا ما أعطاه يوم حنين فكان خمسمائة ألف ألف، وهذا نهاية الجود الذي لم يسمع في العالم لأحد مثله على أنه لم يحز لنفسه ولا لمصالح عائلته من مال الدنيا شيئًا بل ربما أكل خبز الشعير وربما طوى اليوم ثم اليوم ثم اليوم وإذا أراد فعل ذلك أصحابه قال لهم: «لست كأحدكم إني أبيت عند ربي فيطعمني ويسقيني» وقد أوتي علم الأولين والآخرين ورجفت لهيبته فرائص ملوك الأرض، وكان أشد الناس حياءً وتواضعًا يأكل كما يأكل العبد ويجلس

(١) رواه البخاري (٣/١)، ومسلم (٣/١٥١٥).

حيث يجلس العبد ويصل ويقطع وكل أعماله لله ﷺ وقد أطلعه الله على غيبه وأشهده ما لم يشهده غيره. قلت وقول سيدنا وشيخنا رضي الله عنه: وقد أطلعه الله على غيبه لا ينافي الآيات الدالة على أنه لا يعلم الغيب إلا الله وكقوله تعالى على لسانه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٨] لأن المنفي علمه ما هو من غير واسطة وأما اطلاعه على الغيب بإعلام الله سبحانه له فمحقق وقد تواترت الأخبار واتفقت معانيها على اطلاعه ﷺ على الغيب يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: الآيتان ٢٦، ٢٧].

وهذا النص المقدّس أيضًا لا ينافي اطلاع الأولياء على المغيبات بما يحصل لهم من الكشوفات ولا زيادة في هذا النص فإن السلطان إذا قال: لا يدخل اليوم بيتي إلا الوزير لا ينافي دخول خدم الوزير بيت الملك معه والصديق والولي والعارف إذا أطلعه الله تعالى على غيبه لم يره بنور نفسه وإنما يرى الذي يظهر له بنور متبوعه المرتضى ﷺ. قال شيخنا الوالد الماجد قدّس الله سرّه وروحه: يظهر من حكم الفنا في النبي عليه أفضل الصلاة والسلام للولي حال من حال النبي وعلم من علمه وسر من أسرار قلبه وانكشاف عن آيات سماوية وأرضية ملكية وملكوتية، فإذا ظهر مثل ذلك للولي وثقل عليه وارد ذلك الشأن استغرق في مقام الفناء الذي هو فيه فتكلم من حكم الوارد بلسان النبي ﷺ فإذا سمعه من لم يكن من أهل هذا الشأن ظن أنه يتكلم عن نفسه وحاله ومقامه وهناك يستعظم قول الولي وحقه أن يستعظمه لأنه فوق مرتبته ومنزلته بفراسخ عظيمة ومن عرف أن الولي يتكلم من حكم وارده بلسان النبوة راويًا أخبارها ناشرًا أسرارها موضحًا أطوارها، عرف نكتة المقال وسلم في الحال لأهل الحال وهي كتلاوة التالي: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: الآيات ١٢ - ١٤] فافهم والله وليّ الهداية والتوفيق.

وقال شيخنا الوالد الماجد قدّس الله روحه ونفعنا به: ينجلي الكشف لقلب العبد الصالح إذا تيقظ وطهر، قلت: يؤيد هذا الكلام الشريف قول سيدنا ومولانا ملاذ الرجال كعبة الآمال قبلة قلوب أولي المقامات والأحوال الإمام الرفاعي الكبير رضي الله عنه ونفعه: إذا صفا القلب حدّث صاحبه بما يكون وكان، وإذا أظلم حدّثه بأباطيل يغيب معها الرشد. سئل الإمام سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه: ما القوت؟ فقال: ذكر الحي الذي لا يموت. قلت: ولهذا قالوا: الذكر قوت القلوب

فكما أن للأجساد قوتًا تقوم به فكذلك للقلوب قوت تقوم به وهو حياتها ونورها وعلة وجودها، وإلا إذا كان قلب الرجل ليس بذاكر ولا صاف بمحاضرة الحق وبه حاضر فليس بقلب بل قلب ميت أو مفقود بذلك على هذا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: الآية ٣٧] فإن الذي يفهم من سر كلام الحق جلّت عظمته أن الذكرى تسقط على القلب الحاضر الذاكر. سار بعض الصالحين إلى زيارة رجل من مشايخ زمانه الكُمّل فلما وصل إلى طرف بلد الشيخ سمع بعض الحيوانات يتحدث مع البعض من جنسه ويقول بلغته أن ذلك الشيخ مات بالأمس، وكان ذلك العبد الصالح الذي قدم لزيارة ذلك الشيخ يعرف لغة الحيوانات فتأسف على عدم اجتماعه بالشيخ ثم دخل البلد فرأى الشيخ حيًا فاستغرب الحال لأنه يعلم صدق الحيوانات، وذكر القصة للشيخ وكان الشيخ أمينًا على الحال منصفًا فبكى وقال: صدقت أي ولدي إني كنت بالأمس في غفلة والعارف هو عبارة عن قلبه والقلب إذا غفل مات. قلت: قال شيخنا وملاذنا عارف الوقت غوث العصر رضي الله عنه: غفلة القلب مع زفرة الدعوى تنتج نفاقًا في المشرب فترى المطموس القلب بالغفلة إذا لعبت فيه زفرة الدعوى، نقض العهد وخان الذمة وكذب وافترى وغضب لغرضه وبات أسير غيه ومرضه، يصحب المشايخ لغاية مطوية في صدره مندمجة في سرّه، إن وافق هواه الكلب ولغ معه وإن خالف غرضه أبوه قطعه، تطير همته إلى كل دنية وتقف عزيمته مع كل قبيحة ردية، ومثل ذلك الرجل لا صحبة له ولا صاحب ولا موافق ولا مجانب وهو في كل الشؤون كاذب، وهذا سر قول النبي ﷺ: «إن في الجسد مضغة إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1].

ولما كان القلب مادة الشؤون في القالب يقلبه كيف يشاء قلبًا ولذلك جاء في الدعاء المأثور: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك» وفي الأخبار: «القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء»[2]. ومتى انقلب القلب إلى جهة ما انقلب القالب إليها وجمع كله عليها فإذا العبد هز قلبه بالذكر حضر قلبه واستنار واندفعت عنه الغفلة بالآثار واستعد لقبول الذكرى ونشط للعمل الصالح الذي يجمع بين خيري الدنيا والآخرة وانكشفت له الحقائق واندمجت في مضمونه الرقائق وهجر الخلق وتعلق بالخالق. وقد عد العارفون الذكر سُلّم القلوب إلى حضرة القدس وعلى هذا درج

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٨)، ومسلم (٣/ ١٢١٩).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٤٤٨).

النبيون والمرسلون والصديقون والعارفون ورجال حضائر القرب وهم على هذا إلى يوم الدين والله الموفق المعين.

نكتة لطيفة في شيء من كشوفات الأولياء رضي الله عنهم:

كنت في خدمة سيدي الوالد خواص الوقت العارف الكبير طاب ثراه، في حماة الشام في محل رجل من وجوهها فحصل قبض قليل في المجلس لحظوظ نفسانية وانصرف. ثم قمنا فلما خرجنا ضحك سيدي الوالد ضحكًا زائدًا فوق عادته فتعجبت لذلك فقال لي رضي الله عنه: وعزة الله سبحانه وتعالى رأيت نفسي الآن داخلًا لهذا المحل، والخيل والرجال أمامي وورائي يريدون حسن النظر مني وصاحب هذا المحل في حيرة كيف يداري وقته معي وكيف يصنع لي فضحكت لهذا السر ثم قال: والله إني أحب هذا الرجل وأحب جماعته وأُريد لهم الخير الوافر ودوام الستر والبركة والخلق الحسن والعز والمنهاج القويم والحال الصالح، ولكن هذه الدنيا خداعة وإن شاء الله بركة الأسلاف تعم الأخلاف. هذا نص كلامه المبارك فوالله الذي لا إلـٰه إلا هو ما مضى أعوام يسيرة إلا وكان الأمر كما قال، غير أني لم أكن في خدمته ولكني كأني شاهدت الحال فإني سمعت ممن حضر من جمٍّ غفير وله مثل هذه النكتة شؤون عجيبة وكشوفات غريبة تشعر عن حاله ونور قلبه وصحة قربه من ربه جل وعلا منها أنه كان في خان شيخون مرة وكنت والحمد لله في خدمته، فقال لرجل من كبار البليدة المذكورة كليمات أزعجته فتغير لونه. فقال سيدي الوالد المشار إليه رضوان الله عليه: سبحان الله الحق مر .وقد قال حضرة الفاروق الأعظم رضي الله تعالى عنه وعنا به: ما ترك الحق صاحبًا لعمر. والآن هبط إلى قلبي وارد فكأني أسمع قلبي يقول لي عن ذلك الوارد: إننا نخرج من خان شيخون ويعلو مظهرنا في هذه الدنيا بظهور عظيم ومقام كريم على صراط مستقيم رغمًا لكل حاسد لئيم وهذا الرجل ينحط حاله ويقلّ ماله ويجانبه أهله ورجاله، ومع كل هذا فوالله إني أريد له الخير والتوفيق وصلاح الحال وإنما التوفيق بيد الله سبحانه. قلت: فوالله العظيم كل ذلك وقع ما تخلف منه حرف واحد يشهد بذلك المحب والمنحرف.

وسمعته مرة في خان شيخون يقول: رأيت مرة الخضر عليه السلام ولم يقل في الرؤيا ولا علنًا. فقال لي: سيظهر الله لك ولبيتك مجدًا كبيرًا ونورًا منيرًا وشأنًا شهيرًا ويهبك أمانًا وإيمانًا كاملًا وسترًا دائمًا. قلت له: يا سيدي وإن شاء الله يقينًا صادقًا ورضاءً بما يرضى الله لي ولذريتي فتبسم وقال: وهو كذلك، أنت من المقبولين أكثر

من الصلاة والسلام على نبيك ﷺ فحمدت الله على نعمائه وشكرته على آلائه وصليت على سيد أنبيائه وعلى آله وأصحابه ووزرائه.

ثم قال قدّس الله روحه: يا ولدي بالله لو عرف أبو سفيان أن ولده معاوية رضي الله عنهما سيكون بعد أعوام يسيرة ملكًا وخليفة وتجبى إليه الأموال من الأقطار ويقام لأمره ويقعد، هل كان يتخلف عن المسارعة إلى طاعة النبي ﷺ ومحبته ونصرته والقيام بخدمته، فلا ريب أن كل عاقل يعلم العلم اليقين ويجزم الجزم القاطع أنه لو عرف لكان أشد الناصرين والمحبين لجناب النبي الأمين وكذلك شأن ورّاثه ﷺ مع الناس ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.اهـ.

نكتة لطيفة:

كنت في خدمة سيدي ومولاي وملاذي القطب الغوث الأكمل شيخنا رضي الله عنه وهو يخاطبني بخطاب معنوي فداخلني همّ دنيوي لأمور كثيرة، ولكني ما أظهرت مما في نفسي شيئًا فترك كلامه وقال لي: فتح عليّ بيتين خطابًا لك وقال رضي الله عنه:

إن ناديك الذي أكننته ... هو باد ظاهر في حاضرك
أجل قلبًا في حمانا إننا ... نحن قمنا بالذي في خاطرك

وكان الأمر والله كما قال فإن الله فرج الكرب بهمته وأتم لي وأقر عينهُ والحمد لله رب العالمين.

قال شيخنا عارف الوقت وإمام أولياء العصر رضي الله عنه: غلط الجبرية بتأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ١٧]، فإنهم قالوا بسلب فعل النبي ﷺ وأضافوا الفعل إلى الله تعالى وليس زعمهم بصحيح إذ لو كان صحيحًا للزمهم أن لا تكليف ولا ثواب ولا عقاب، والتأويل الحق أن هذه الآية نزلت في رمية يوم بدر وكون تلك الرمية إذا كانت رمية البشر على العادة المعروفة بين الآدميين فحقها أن لا تبلغ ذلك المبلغ الذي بلغته فكان سر ذلك أن مبدأ الرمية وهو حذفها من النبي ﷺ ونهايتها الذي هو الإيصال من الله سبحانه فأثبت له الرمي بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: الآية ١٧]، أي أضاف له الحذف الذي هو مبدأ الرمي ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهاية الرمي، وأخبره أنه هو سبحانه المنفرد في التأثير ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ١٧] ولأهل الأذواق العرفانية من حكمة حكم هذه الآية الكريمة معانٍ هم يفهمون أسرارها خاصة بهم ولا

يشاركهم فيها سواهم رضي الله عنهم، أقلها أنهم لا يبطلون عمل العبيد ولا يضفون إليهم تأثيرًا في كل أفعالهم فإن إبطال أعمال المخلوقين مزلقة ونسبة التأثير إلى المخلوق زندقة والله ولي المتقين وهو يتولى الصالحين. انتهى كلامه الشريف فتدبره أيها العاقل ففيه الكفاية والسلام. قال شيخنا الوالد الماجد قدّس الله سرّه وروحه: الولي الكامل يرى التنزلات السماوية لطيفة شريفة كيف كانت وعلى أي شكل وصورة أتت.

نكتة ظريفة:

كان في حلب واليًا جميل باشا ابن نامق باشا رحم الله الجميع وقد تحكم وتمادى فوق العادة، ففي يوم من الأيام أرسل حسام الدين أفندي القدسي أحد وجوه حلب إلى سيدي الوالد برسالة ونصها إن كانت التكية الصيادية محل حكومة فيلزم أن نعرف وإن كانت تكية فيلزم أن حضرة الشيخ يمنع الناس عن التردد بهذه الدرجة إلى التكية ولا نظن أني كمن رآهم من الولاة فأنا مشير ابن مشير، وإذا بقي الحال كذا أنا مجبور أن أكتب لإسلامبول. انتهى. فلما أتم حسام الدين أفندي الكلام قال سيدنا الوالد قدّس الله روحه للباشا: التكية الصيادية دار فقراء ما هي محل حكومة ولكن هي باب الإمام الرفاعي رضي الله عنه والمسلمون يطرقون باب هذا الإمام من مدة تقرب من ثمانمائة سنة فأنا وظيفتي الإرشاد لا الإفساد وحاشاي أن أمنع المسلمين عن باب هذا الإمام الذي هو محبوب جده الأعظم ﷺ، غير أن الوالي يقدر أن يطبع أوراق إعلانات ويلصقها على أبواب الأسواق والخانات يمنع بها الناس عن التردد إلى التكية الصيادية ونحن لا ندعو أحد ليتردد إلينا وبقي هنا بعض كلمات أفهم الباشا أنه لا يظن أني كمن رآهم من كثير من المشايخ، فتحدثًا بنعمة الله أنا جدي سلطان الأولياء وجدي الأعلى سلطان الأنبياء ﷺ وأهل هذا البيت إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه رضوان الله وسلامه في مذهبهم السجن خلوة والنفي سياحة والقتل شهادة، وهذه الثلاثة التي تخيف الناس وهي عندهم بهذه الدرجة هينة لأنهم يعلمون أن الفعال الحقيقي هو الله وهو المغيث للمظلومين وهو مع الصابرين، وأما كون الباشا يكتب لإسلامبول فهذا شيء عائد لرأيه كيفما شاء يفعل نحن إن كنا هنا أو كنا في إسلامبول أو في غيرها حالنا مع الله التسليم لا تتغير أبدًا إن شاء الله والعاقبة للمتقين انتهى. فذهب حسام الدين أفندي وبلغ الوالي الجواب فألقى الله مهابة السيد المشار إليه في قلبه وجاء الوالي بذاته إلى التكية وقبل يدي سيدي الوالد واعتذر اعتذارًا طويلًا وسأله الدعاء والرضاء فقبل عذره، فتأمل أيها اللبيب تفهم حال القوم رضي الله عنهم في حكم التنزلات السماوية والسلام.

قال شيخنا القطب الغوث الفرد الجامع رضي الله عنه: التنزلات بين لطف وقهر فما كان منها مظهر لطف فهو من أسباب الوصلة ولذلك يصان ويحترم، وما كان منها عن صدمة قهر فيلتجأ فيه إلى الله تعالى ليكشفه وهو أرحم الراحمين، وفي الحالين فشأن العارف الرضا عن الله والتسليم له وإليه ترجع الأمور، ولذلك جاء في الخبر «المؤمن تسره حسنته وتسيئه سيئته». قلت: وقد يشكر العبد الكامل ربه إذا وفقه لعمل صالح ويستغفره ويضرع إليه ويتوب إذا ابتلاه بعمل سيىء والأعمال والأخلاق والصفات الشريفة والخلال الحميدة، يجب على العبد فيها لواهبها الحمد والشكر وعكسها من الأعمال والخلال القبيحة السيئة يجب على العبد الإقلاع عنها والرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة والخضوع والخشوع وبذل الدموع ليخرجه الكريم من وهدتها ويحفظه في الدارين من سوء عاقبتها. رأى بعض العارفين رجلًا عالمًا يضرب صغيرًا له ضربًا مزعجًا بلا شفقة ورأى في طريق آخر بعض الشطار يتصابى لصبي له ويلاطفه والصبي يغلظ على والده وهو يضحك فقال العارف لخادمه: هذا العالم تسد طريقه قسوة قلبه وهذا الشاطر توصله شفقه قلبه، فما مضى برهة من الزمان حتى تاب الشاطر وصار من الصلحاء الأكابر وانقطع العالم بطلب الدنيا والعياذ بالله تعالى. واقعة شريفة كنا في حلب قبل أن نسكنها بأهلنا وقد جئناها للزيارة في خدمة سيدنا الوالد قدّس الله روحه فنزلنا ضيفانًا في بيت مفتي حلب المرحوم السيد الشيخ بهاء الدين أفندي الرفاعي الشهير، ففي يوم من الأيام ونحن مع المفتي المرحوم في مجلس فجاءت القهوة فأخذ القهوة سيدي الوالد والمفتي رحمهما الله وشيخ آخر كان إذ ذاك في المجلس من علماء حلب يقال له الشيخ هاشم آل عيسى هو من فضلاء الشافعية، فقال سيدي الوالد لحامل القهوة: أعط فنجانًا لمحمد يعني هذا العبد فحصل لي حياءٌ عظيم فكرر القول على الرجل وأمرني بأخذ القهوة فأخذت وشربت، وبعد ساعة ذهب الشيخ هاشم وبقينا مع المفتي المرحوم وكونه من العائلة الطاهرة الرفاعية ومن المحبين والمعتقدين بسيدي الوالد. قال: يا ابن العم أنا أعتقد أنك من خواص العارفين اليوم والعارفون لا يشتغلون لا بوالد ولا بولد عن ربهم ورأيتك ما قدرت على شرب القهوة حتى شرب منها هذا السيد الصغير فما الحكمة في ذلك؟ فقال له: سبحان الله العارفون الذين غيبتهم من الأولياء هم دون خدم سيدنا يعقوب الكريم ابن الكريم عليه السلام وهو قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: الآية ٨٤] فوالله ما تمالك المفتي المرحوم نفسه حتى بكى من دون اختيار وأخذه الجواب منه رحمه الله وقال: وددت أني لم أكن سألته لكثرة ما دخل قلبه

رحمه الله تعالى من الحزن الذي انفجر لحزانة قلبه فهم معاني ذلك الجواب ومثل المرحوم السيد بهاء الدين أفندي من يفهم معاني الحقائق فإنه من بيت الفضل وهو رجل الفضل طاب مرقده.

قال شيخنا القطب الغوث العارف الأكبر رضي الله عنه: الولي يترقى في معارج الولاية إلى الغاية ولم يبلغ من معارج الخصوصيات النبوية البداية، ولذلك فهو مع المصطفى سيد الكل ﷺ ومع إخوانه ساداتنا النبيين والمرسلين عليهم جميعًا أفضل صلوات ربّ العالمين في بحبوحة الأدب العظيم الكامل لا ينفك عنها لا قولًا ولا فعلًا طرفة عين لعلمه أنه والعياذ بالله متى انفك عنها طرفة عين سقط، ولأن الأدب معهم معراج الترقي إلى حضرة قدّس الله تعالى أفاض الله علينا من نفحات أسرار قلوبهم أجمعين آمين.

قلت: قال العارف العلّامة الشيخ عبد الوهاب الشعراني قدّس سرّه في كتابه الذي سماه القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلـهية ما نصه بحروفه، وقد بلغنا عن سيدي أحمد ابن الرفاعي أنه قال: صعدت في الفوقيات إلى سبعمائة ألف عرش فقيل لي ارجع لا وصول لك إلى العرش العظيم الحاوي لجميع العروش إنما ذلك خاص بمحمد ﷺ فرجعت ثم نزلت في السفليات حتى جاوزت سبعمائة ألف أرض، فقيل لي ارجع لو تجاوز من الأراضي عدد رمال الدنيا ما وصلت إلى الأرض الحاوية لجميع الأراضي فرجعت، وقال أيضًا: إن لله تعالى بحارًا من رمل يجري بين السماء والأرض منذ خلق الله تعالى الدنيا إلى يوم القيامة لله تعالى بعدد كل رملة منه مدينة قدر دنياكم هذه لا بد لكل ولي حق له قدم الولاية من دخول هذه المدائن والإحاطة بأهلها وحيواناتها ومعرفة أسمائهم وأنسابهم وطبائعهم. انتهى.

فانظر كيف دلنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه وعنا به على علو مرتبة النبوة وأن خصائصها لا ينالها الأولياء، فإنه رضي الله عنه لما نودي أن الوصول إلى العرش العظيم هو خاص بجناب سيد الأولين والآخرين عليه أفضل صلوات الملك المعين رجع على قدم الأدب عالمًا أن المقام لا ينال وبينه وبين مقامات الأولياء أهوال وحسن أن نذكر هنا ما ينسب للإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه وهو:

كيف الوصول إلى سعاد ودنها ... قلل الجبال ودونهن حتوف
الرجل حافية وما لي مركب ... والكف صُفْر والطريق مخوف

رزقنا الله الأدب الكامل مع ساداتنا الأنبياء والأولياء وجعلنا من الذين يوفون بالعهود ويقفون عند الحدود وحفظنا بمنّه وكرمه من بلية التجاوز، وأدام الدعوى وزودنا بفضله وإحسانه زاد البر والتقوى إنه البر المعين وهو أرحم الراحمين. ومن كلمات سيدنا ومولانا الإمام الأكبر الرفاعي رضي الله عنه التي نقلها عنه القطب الشعراني وقد مر ذكرها، تعرف أيها اللبيب رفيع منزلة الإمام الرفاعي رضي الله عنه وجليل عرفانه ومعرفته بعظمة الله وشامخ مقامه، ويعجبني قول شيخنا القطب الفرد المهدي الذي وضعنا هذه الرسالة بجمل كلماته الشريفة رضي الله عنه بمدح سيدنا الإمام الرفاعي ويعرف منزلته:

رجال بني السبطين في كل بقعة … من الأرض أهل الحلّ بالحال والعقد
وأقطابهم أهل الوحا أبحر الندى … جداول فيض الله في الجزر والمد
فعن عشرة واثنين عرج وبعدهم … فسيدهم من قال في حالة البعد

يشير إلى قول الإمام الرفاعي في القصة المتواترة المعروفة حين زار عام حجه سنة خمس وخمسين وخمسمائة جده رسول الله ﷺ ووقف تجاه قبره الكريم وقال: السلام عليك يا جدي، فقال له عليه الصلاة والسلام: وعليك السلام يا ولدي فتواجد وجثا على ركبتيه ساقطًا ثم قام وقال رضي الله عنه وعنا به:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها … تقبل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت … فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فانشق جدار القبر الشريف وخرجت له اليد المقدسة المحمدية فقبّلها والناس ينظرون، وهذه القصة السعيدة كالشمس في الشُّهرة لا تقبل النزاع ولا الدفاع. قال الإمام شيخ الإسلام السيد سراج الدين الرفاعي ثم المخزومي رضي الله عنه:

لقد مدح الغوث الرفاعي أمة … وماذا عسى من بعد أن قبل اليدا
ومن شرف الإرث الصريح لذاته … متى ذكروه يذكرون محمدا

وقال سيدنا الإمام الكبير السيد عز الدين أحمد الصياد الرفاعي رضي الله عنه:

الأولياء بكل فجٍّ في الورى … أتباع هذا السيد المتفرد
هو من رسول الله أقربهم يدًا … بتواتر ودليلنا مد اليد
فالدين عند الله دين محمد … وطريقة التقوى طريقة أحمد

وكون قصة مد اليد للغوث الأكبر مولانا السيد أحمد رضي الله عنه أظهر من شمس الظهيرة وأوضح من طلعة الصبح المنيرة، فذلك أمر اشتهر في العرب والعجم وسلم له عظماء الأمم وقال به أئمة أهل الحل والعقد في القرب والبعد، والحمحمة في هذا الخبر يخشى على صاحبها سوء الخاتمة، كما صرح بذلك السيوطي والصفوري وغير واحد، وقد بسطت والحمد لله لقصة مد اليد الشريفة كتابًا جليلًا سميته الكنز المطلسم في مد يد النبي ﷺ لولده الغوث الرفاعي الأعظم ما أبقيت فيه للقوس منزعًا، فمن أراد الاطلاع على شأن هذه القصة وأخبارها وعجائب أسرارها فليطالعه وفيه الكفاية:

لقد سبق الأقطاب في كل مشهد   أبو العلمين المرتضى صاحب اليد
فما كل قطب من ذوي السبق ذو يد   ولا كل فرد حين يدعى كأحمد
فأحمد في الأقطاب سيّد ركبهم   وفي عترة الهادي حبيب محمد

قال سيدي الوالد الماجد قدّس الله روحه: مشرب إمامنا الغوث الرفاعي رضي الله عنه كثرة الصلاة على النبي ﷺ وبها يطير السالك إلى حضرة القرب بإذن الله تعالى وكل ما حصل لي من الفتوح وعمني من البركة فهو من آثار الصلاة على النبي الكريم عليه أفضل التحية والتسليم. انتهى كلامه.

قلت: ذكر القطب العلّامة الشعراني رحمه الله ونفع به في كتابه مختصر تذكرة الإمام أبي عبد الله القرطبي ما نصه فأكثروا أيها الإخوان من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ: فقد كان سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله عنه يحثّ أصحابه على ذلك ويقول: بلغني أنها تجيز صاحبها على الصراط بسرعة والحمد لله رب العالمين انتهى.

قلت: وكفى في فضل الصلاة على سيدنا المصطفى ﷺ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: الآية ٥٦] فانظر أيها الفطن وتدبر كيف أمر الله تعالى الذين آمنوا بالصلاة والسلام عليه صلوات الله وتسليماته عليه، وفي ذلك دليل لأولي النظر والاستدلال على أن نور الإيمان ينمو ويعظم بالصلاة والسلام على سيد الأنام وكون الجناب المحمدي يرد على مَن سلّم عليه السلام، وسلامه على مَن سلّم عليه أمان له من طوارق الحدثان وبركة له في دينه ودنياه وفي شؤوناته ومعاملاته مع ربه بل وسلّم القرب إلى حضرة الرب وباب للمحاضرة مع سيد أهل الدنيا والآخرة وفيه يقول الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ

أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦] فالمكثر من الصلاة والسلام عليه لطائر بجناحي الصلاة والسلام عليه إليه لا بد وأن تحصل له الولاية الخاصة منه والعناية العامة من لدنه وفي هذه التعطفات المحمدية رأس مال الدنيا والآخرة.

نكتة لطيفة:

قال لي أحد أقاربنا الصالحين وهو السيد الحاج شحوذ آل النجم الشيخوني رحمه الله: رأيت في أوائل رمضان سنة تسع وثمانين ومائتين وألف في عالم الرؤيا موكبًا عظيمًا يجمع أممًا لا تعد ولا تحصى، فسألت فقيل لي: حضرة المصطفى ﷺ وقد ركب بتخت مجلل بطراز أسود مقصب تحمله خيول بيض ما رأيت في الدنيا مثالها مطلقًا، والناس أمامه ووراءه يصلّون عليه بأنواع الصلوات والتسليمات، فسألت أحد المقربين من التخت الذين يفهم أنهم من حاشيته الخاصة ﷺ: إلى أين هذا التشريف المحمدي؟ فقال لي: إلى بيت الشيخ حسن الصيادي، فقلت: ما شاء الله. وفي ذلك الحال رأيت شيخنا يعني الوالد وعليه جبة زيتونة الشكل وكأنه البدر، وقد أقبل ماشيًا يستقبل المركب النبوي وهو يصلي على النبي ﷺ فالتفت إليّ الرجل الذي كنت سألته وقال لي: جاء الشيخ حسن يستقبل جده ﷺ يا أخي، لازم الشيخ حسن فإنه من محاسيب النبي عليه الصلاة والسلام والحق يقال كل وقت ونحن نسمع منه الصلاة والسلام على النبي ﷺ ولكن لا كغيره من المصلين فإنه يصلي على النبي العظيم بالإخلاص والوجد والشوق والحنين والحضور والأدب والحال الوافر والغيبة عن غيره عليه الصلاة والسلام، فلما صار الشيخ أمام تخت النبي ﷺ فتح الستر الشريف ووقفت الخيول ورأيت أطراف الستر على أكتاف الشيخ ورأسه في التخت واستيقظت فاندهشت لذلك. وازداد عشقي للشيخ قدّس سرّه فذهبت لخدمته فوالله قال لي قبل أن أفوه بكلمة: صلّ على النبي ﷺ فهي مفتاح جميع أبواب السعادة فحصل لي حال عظيم وذكرت له الرؤيا فبكى سرورًا حتى كاد يغيب عن نفسه نفعني الله به انتهى.

وقال لي أيضًا الحاج شحوذ المومى إليه رحمه الله: ذهبت أنا والشيخ محمد العيساوي إلى زيارة الجبانة والوقت وقت ربيع فأجرينا ذكر شيخنا وأحواله يعني سيدي الوالد قدّس سرّه وقلنا: سبحان الله شيخنا نشأ بيننا من صغره وهو خالدي وقبيلته بين أظهرنا وبنو عمه معنا صباحًا ومساء، فلم نجد فيهم هذه الأحوال والمهابة والمعالي والمعاني التي فيه نفعنا الله به، وطال حديثنا بهذا

المعنى حتى رجعنا من زيارة المقابر ثم ذهبنا آخر النهار إلى خدمة الشيخ فبعد أن جلسنا تكلم على لطف الربيع كلمات قليلة ثم قال لنا النبي ﷺ: «قريشي ونشأ في مكة وبنو أعمامه كلهم في مكة بين ظهراني قريش» ومنهم من صدم وقطع وحرم ومنع، وما فاز إلا من صدقه وآمن به واتبعه وأين أحواله من أحوالهم وكماله من كمالهم شتان بينه وبينهم ﷺ، وسكت فنظر كل واحد منا للآخر. قلت: قول الحاج شحوذ حين ذكر سيدي الوالد هو خالدي نسبة إلى قبيلتنا بني خالد وهي القبيلة المعروفة في ديار الشام التي ينتهي نسبها إلى الأمير الخطير المجاهد الكبير سيف الله خالد بن الوليد الصحابي المكرم رضي الله عنه فإن جدنا الخامس الإمام السيد حسين برهان الدين آل الغزام الصيادي الرفاعي البصري قدّس الله سرّه تزوج بزيانة بنت شيخ بني خالد وأقام مع القبيلة المذكورة فنسب إليها والإضافة تكون لأدنى ملابسة ولا يخفى أن ابن الأثير نقل عن ابن بكار انقطاع ذرية سيدنا خالد رضي الله عنه والحمداني قال في بني خالد: هؤلاء الذين هم بأطراف حماة وحمص أنهم إن صح قول ابن بكار فهم من ذراري إخوته وأبناء عمه ويكفيهم شرفًا أنهم من قريش، قلت: والذي صححه النسابون والأعيان المحققون أنهم من ذريته وقول ابن بكار صحيح فإنه يذكر انقطاع ذريته التي في المدينة المنورة وإلا ففي سائر الديار هم ألوف مؤلفة فافهم هذا النص النفيس ولا تغلط، فإن الناس مأمونون على أنسابهم وهم في أنسابهم كما هم في أملاكهم ومن حفظ حجة على من لم يحفظ وعلى كل حال فالشرف القرشي حاصل وعم الرجل صنو أبيه مع أن المثبتة مقدمة على النافية والحجة ببقاء ذريته واتصالها به قائمة والسلام.

لطيفة:

كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل»، قلت: وذكر ﷺ خبر المعراج وقد أضاف البيت لنفسه الزكية مع أنه بيت أم هاني وذلك لأن الإضافة تكون لأدنى ملابسة وتلك كمن نسب الإمام الرفاعي إلى قبيلة بني رفاعة فافهم.

فائدة:

هل الإضافة لأدنى ملابسة مجاز لغوي أو حكمي؟ قال العلّامة التفتازاني في شرح المفتاح في تحقيق قوله تعالى: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ [هود: الآية ٤٤]، إضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيهًا لاتصال الماء بالأرض إيصال الملك بالمالك

بناءً على أن مدلول الإضافة في مثله الاختصاصي الملكي فتكون استعارة تصريحية أصلية جارية في التركيب الإضافي الموضوع للاختصاص الملكي وإن اعتبر اللام وبنى الاتصال والاختصاص عليها، فالاستعارة تبعية وقال في إضافة كوكب الخرفاء: حقيقة الإضافة اللامية الاختصاص الكامل فالإضافة لأدنى ملابسة تكون مجازًا حكميًا. ورد عليه الشريف قدّس سرّه، فقال: الهيئة التركيبية في الإضافة اللامية موضوعة الاختصاص الكامل المصحح لأنه يخرج عن المضاف بأنه للمضاف إليه فإذا استعملت لأدنى ملابسة يكون مجازًا لغويًا لا حكميًا كما يتوهم انتهى.

تحفة:

قال سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه يمدح سيدنا سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه:

أخالد لا تعدم لؤي بن غالب ... قيامك فيها عند قذف الجلامد
إذا ناب أمر في قصي تجللت ... تشيب له رؤوس العذارى النواهد
توليت منه ما يخاف وإن تغب ... يقول جميعًا حظنا غير شاهد
كساك الوليد بن المغيرة حلمه ... وعلمك الشيخان ضرب القماحد
وأنت لمخزوم بن يقظة جنة ... كلا اسميك فيها ماجد وابن ماجد

قال شيخنا القطب الغوث العلّامة الخطير رضي الله عنه قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦]، وقال تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨]، فلشدة رأفته بالمؤمنين هو بكل واحد منهم أولى به من نفسه وله هذه المرتبة في الحياة الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة وقد أعطاه الله هذه الولاية العامة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: الآية ٥٥] ألا ترى أن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أصيبت عينه، وقيل: بل عيناه يوم أُحُد فوقعت على وجنتيه فأتى بها إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي امرأة أحبها وأخشى إن رأتني تقذرني فأخذها ﷺ وردّها إلى موضعها وقال: «اللهم اكسها جمالًا»(١)، فكانت أحسن عينيه وأحدّهما نظرًا وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى. وروى السهيلي عن قتادة رضي الله عنه قال: أصيبت عيناي يوم أُحُد فسقطتا على وجنتي فأتيت بهما

(١) أورده ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١٢٧٥).

النبي ﷺ فأعادهما مكانهما وبصق فيهما فعادتا تبرقان. والجمع بين الروايتين ممكن فإن الراوي الأول ظن أن الساقط واحدة، والثاني علم أن الساقط اثنتان فأخبر كلٌ بما علم والقاعدة أن زيادة الثقة مقبولة. وقوله: كانت لا ترمد يجوز أنه قال: ما رمدتا بعد كما كان يطرأ عليهما الرمد.

قيل: وقد وفد بعض ذرية قتادة على الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز طاب مرقده فقال له: من أنت؟ فقال: مرتجلًا:

أبونا الذي سالت على الخد عينه فرُدّت بكفّ المصطفى أيّما ردّ
فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حُسْن ما عين ويا حُسْن ما ردّ

فبكى عمر وقال:

فيا حُسْن ما عين ويا حُسْن ما ردّ

ووصله وأحسن جائزته.

قال شيخنا القطب الغوث الكبير رضي الله عنه بعد ذكر هذه الجملة، وقد وقع لي مثل هذه الواقعة في المراوعة من أرض اليمن وقد دخلتها وفيها السيد عبد الباري الصغير الأهدل ومعي رجلان من الفقراء، فانعطف نظره إلي وانخطف عنه بي فقال: من أي بيت أنت، بالله عليك قل لي، فقد وقع في قلبي منك شيء؟ فضحكت لقوله طربًا وقلت:

أنا ابن الذي مدّ الرسول يمينه له فحبي الإمداد من ذلك المد
رفاعي أهل البيت صدر رجالهم وفي عترة السبطين وسطة العقد
لقد مدّ بالإمداد مذ مدّ جده له يده البيضاء وازدان بالسعد
فلله من شبلٍ علا قمة العُلا ولله من مد ولله من جد

فبكى واشتغل بي عن غيري وقد أقمت عنده ثلاثة أيام، فكان يمضي الأوقات شاخصًا لي يريد أن لا يأكل ولا يشرب ويود أن لا يحول نظره عني. انتهى.

قال شيخنا سيدي الوالد الماجد قدّس سرّه ونفعنا الله به: الموفق السعيد يرعى حق الوالدين، هما الصديقان له الصادقان، حقهما على الولد ثابت بالشرع وبالطبع وإن دعاءهما له يخرق الحجب فقلت ولي في هذا المعنى استفاضة من كلام سيدنا

الوالد بيتان لطيفان وهما:

إذا أملت في الدنيا صديقًا أخا صدق فثق بالوالدين
فكم لهما عليك حنين قلب وأنت لديهما خالي اليدين

ومن أثنى المواعظ قول القائل فيما يناسب هذا البحث:

زر والديك وقف على قبريهما فكأنني بك قد نقلت إليهما
واقرأ من القرآن أنت بقدر ما تستطع وتبعث ذلك منك إليهما
ما كان ذنبهما لديك فطالما منحاك صفو الود من قلبيهما
بُشراك إن قدمت فِعلاً صالحًا وقضيت بعض الحق من حقيهما
لو كنت زرتهما وكانا في البقا زاراك حبوًا لا على قدميهما
كانا إذا ضرّتك يومًا علة جزعا لما تشكو وشق عليهما
كانا إذا سمعا أنينك أسبلا دمعيهما أسفًا على خدّيهما
فلتندمنّ على فِعالك مثلما ندما هما أيضًا على فِعليهما
واحفظ حفظت وصيتي واعمل بها فعسى تنال الفوز من حاليهما

وكان سيدي الوالد قدّس الله سرّه يدعو في خلواته كثيرًا بهذا الدعاء المبارك وهو «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، اللهمَّ يا ربّ الأرض والسماء، يا من احتجب عن خلقه فلا يُرى، يا من أنبت النبات والمرعى، يا من بيده نواصي الخلق جمعًا، يا من أخرج من ظلمة الأحشاء نسمة تسعى، يا من قسم الأرزاق أعطاه جمًّا ومنعًا، يا من أمات وأحيا، يا من له الأمر في الآخرة والأولى أسألك بحرمة عبدك الرجل العزيز العظيم الذي قدرت ظهوره والوقت قد اقترب فانتقل في أصلاب سادات العرب، واخترت له البيت والحرم، وخلقت من أجله الحطيم وزمزم ورفعت بذكره قبل ظهوره أطول علم وجعلته هاديًا للعرب والعجم وفضلته على سائر المرسلين وفضلت أمته على سائر الأمم، إلا ما غفرت لنا ولوالدينا والمسلمين وأسبلت علينا سحائب الكرم وسببت لنا فرجًا وجعلت لنا من كل ضيق مخرجًا، يا من ينجي من الغرق والضيق، يا من هو أرحم بالصديق من الصديق، تباركت يا مولانا وخالقنا الغياث والغياث، حارت منا النواظر وتعبت الخواطر وذهلت الأفكار وأنت العالم بما وراء الأستار من الأسرار، نسألك باسمك المحيط وبالعرش وبعجائب قدرتك المنبسطة في البحر وفي الفرش، يا رازق الطير والوحش يا ذا الشدة والبطش، أن ترزقنا من سماء لطفك ماءً

يبرد أكبادنا من الظمأ فأنت رب الأرض والسماء لا تختلف عليك الأسماء ولا يخفى عليك ما في النور ولا في الظلماء، ارحمنا وارحم والدينا برحمتك واشملنا والمسلمين بلطفك وكرمك وأغثنا وأهلنا وأحبابنا ومشايخنا ومن له حق علينا ومن تحويه شفقة قلوبنا بإغاثتك وحنانك وعنايتك، وصلِّ اللّهم على سيد أنبيائك وخاتم رسلك وعلى جميع النبيين والمرسلين وآل كل وصحب كل أجمعين. والحمد لله رب العالمين. قلت: وهذا مما يدل العاقل على أدبه مع ربه ونبيه ووالديه ومشايخه والمحبين والمسلمين فتدبر.

قلت: وكان سيدي الوالد الماجد قدّس الله سرّه يعظم قدر شيخه الذي هو والده الروحي عمه الأستاذ الجليل السيد رجب المحمدي الصيادي طيب الله مرقده ويقول والد الروح مقدّم على والد الجسم. قلت: هذا معنى قول قائلهم نفعنا الله بهم.

أرى فضل أستاذي على فضل والدي ... وإن زاد في بر وإن زاد في تحف
فذاك مربي الروح والروح جوهر ... وذاك مربي الجسم والجسم من صدف

وكان يكثر الزيارة لقبر شيخه ويتردد لزيارة قبور رجال البيت الأحمدي رضي الله عنه.

فائدة:

قلت لشيخنا القطب الغوث الجامع العلّامة الكبير رضي الله عنه: أرى أناسًا من المتفقهة اليوم، ينكرون على من يزور القبور ويشنعون عليه فماذا يقول سيدنا في هذا؟ فقال رضي الله عنه: من أنكر زيارة القبور استند لحديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»(١) الحديث. وجاء في رواية أخرى: «لا ينبغي لمصلي أن يشد رحاله إلى مسجد ينبغي فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»(٢).

وقال شيخ الإسلام في شرحه على البخاري عند قوله باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة والأقصى على غيرها من المساجد: سمعت عبيد الملك أي ابن

(١) رواه البخاري (١/ ٣٩٨)، ومسلم (٢/ ١٠١٤).
(٢) رواه البخاري (٢/ ٧٠٣)، وأبو داود (٢/ ٢١٦)، والترمذي (٢/ ١٤٨)، والنسائي (٢/ ٣٧)، وابن ماجه (١/ ٤٥٢).

عمر كما في نسخة قزعة بفتح الزاي وقد تسكن، سمعت أبا سعيد رضي الله عنه أربعًا، أي سمعت منه يحدث أربعًا أي أربع كلمات أو أحاديث وكان غزا مع النبي أي قال قزعة: وكان أبو سعيد غزا مع النبي ﷺ. حدَّثنا للتحويل من سند إلى آخر على ابن المديني عن سفيان أي ابن عيينة عن سعيد أي ابن المسيب لا تشدّ نفي بمعنى النهي لكنه أبلغ منه لأنه كالواقع بالامتثال لا محالة، الرحال جمع رحل وهو للبعير أصغر من القلب كنى بشدها عن السفر إذ لا فرق بين أن يكون براحلة أو بدونها، فذكر شدها جري على الغالب إلا إلى ثلاثة مساجد، والمراد لا يسافر لمسجد للصلاة فيه إلا لهذه الثلاثة لا أنه لا يسافر أصلًا إلا لها، المسجد الحرام بالجر بدل من ثلاثة وبالرفع خبر مبتدأ محذوف وتالياه الآتيان معطوفان عليه والمراد به هنا نفس المسجد لا الكعبة ولا مكة ولا الحرم كله، وإن كان يطلق على الجميع، ومسجد الرسول عبر به دون مسجدي للتعظيم وهو من تصرف الرواة ومسجد الأقصى هو بيت المقدس، انتهى.

ولا دليل في هذا الحديث الشريف على عدم السفر إلى زيارة القبور إنما المراد منه أن الفضيلة التامة إنما هي في شد الرحال إلى المساجد غير هذه الثلاثة المساجد للصلاة فيه، وإلا فزيارة قبور الأنبياء والأولياء والصالحين بركة غنيمة. وقد صرح حجة الإسلام الغزالي قائلًا، كل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته. وقال البرهان صاحب السيرة رحمه الله: ويجوز شد الرحال لهذا الغرض بغير كراهة كما هو المتبادر من إطلاق الجوار ولا بأس بذلك، انتهى كلامه.

ولا يجوز تحريف مقاصد المسلمين فإن ذلك من التدليس في مصلحة الأمة الدينية، إذ لا يصح أن يقول الفقيه لرجل قصد زيارة قبر عبد صالح أو عالم أو ولي أو نبي لوجه الله تعالى، أنت قصدته للصلاة في مسجده فإن تلك عادة اليهود جعلوا قبور الأنبياء مساجد يصلون فيها وإليها، والمسلمون لا يعبدون إلا الله ولا يزورون الولي ولا النبي إلا لله، وقد أفرط بعض جهلة المتفيهقة فقاسوا ذلك بتقرب عبدة الأصنام بالأصنام إلى الله وهذا هو من الجهل القادح الفاضح إذ تلك الزيارة من الحب في الله لعبد الله الولي المحمدي الذي اتبع النبي الأمي الذي أذلّ الأصنام وأزالها ونهى عن عبادة الأغيار ووجه عزائم القلوب إلى الملك الجبار ﷺ ما دجى ليل وأضاء نهار، والفرق بين الطريقين كما بين العرش والقرش وكل هذا من سوء الفهم في العلم كما قيل:

وكم من عائب قولًا صحيحًا ... وآفته من الفهم السقيم

ثم قال رضي الله عنه: زر في الله يا ولدي وأحبب في الله وخلِّ المتفيهقة المغشوش يخبط في تأويلاته الفاسدة خبط عشواء في فاعمة ظلماء، ويكفيك في الأعمال كلها قول سيد السادات عليه أفضل الصلوات والتحيات: «إنما الأعمال بالنيات»[١] والتوفيق من الله والموعد الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال شيخنا الوالد قدّس الله سرّه: يا ولدي ترفّع عن أهل الجدال من الممقوتين وخذ جانبًا عن الحاسدين وأعرض عن الجاهلين قلت: هذه من لباب مكارم الأخلاق يؤيد ذلك قول القائل:

متاركة السفيه بلا جواب   أشد على السفيه من السباب
فإن تهمل سفيه القوم تغدو   شقاشقة كعوعوة الكلاب

وقال آخر وأجاد:

إذا نطق السفيه فلا تجبه   فأحسن ما يُجاب به السكوت
فإن جاوبته فرّجت عنه   وإن أهملته غيظًا يموت

وأما الحاسد فلا يرضيه إلا زوال نعمة المحسود وليس له من دواء إلا الترك والإهمال، والجاهل حقه الإعراض وكل ذلك مشروط بترك الكل لله فإنه مذهب العارفين ومشرب أهل الحق واليقين ورحم الله القائل:

خذ العفو وأْمُر بعرف كما   أُمرت وأعرِض عن الجاهلين
ولِن في الكلام لكل الأنام   فمستحسن من ذوي الجاهلين

ولما نزل قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩] قال جبريل عليه السلام للنبي الأعظم ﷺ: يا محمد أتيتك بمكارم الأخلاق، أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصِل من قطعك وتُعرِض عمن جهل عليك وتحسن إلى من أساء إليك. وقد قال سيدنا الغوث الأكبر والقمر الأنور السيد أحمد البكري الحسيني الرفاعي رضي الله عنه وعنا به: كن للخلق كلهم نفعًا يجعل الله من لدنه عونًا وليكن حظ كل إنسان منك ثلاث خصال فإنهن أمهات خلائق أهل الإنصاف والفتوة إن لم تنفع المرء فلا تضره وإن لم تسره فلا تغمه وإن لم تمدحه فلا تذمه. قلت: وإذا الكريم الحليم ابتلى بالوغد اللئيم وأعيته فيه الحيل

(١) رواه البخاري (١/ ٣)، ومسلم (٣/ ١٥١٥).

فلا بأس أن يعمل بقول الله تعالى وهو أحكم الحاكمين ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٤]، أي: أن تزيدوا ومع ذلك فمرتبة أهل الكمال الشامل العفو عملًا بقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٧]. قال الإمام الرفاعي رضي الله عنه وعنا به: الفتى كالشجرة المثمرة تُرمى بالحجر فترمي بالثمر وكان يتمثل بقول القائل:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب وإن كثرت منه عليّ الجرائم

وسئل رضي الله عنه عن الفتوة فقال: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان وقد شاع حلمه وصفحه وتجاوزه عن المسيئين في أقطار الأرض حتى ضربت به الأمثال وحارت بشأنه جحاجحة الرجال وقد امتن الله تعالى عليه بوراثة الأخلاق المحمدية وأكرمه بالخصال المصطفوية.

ولا بدع فيمن خلقه خلق جده إذا قيل عالي النبعتين عظيم

فائدة:

قد نعتنا سيدنا الوالد الماجد قدّس الله سرّه بخواص الزمان إشارة إلى أنه كسيدي علي الخواص شيخ القطب العلّامة عبد الوهاب الشعراني رحمهما الله ونفعنا بهما في كلامه، أي كأنه أمي لأنه قرأ القرآن بعد أن بلغ الثلاثين من عمره ولم يقرأ النحو والآلات فكلامه ملحون، فكلما نقلناه عنه فنصه منه وتطبيقه على العربية فهو منا وإلا فلا زيادة عن كلامه ولا بحرف واحد ومع ذلك فهو في اللسان خواص عصره ولكن في المظهر فشأنه أجل وأعلى ومقامه أعظم وأرقى، لأن الخواص كان يخضع للشرطة ولخدام الحكام وهذا مشربه وفي هذا اجتهاده وعلى هذا منهاجه وأما سيدنا الوالد فإنه كبير القلب كبير المظهر عظيم المقام يترفع على أبناء الدنيا ويتواضع للضعفاء والفقراء ويعظم السادات والعلماء ويخضع بين أيديه الأعاظم والأكابر ولا يخشى إلا الله لا في الباطن ولا في الظاهر، ولم يزل محفوظ المقام رفيع المنزلة حتى أكرمه الله تعالى بالقدوم عليه لا زالت سحب الرضوان تساق بيد الحنان إليه، وأما اللحن الذي يصدر منه ومن أمثاله فلا يضر بمراتبهم عند أهل العرفان وعلماء هذا الشأن. قال الإمام العلّامة برهان الدين أحمد الحلبي القاهري رحمه الله تعالى في كتابه: «النصيحة العلوية في حسن طريق السادة الأحمدية» يذكر القطب العلوي صاحب المشرب النبوي مولانا السيد أحمد البدوي رضي الله عنه ما نصه: «وكان السلطان الظاهر بيبرس ومن دونه ينزل إلى طندتا لزيارته وكذا من بعده من السلاطين

كمحمد بن قلاوون». قال الحافظ ابن حجر رضي الله عنه: ويؤثر أي يحفظ عنه شعر لكنه مع كونه موزونًا غير معرب لأن أهل الله لا يلحنون بقلوبهم وإن لحنوا بألسنتهم، وقد قيل الفقيه إذا تكلم بالإعراب ذهب الخشوع من قلبه. انتهى. قلت: يريد في غير مجالس العلم كأنه ينجح بإعرابه ويرى العلو له على الناس بذلك وهذا النظر يزيل الخشوع من القلب بلا ريب حمانا الله والمحبين بل وجميع المسلمين، وقد كان لسيدي الوالد من الشعر الموزون الغير المعرب كالزهيري وغيره شيء كثير ومن كلامه فيما يناسب البحث من المطاوعي قوله:

عربت لفظك عجب قلبك حمل أعراب ... أو من لسانك دخل قلبك نقط أغراب
أهل المدائن وصنف البادية الأعراب ... صنفين لكن طريق أهل الصفا واحد
من صحح القلب يدخل حضرة الأحباب

قال شيخنا القطب الغوث العلّامة الكبير رضي الله عنه المعلم في طي قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: الآية ٧] هذا علم الدين، وأما علم الدنيا فهو إذا لم يدفع لضرر الناس ولم يصادم حكمًا فمباح ومستحب وفي بعض المواطن واجب وفرض وذلك لنسبة النفع للناس والتقوية للدين. انتهى. قلت: ما أبلغ وأجمل هذا التعبير والتقسيم الحسن التقرير فإنه جمع بين حكمتي الدين والدنيا وألف بين خيري الآخرة والأولى لا ينكر ذلك إلا جاحد ولا يكابر فيه إلا معاند وماذا يوضح الحكيم ويترجم الفطن الكريم، وللحاسد عثرات لا تقال وكلمات لا تقال.

استطراد:

لما شرّفنا الله بالنسبة للجناب الأعظم المحمدي وأكرمنا بأن جعلنا من العنصر الطاهر الأحمدي، فقد حصل لنا حصة من ذلك الإرث الكريم فجحد حقنا الواهمون وانفلت علينا الحاسدون، ولكن من أسرار الله ولطفه وكرمه نرى أن يد العناية لم تزل تحمي حمانا بالقدرة الربانية وترفع مباني مجدنا بالقوة الصمدانية، لأن رابطة قلوبنا لم تعكف إلا على باب الله ولم تعول إلا على الله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: الآية ٧٨]، ومن مدده سبحانه وتعالى ما بغى علينا باغ إلا ورده الله على عقبه منكدًا مقهورًا مخذولًا محقورًا ممكورًا مدهورًا وما نبح علينا كلب إلا وجرب ولا تعالى على حائطنا حائط إلا وخرب قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: الآية ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: الآية ٣]. ولا زلنا نحمد الله

على أن جعل أعداءنا الأشرار وأحبابنا الأخيار، وهنا كلمات وردت على القلب من زبد موج الإلهام والله ولي التوفيق. غير خاف أن الله سبحانه اختص أهل الحق بمجانبة أهل الباطل وأقام لعقول أهل الإنصاف على تنزيه عصابة الحق أعظم البراهين وأوضح الدلائل وجعل لكل تقي نقي نصيرًا من المتقين وجعل لكل نبي عدوًا من المجرمين ونسج لأرباب الحق اللطف بدرع البلوى ونشر عليهم لواء (والعاقبة للتقوى)، فترى عصائب أهل البغي بسقم الآمال طائشة مغرورة وزمر أولي الغي والفساد ببحبوحة الإمهال هائجة مسرورة وصولة بداياتهم تدلع أمواجًا وتثير عجاجًا وتجاههم عصائب أهل الحق واقفة في ساحة التسليم لا يهزهم كثير المفسدين ولا القليل، أولئك ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٧٣] حتى إذا انكشف عجاج الخواتيم انقلب بإذن الله ضعف أهل الحق بأسًا وخوفهم أنسًا وفقرهم كنزًا وذلهم الذي غش به المبطلون عزًا، وثارت بأهل البغي والطغيان من جانب الغيب خيول الله فأسكتت قائلهم ومحقت صائلهم ولا إلـٰه إلا الله، وهذا من السر الذي أبرزه الله بمظهر تاج أهل الحق وسيد كل محق الحبيب الذي برز في منصة الظهور يتيمًا فآواه الله وعائلًا فأغناه وضالًا بقالبه السعيد البشري طريق الأمن فأوصله إليه وهداه وصانه وكفاه، وخذل من عاداه ونصر بتأييده من أحبه ووالاه وحمى بمدده حماه وأعطاه حتى أرضاه ﷺ وعلى آله الأئمة وأصحابه نجوم الأمة وتابعيهم ووارثيهم ما طلع فجر وانبلج بدر وسلم تسليمًا كثيرًا. هذا وقد طلع من لباب الخاطر وارد حثني لكتابة هذه الكلمات، وإني لأرجو من كرم الله تعالى أن يكون وارد إلهام لا يفارق الصواب ووافد غيب يدخل على الحق من كل باب وأسأل الله أن يجعلها لعيون الأخلاء قرة ولقلوب المحبين مسرة، فتصير مقبولة لدى أهل الإنصاف وإن صارت ثقيلة على أولي الخلاف، نفع الله بها أرباب الإذعان ونور بطالعة حكمها وبارقة حكمها من أصحاب الحق الأفكار والأذهان آمين. ولا ريب فحقيقة الحق ثابتة وأصولها في مغارس العقول النيرة بكمال الرسوخ ثابتة ولا يضر الحق انحراف المبطلين ولا يمسه تحريف المفسدين بل هو وراء كل ستر كثيف لطيف نوره ثابت في مطلعه، ظهوره تجحده ألسنة أهل العناد وهو مطوي عندهم تحت الضلوع، تطمسه أوهامهم وهو في أنفسهم على منصة الطلوع وإن الله لمع الحق فليسترح كل محق، هذا وإن السبب الذي لحق الوارد السري وامتزج بالهاتف القلبي في نسج هذه الجمل إنما هو انفلات طبقات من أرباب النفوس علينا بدواع

مختلفة وأسباب غير مؤتلفة ورجوعهم في الخوض بنا إلى غاية خرجت عن قواعد العقل والدين وبعدت عن طرازي الأدب العرفي والحق المبين، منهم أناس جياع يزعمون التوصل بوقاحتهم هذه لما يشبعهم، ومنهم أناس اتبعوا آراء قوم من الحساد فضلوهم ومن اتبعوه واتبعهم، ومع ذلك فليس لهم في أنظار العقلاء من الأهمية مثقال ذرة لا إن هادنوا ولا إن أرجعوا الكرة فإن المعان لا يهان والمؤيد لا يبدد وكتاب العناية قديم والانتصار بالله لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وليعلم كل من يجيل النظر بهذه الكلمات أن القصد منها الإيجاز باختصار يبعث بالحقيقة إلى الأفهام ويبرز للمنصف نور الحق وإن اهتم بطمسه أولو الأوهام، والغاية من همها إراءة نور الحق لكل من يتشوق بقلب سليم للاطلاع عليه على أنه يرجع بعد رؤيته بعزيمة المروءة وعزم الإنصاف إليه، وفي هذا خدمة للآدميين ونصيحة لأهل الحق من الموفقين. وقد أجلت القلم فكتبت في هذا المضمون جملًا تلائم رقيق أفهام أهل الطريقة صناديد الحقيقة وتعذب لدى أهل المراتب الرفيعة من رجال الشريعة وتستحسن عند أرباب الكياسة رجال الأدب والفراسة، فلا ترى فريقًا منهم إلا وله من مباحثها حصة تتربع من بحبوحة فكرة أعلى المنصة، وهناك فالحكم الدين والعقل والمروءة والإنصاف تجاه عصائب الإلحاد وزمر المكابرة والخلاف:

وإنا رضينا بالكرام وحكمهم ... ولو أنهم فيما يقال قليل
فللصدق برهان وللحق لمعة ... لها في مضامين العقول دليل

ورضي الله عن الإمام جعفر الصادق فإنه قال: إن مَن أضله الله وأعمى قلبه استوخم الحق فلم يستعذبه، وصار الشيطان وليّه يورده موارد الهلكة، وكذلك من نوّر الله قلبه وهداه فإنه يلصق بالحق وأهله ويستعذب الحق ويستقذر الباطل ويكره أهله، والحكم في فصيلة الأمرين إنما هو الشرع المنير والعقول العالية التي تترفع عن الكذب والبطلان، وتتنزه بطبعها عن الموافقة طيشًا لأهل الزور والبهتان وتشرف عن ارتكاب الظلم والعدوان، وهنا فلا بأس أن أقول في هذا المقام متحدثًا بنعمة الله العميم الإنعام وملتجأ إلى مدد روحانية سيد المرسلين عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، إني ولله الحمد نشأت في بيت التقوى والصلاح والبركة والنجاح ربيب حجر السيادة الهاشمية ورضيع ثدي النجابة الأحمدية الحسينية ضربت بي أعراق الخؤولة إلى العنصر الخالدي القرشي الكريم، ورفعت بي طرق الحسب إلى كل شرف عال ومجد صميم، وقد ترعرعت في حجر والدي وبركتي ومولاي الموله بالله المعرض عن غير الله الصارف عمره كله لله الشهم الغطريف والنجيب الشريف السيد أبي البركات حسن

وادي أفندي الصيادي الرفاعي الخالدي عطر الله مرقده بعطر الرضوان الندي، وما فتحت عيني إلا على بيت غصاص بالفقراء والغرباء وأهل العلم والطريق ووجوه الناس من جميع الأقطار والديار، قافلة ترحل وأخرى تنزل وأب طيب الله ضريحه مشتغل بخدمة الضيفان وإغاثة اللهفان مع استغراق الأوقات بذكر الله والصلاة والسلام على رسول الله عليه وعلى آله وأصحابه أفضل صلوات الله، ونشر الطريقة العلية الرفاعية في أنحاء الممالك الإسلامية والترفع بعلو الشيم عن سفاسف هذه الدنيا الدنية ومحبة الأولياء وتعظيم العلماء والشفقة على الفقراء والتواضع والسخاء والبذل الدائم في حالي الشدة والرخاء، والتحلي بمكارم الأخلاق والميل لأهل الحق والكراهة لأهل الباطل، يعرف ذلك الموافق والمخالف ويشهد بذلك المجانب في ديارنا والمؤالف فما كبرت حتى انتظمت والحمد لله تعالى بسلك مريديه ووارثيه وانطبعت في مكارمه ومعاليه ووفقني الله تعالى للأخذ عن ولي الله ابن عمنا السيد علي آل خير الله الصيادي المشهور شرفه وجليل حاله في الحواضر والبوادي، بل وعن قطب الزمان وحامل لواء العرفان الفرد الكبير والعلّامة الأوحد النحرير بهاء الدين السيد محمد مهدي الصيادي الرفاعي، الشهير بالرواس المقبل بكله على الله والمعرض عن الناس، طيب الله مراقدهم واطلع في سمٰوات الفخار فراقدهم إلى يوم الدين، إنه البر المعين. وقد خدمت العلماء وأخذت منهم ورويت عنهم وأمليت واستمليت وأخذت من طرائف العلوم وأعطيت وخدمت السنّة السنية فألفت الكتب الكثيرة ونشرت الطريقة العلية الرفاعية فسقت أكابر الأهل والعشيرة، وتحريت الحق فنزهت طريق القوم عن كل ما يوجه عليه من قبل الشرع الشريف اللوم فورثت والحمد لله تعالى أشياخي الكرام إرثًا روحانيًا وجررت من بركاتهم سهمًا عظيمًا نورانيًا، بل وإن أشياخي الثلاثة بشروني كلهم بأني نلت من عنايتهم مزية النيابة لهم وشرف الوراثة حتى ثقلت كلمة هذه الوراثة الشريفة على أناس من أولي الحد فأولوها وأقصروها وأطالوها، فقلنا لهم قفوا بحياتكم عند حد العقل وارجعوا لأمر إذا التبس عليكم إلى النقل الوارث لا يكون عين المورث بل ولا يكون مثله في منزلته ولا في مرتبته على الغالب، الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨] فالمورثون عبيد ضعاف يموتون ويذهبون، والملك لله والبقاء له جل علاه، وكذلك فقد جاء في الأخبار «العلماء ورثة الأنبياء»[١] وثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أن

---

(١) رواه أبو داود (٣/٣١٧)، والترمذي (٥/٤٨)، وابن ماجه (١/٨١).

ميراث نبينا ﷺ القرآن فلا العلماء أنبياء في الحقيقة ولا كالأنبياء في المرتبة والمنزلة ولا حملة القرآن كالنبي ﷺ، وإنما تلك إشارة عن التخلق بأخلاق الله وأخلاق أنبيائه وأوليائه والصالحين من عباده، وكلما كمل الوارث في مرتبة التخلق تحقق في منزلة الإرث وأدرك قربًا من ربه ونبيه وأستاذه، وهذه هي الوراثة التي عناها العلماء والعرفاء نفعنا الله بهم ولا بدع فإن وراثة المطموسين لأخلاق المردودين من السالفين لا بد وأن تظهر فيهم أيضًا كظهور وراثة الأنبياء والأولياء والصالحين بوارثيهم ولا بد من معارضة فئة الأشرار للسادة الأخيار وقد قيل: «لم تزل الكرام تمتحن باللئام». وفي الخبر الشريف: (إن البلاء موكل بالأنبياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل)[١]. وفي حكم بعض الكبار لم تزل الأشراف تبتلى بالأطراف وقد ابتليت والحمد لله على كل حال بتهجم الأوغاد الحساد وبمفتريات أهل الوقاحة والفساد وبطعونات أرباب البهتان والعناد كل ذلك نشأ عن ثلاثة أسباب:

السبب الأول الانتصار للسنة السنية، والثاني التحقق بالنصيحة والمحبة الشرعية لصاحب الخلافة الإسلامية، والثالث العجز حسب البشرية عن إنالة بعض خذلة أرباب الأطماع الدنيوية مطامعهم الدنية، ولمتن هذه الكلمات شروح يعرفها العارفون ويجهلها الجاهلون، ولا بدع فإن المدد الرباني قد شملنا والحمد لله في البداية والنهاية، ولاحظتنا في كل أحوالنا العناية، وقد بشرنا مشايخنا الأعيان أسود ميدان العرفان وأئمة هذا الشأن بالستر الدائم والصون الملازم وبالغلبة على الحساد والأعداء ولو وصل زفير أكاذيبهم عتوف السماء، ومع كل ذلك فللبشرية أحكام ولو أن الدنيا أضغاث أحلام، وهنا نفثة مصدور صدرت بلسان الرجوع إلى الله والشكوى إليه ولا ريب فإليه تصير الأمور. وتلك قصيدة صاغها الخاطر والحكم لله في الأول والآخر قلت:

عجبت لقلبي كيف لا يتفطر ... دهته جنود الحزن الله أكبر
فقدت أحبائي الذين ألفتهم ... وأمسيت وحدي حائرًا أتفكر
أراعي نجوم الليل في الروم والنوى ... يصارع لي قلبًا يغيب ويحضر
غدا هدفًا للنائبات تنوشه ... بأسهمها فالنبل كالسحب يمطر
ولله مني مقلة طبعها البكا ... ودمع لما قد ناب قلبي أحمر

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في الزهد (ص ١٦٢)، وهناد في الزهد (٢/ ٥٧٠)، والقضاعي في الشهاب (١/ ١٦١، ١٦٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٣١)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٤٤).

إذا رامت الأحزان غيري بطارق عذيرك منها بي لدى السير تعثر
وهل بعد فقد الناصرين مصيبة وإن هو لا خلق سوى الله ينصر
أكابد أحزانًا إذن لو تجسمت جبال شرورًا دونها وهي أكبر
وعصر إذا لامست أذيال طوره ترى منه أمواه العجائب تقطر
تقدم فيه من بني اللوم أمة خسيسة أصل عيبها ليس ينكر
تدلت لأوشاج الزنوج عروقها وأخرى لعمري من بني الزنج أحقر
تباع وتشرى والولاء زمامها وسادت وإن الدهر حينًا يغير
لأن عرف الدهر اللئام فإنهم معرفهم عند الكرام منكر
أنفسي اطرحي لوم الزمان وأهله ففاجرهم والبر يقلى ويعذر
تريدين من شين الخصال محامدًا وهل هو يبدي غير ما هو يضمر
خذي الصبر درعًا والتوكل حارسًا وخل صنوف الزور بالزور تجأر
وحسبك جبار السمٰوات كافيًا معينًا وما المرئي إلا المقدر
وكم غلب الأيام يا نفس صابر ولم ير صدع الخطب من هو يصبر
ولله جلّ الله في الصبر آية لطائفها تتلى وتملى وتذكر
ويا رَبّ آلام من الدهر أزعجت فؤادي فأضحت ضمنه النار تسعر
صبرت لها صبر الكرام بهمة سمت عن ذراها هامة البدر تقعسر
وعن جلد ضحكت سني وعنوة على القلب أوقات الأحبة تخطر
فلا جلدي مهما صبرت بنافع ولا لهفتي في طي سري تضمر
أليلاي كم من ليلة طال ليلها ينام خليّ البال فيها وأسهر
وتنسى الليالي رونقي بأحبتي وأجلس لا أنسى ولا أتذكر
أقاتل حيرانًا طلائع فكرتي ومثلي وأيم الله من يتحير
وهل خاطري يصفو وقلبي يرعوي ولي لوعة عن طور يعقوب تسفر
ولي بعد من بعد الأحباء وارد قريب بمحو الرأي والعزم يصدر
يسامرني بالماضيات التي جرت ومنه لقلبي ماضيات تحدر
فأنظم شعرًا كله الدر مثلما لآلىء دمعي فوق خدي تنثر
وأروي أسانيد المحبة طاهرًا وخلفي كلاب الحقد بالسوء تجهر
مضى قبل حزب الخيرين وبعدهم أرى الناس أخيارًا ولا أتخير

ولست أذمّ الناس طرًّا وإنما ... قليل على النعماء من هو يشكر
وأحسن ما يلقى من النعم امرؤ ... مع الأمن والإيمان خل مطهر
مضت وانقضت واحسرتي حفل الوفا ... فلا الماء سيال ولا الربع مزهر
على الظن قد يجفو الصديق وأين من ... إذا أذنب الإخوان يعفو ويغفر
وكم قاطع حبل الوداد لدرهم ... وراض له والعزم أدنى وأصغر
خليلي كم ليل شققت ظلامه ... بعزم وأمواه المنية تهدر
ومزقت غلغال الغياهب ثابتًا ... ولي همة عن ذي المجرة تكبر
وما خنت والله الصديق ولم أمل ... إذا لم يمل عني الخليل ويغدر
ويا رُبّ خدّاع دهاني بزعمه ... ولي ناظر يطويه علمًا وينشر
وأوهمته أني انخدعت ليرتوي ... حبيبي ولا يلفي الصغار ويحقر
وتؤثر نفسي برهًا عن خصاصة ... ومثلي لعمر المجد من هو يؤثر
تروم كفافًا همتي كل همها ... غدًا ولقاءه الله يا مي يذكر
مررت على الخمسين أمضيت نصفها ... غريبًا ولي شأن من الفجر أنور
فغار لمجدي حاسدوه وأكثروا ... عنادًا وزورًا والحواسد تكثر
وقد أفرطوا جهلًا بذمي وأسرفوا ... بسبي ومذموم الخصائل يفجر
فأعرضت عنهم لا لفقد عزيمة ... وعزم ولكن المهيمن أغير
وما جهل الأخيار زهر مناقبي ... ولي شرف في جبهة الفجر يزهر
بآل الرفاعي الحسيني مظهري ... مضيء ومن شمس الظهيرة أظهر
وبين صدور الشم من آل فاطم ... على طراز من سنا المجد أخضر
لئن بتّ محجوبًا وفزت سفاسف ... فحينًا جمال الشمس بالعتم يستر
ولست أبالي أنصف الدهر أو جفا ... فكل ابن أُنثى قد يموت ويقبر
وكلٌّ له رغم المحرف صبغة ... حقيقتها الخلصاء لا تتغير
نعم جمع الأغيار مالًا وليس لي ... من المال ما يكفي لصاع فيحكر
ونامت لهم عين الزمان فشقشقوا ... غرورًا وعين الله بالعدل تنظر
ستأخذهم من جانب الغيب صيحة ... لها يضحك الإمهال والسر يظهر
وما ضرّني أني من المال فارغ ... ولي من جناب الله عز ومظهر
فهل كان عيسى نفخة الروح تاجرًا ... ويحيى وموسى والحبيب الموقر

مضى الأنبياء الزهر والفقر درعهم ومظهرهم ما زال يسمو ويكبر
أجل ولمثلي بالنبيين أُسوة فخل فلانًا بيت قارون يعمر
لعمر المعالي ذي الليالي رقيبة وتكبر بالسر الخفي وتصغر
تمر بكر وهي في نول نسجها تقدم في أدوارها وتؤخر
ولا بد من طي لنشر أتت بِه ومن ذا الذي يا عز لا يتغير
دعيني من الأحلام والزعم فالذي يرى المجد عن أسبابه ليس يفتر
ينازعني المجد الصميم سواقط مع الغرض الأدنى تقل وتكثر
دعيون لا أم حصان ولا أب وللفلس منهم يسجد المتكبر
ثقيل إذا لاقى الكرام بمحفل خفيف إذا ما قام كالفرد يسكر
وقائلة لي خلّ همك واسترح فكم ليلة عنها الخوارق تصدر
فقلت نعم لله في كل لمحة لطائف لا تحصى ولا هي تحصر
فيكفرها المفتون والحق ظاهر ويشكرها العبد المنيب فينصر

وإن الذي يضحك الثكلى ويقيم على المروءة الطامة الكبرى تهجم كلاب أغراض لا هم في النفير ولا في العير، وهم من خدم بيتنا بل هم من المكتسين بخرقتنا والطاعمين بلقمتنا، كفروا الجميل وأنكروا من برنا الكثير والقليل ونبحوا علينا نبح الكلاب ودخلوا من الزور والبهتان كل باب، وهم بكل هذا أعجز من الذباب وليس لهم من رأس مال سوى البهتان والعناد وإن الله لبالمرصاد، وإننا لا نشك بعدل الله وحكمة قدسه الباهرة بأنهم في كل أمورهم سيخذلون ويغلبون ولا ينصرون وبغيظهم يموتون، ولسان حالنا يقول لهم قول شيخنا القطب الغوث السيد المهدي بهاء الدين الصيادي الرفاعي الشهير بالرواس رضي عنه رب الناس في معنى شريف ومقصد لطيف ما نصه:

تجرأ أحزب الحاسدين كما تشاء أتحسب ذي الدنيا بزعمك باقيه
تأود فيا كم طاش قبلك عصبة بظلم فما أبقى لها الله باقيه
أتزعم أن الله يهمل حزبه كذبت يد الإحسان للقوم أوقيه
حقدت فحرفت الحقائق خادعًا تدس ولن تخفى على الله خافيه
أعتب الكرام الطيبين ولم تكن لغير أفانين الأكاذيب راويه
كشفت لهم سترًا بوهمك فانكفىء حقيرًا فأستار العناية ضافيه

ومت بعناء فالوقاية لم تزل لنا درع أمن والمواهب جاريه
يد المصطفى المختار حفت جنودها بنا ومعاني السر في الآل سارية
فنهضت تاج المرسلين قوية وهمّة مولانا الرفاعي عالية

ولا شبهة في أن الله أتحف روح سيدنا وقوة ظهرنا وملاذنا الإمام الرفاعي بالعناية الأبدية والوقاية السرمدية في ذاته الكريمة وذريته ومحبيه وتابعيه، وهو وجه لا يخزيه الله في أتباعه أبدًا، ولا يدخل في أتباعه بل ولا في أولاده من كان خائنًا فاجرًا أو زنديقًا كافرًا، وهو على قدم جده الأعظم ﷺ عنده القريب والغريب في الله سواء، نعم الهفوات عنده وعند أمثاله مغفورة والمعائب التي ينتجها الخطأ أو النسيان مستورة، وهذا حكم الشريعة المحمدية المنصورة، وسيرى الخائنون والمفتونون والمارقون الزائغون من سهام سر الله العجائب وستأخذهم نبال الأقدار بإذن الله تعالى من كل جانب وتقر من حزب الله العيون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وهنا طاب لنا أن نتبرك بشيء من السيرة الأحمدية المطابقة بلا ريب للسيرة المحمدية. ونتشرف بذكر نسبنا الصوري والمعنوي ونرفعه إن شاء الله كما اتفق عليه للجناب العظيم النبوي يبهج به المحب ويطيب به من كل موال صدوق القلب وكفى بالله وليًا.

أما سيدنا الإمام الهمام شيخ مشايخ الإسلام حجة الله على الأولياء الأعلام لإثم يد جده المصطفى سيد الأنام عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام ألا وهو سلطان الأولياء برهان الأصفياء كعبة القرب ندبة المكروب وسيلة كل داعي، أبو العلمين مولانا وسيدنا السيد أحمد محيي الدين الكبير الحسيني الحسني الأنصاري الرفاعي رضي الله عنه وعنا به، فهو الغوث الأكبر والإمام الجامع الفرد الأشهر شيخ الشيوخ سيد أهل التمكن والرسوخ حبيب رسول الله تاج أولياء الله. قال العلّامة الإمام شيخ الإسلام قاضي القضاة عز الملة والدين، أبو المفاخر محمد بن أقضى القضاة كمال الدولة والدين أبي الحسن بن عبد الرحمٰن بن عمر بن عبد الوهاب بن محمد بن الظاهر، ويعرف بابن السراج القرشي الشافعي الدمشقي قدّس الله روحه في كتابه الجليل المسمى (تفاح الأرواح ومفتاح الأرباح) عند ذكر سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه ما نصه: سيدنا الشريف أحمد بن علي أبي الحسن الحسيني رضي الله عنه، لو شرعنا في ذكر أحواله وصفاته وطرائقه لكَلّ اللسان وعجز البنان، وقد صنف فيها العلماء مجلدات مشهورة عند أربابها، وقد ذكرنا شيئًا منها في شاهد التصريف في أوائل الفائدة الكبرى من كتابنا (تشويق الأرواح والقلوب) كإحيائه الوزة

التي سقطت مشوية من الجو بإشارته لضيافة الولي الذي سأله الإطعام، وكإحيائه الأسماك الكثيرة التي مدت سماطًا للفقراء بعد أن صارت عظامًا مجردة أعني الوزة والأسماك. واعلم أنه من أكابر الرجال وأعيان المحققين وصدور الصالحين وأئمة الناسكين وقدوة السالكين، وقد أنطق الله الألسنة بأنه سيد وأنه سلطان العارفين له القدم الراسخة والهمم الشامخة والمقامات العالية والرتب السامية والكرامات الباهرة والآيات الظاهرة والأحوال الزاهرة والأنفاس الفاخرة والمحل المكين في القرب والمقعد الصدق من الحضرة واليد الطولى من المعارف والحكم النافذ في التصريف، وهو من أعظم مَن خرق الله لهم العوائد وحلت إلى خلقه بواسطتهم الفوائد وأظهر على أيديهم العجائب ونفى عن الدين بهم المعائب وقلبت لهم الأعيان وأدهشت مكارمهم العقول والأذهان وأنطقهم بأنواع الغيوب وكشف بشموسهم غمام الكروب وصرفهم في الموجودات وحكمهم في المخلوقات وأقامهم حجة على العباد وأزال بهم شبه أهل البغي والعناد وأوقع لهم القبول التام وأرعد بمهابتهم الخاص والعام، وهو أحد أركان هذه الطائفة وأعلام أئمتها علمًا وعملًا وزهدًا وتحقيقًا وكشفًا وبيانًا وصدر أفاضل رؤساء هذا الطريق الباطن المحمدي وأجلاء مشايخ هذا الشأن الشريف والمنهج المنيف، ولقد رزقه الله ما لعله لم يحصل لغيره إلا نادرًا وأعظم تمكنه من أسراره حتى صار فردًا واردًا وصادرًا وملأ الله القلوب بمحبته وشغل الخواطر بإرادته وأطار ذكره في الآفاق وعمر بتقديمه قلوب أهل الخلاف والوفاق وأمال إلى جانبه ذوي الطاعة والشقاق ونفع به العالم وجدد به أمر دين المنقطعين إلى الله والراضين عن الله والمتوكلين على الله.

وقال أيضًا في محل آخر من الكتاب المذكور: لو شرعنا بذكر ما أعطاه الله تعالى من جميع أسباب الفضائل ووراثة تفاوت المناقب، لما وسعته الأوراق ولكلّت الأقلام، كيف لا وإلى محاسن شيمه وجلائل نعوته غاية السباق ونهاية الأقدام.

ثم قال: وسيدي أحمد قبره يزار دائمًا ويجاور عنده السنين الكثيرة، ولعله ليس بعد مكة والمدينة والقدس والخليل شرفهم الله تعالى موضعًا يقصد بالزيارة كرواقه وتربته.

قلت: وذكر من خوارق الإمام الرفاعي رضي الله عنه ومن جلائل كراماته وأحواله وأخلاقه العجائب.

وقال: روينا عن الشيخ أبي محمد بن عبده رضي الله عنه أنه قال لأصحابه إن قال قائل: أدري أين وصل أحمد بن الرفاعي، فكذبوه إنما يعرف الجهة التي اتجه إليها ولا يعرف غايته في الطريق.

وقلت: والشيخ محمد بن عبد البصري هذا، هو شيخ الأستاذ شهاب الدين السهروردي قدّس الله روحيهما ونفعنا بهما آمين.

وقال الإمام أبو المفاخر محمد بن السراج عطر الله مرقده في كتابه المذكور أيضًا عن الشيخ علي بن إدريس رضي الله عنه، أنه قال بشأن الإمام الرفاعي رضي الله عنه وعنا به: هذا رجل لا يعرفه أحد ولا يصل إلى وصفه واصف، لأن كل الرجال تعرف أحوالهم ومقاماتهم إلا هذا لأنه متمسك بأخلاق جده الرسول ﷺ فلذلك كان الله له باطنًا وظاهرًا وهو حظه ونصيبه. انتهى كلامه فتدبر. وقد نعت الإمام أبو المفاخر بن السراج هذا في كتابه (تفاح الأرواح) سيدنا السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه في مواطن كثيرة ونوه بذكره، فتارة قال حين ذكره سلطان الأولياء وتارة قال سلطان العارفين وسيد الصديقين ومثل ذلك، وهو لهذه النعوت الشريفة والألقاب الجليلة أهل ومحل، وهو كما قال فيه الإمام العلّامة إبراهيم الكازروني البكري رضي الله عنه في مقدمة كتابه (شفاء الأسقام) حين ذكره الغني عن الإطناب الذي تتباهى بذكره الألقاب، وقال فيه العلّامة الإمام الذهبي في تواريخه العديدة سلطان العارفين في زمانه سيد العراقين، وأمثال ذلك من الأوصاف التي تبهج بمقارنة اسمه الشريف، وقال الشيخ الجليل الإمام صفي الدين عبد الرحمٰن بن الحسين بن عبد الله بن نصر بن المعمر بن عبد الكريم البكري القرشي الدمشقي المتوفَّى سنة ست وسبعين وسبعمائة في كتابه الروض النضير، وهو جزء صغير جمعه في مناقب سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه ما نصه: ومن غريب شأنه أنه كان على السجادة شيخًا عارفًا مربيًا وعلى المنبر واعظًا حكيمًا عالمًا وفي الخلوات مولهًا خادمًا وبين أصحابه وزواره فقيرًا متواضعًا وعلى أبناء الدنيا مترفعًا عاليًا وكان ماهرًا في العلوم عذب التقرير في المنطوق والمفهوم، باهر العبارة عظيم الإشارة يحب المؤمنين ويقرب المحبين ويبعد المنافقين وكان زاهدًا فريدًا متبعًا قانون الشرع، هاجرًا لنفسه والدنيا وأهلها. وقال في محل آخر من كتابه المذكور: أعطى الله سيدي السيد أحمد الكرامة والفراسة والعلم والحكمة واليقين هبة منه كما علم آدم الأسماء كلها، ولقد اشتغل بطلب العلم وتحصيله على جماعة من فحول علماء واسط والبصرة، مثل الإمام علي القارىء

والشيخ أبي بكر الواسطي والشيخ أبي يحيىٰ الكوفي وجماعة، حتى أن القوم يقولون: أقرأه الخضر عليه السلام علوم الحقائق اثني عشر سنة، فلما انقضت الاثنى عشر سنة هتف به من حضرة الحق هاتف فقال: يا ابن الرفاعي ادع أهل الضلالة إلى الهدى واخرج من الخلوة واظهر للناس وكن طيب الخلق، فلما سمع السيد أحمد رضي الله عنه من الهاتف ذلك الخطاب التجأ إلى الله تعالى وقال: يا رب إني عاجز ضعيف مسكين محتاج كل الاحتياج إلى نهلة عظيمة من العلم الرباني، فهتف به هاتف ثانٍ يقول: يا ابن الرفاعي خذ من يد الرحمٰن شراب العلم والحكمة الإلٰهية بجام الصفا والمحبة، وإن الله تعالى قد أطلعك بنظرة عنايته على أسرار علوم الأولين والآخرين وهي لك بواسطة جدك رسول الله ﷺ، فاطلب من ربك ولطفه وكرمه وعالج مرضى القلوب بهذه العلوم الربانية. فلما سمع السيد أحمد النداء أثاره شراب العشق الرباني وخرج للناس وأظهر لهم العلوم الربانية والمعرفة السبحانية، فوقعت الضجة في العراقين عراق العرب وعراق العجم بل وفي مملكة الله تعالى بظهور ولاية السيد أحمد رضي الله عنه، وقام أمير البصرة وأركانه وحجابه إلى خدمة السيد أحمد رضي الله عنه وأخذوا من علومه وصاروا من فقرائه، وأبرز الله طالع نوره في جميع بلاده وأنحائه، ومع كل ما هو عليه من الظهور وجلالة القدر ورفعة الشأن تجرد لله تعالى وترك الكل له سبحانه وانصرف إليه عن الأكوان بحاله ودخل خلوته. انتهى.

وقال في الكتاب المذكور أيضًا: وشهد من أهل الله جماعة منهم سيدي الشيخ حاجي خالد أخو الشيخ عماد الدين زنكي والشيخ مجرد الأكبر الدوراقي والشيخ علي بن نعيم البغدادي وسيدي يعقوب الكرازي والشيخ علي بن موهوب الواسطي القرشي والشيخ عبد السلام بن عبد الملك الحربوني وسيدي الشيخ عبد القادر الكيلاني قدّس الله أسرارهم ورضي عنهم: إنهم رأوا مع جماعة ليلة القدر ببركة السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه وشهد الشيخ يعقوب والشيخ علي الطبري والتقي الفقير وجماعة من الأكابر، أنه أخبر رضي الله عنه بموته قبل أن يموت بثمانين يومًا وهو على الصحة والعافية، انتهى.

قال الإمام العلّامة المحدث الشائع الصيت الشيخ عبد الغفار القوصي قدّس الله سرّه ونفعنا به في كتابه «الوحيد في سلوك أهل التوحيد» ناقلًا عن الشريف عبد العزيز الحسني المتوفّى رضي الله عنه أنه قال له: كنا نجلس بين يدي الشيخ أبي الفتح الواسطي وهو يتكلم، وبين يديه من الأكابر من أصحابه جمع كبير ربما ذكر لي

سبعين رجلًا ترد عليهم أحوال يتكلمون بكلام ويقول الشيخ: هذا الكلام له خمسة آلاف سنة ما تكلم به أحد غيري ثم ينشد:

غرست غروسًا رُمْت أجني ثمارها ... فلا ذنب لي أن حنظلت ثمراتها
وجئتم سعايا للمعالي طوالعا ... ذروها لتسعى للمعالي سعاتها

فكان يقول عن أولئك الأكابر أنهم حنظلوا ومنهم الشيخ عبد الله البلتاجي والشيخ حسن الطندتائي والشيخ بهرام وسادات لا أحصي عددهم لأن دائرته واسعة، والذين صحبوه لا يحصون في كل مكان، فسبحان مَن مَنَّ عليهم بهذا العطاء لا جرم كان أخذه عن ذلك الإمام الجامع سيدي أحمد بن الرفاعي الذي تقصر الألسن عن وصف ما أعطاه الله تعالى وما كان عليه من الأخلاق والصفات. انتهى.

ونقل الإمام القوصي رضي الله عنه عن الشيخ أبي المنذر قدّس الله سرّه ونفعنا به أنه سئل عن فضل سيدي أحمد فقال: لا أقدر أن أشرح لكم حاله، فألحّ عليه أصحابه وأقسموا عليه بالعزيز سبحانه وتعالى فقال لهم: أختصر لكم شيئًا من فضله، ما أقول لكم في رجل ما اعترف لنفسه بقدر أبدًا ولا خطر له غير ربه جلّ وعلا ولا رضي لنفسه يومًا واحدًا أن تكون منعمة برائحة من روائح الدنيا، وله عند الله من القدر والمنزلة ما لا يحد، هذا الرجل سلك طريقًا لم يسلكها أحد وكلما ازداد قدرًا عند الله تعالى ازداد ذلًا ومسكنة وانكسارًا لله تعالى وللمخلوقين وهذا طريق فصل. انتهى.

وقد مدح الإمام القوصي حضرة سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه فقال:

ذللنا لكم حقًا فصرنا أعزة ... ولا عجب أن يوجد العز في الذل
وصرت لكم عبدًا فصرت محررًا ... ولا ذل في عبد لعبدكم مثلي
ومن كان عبد العبد عبد لعبدكم ... فقد فاخر السادات في البعد والقبل

وقال القوصي: ولسنا نستقصي أحواله فإنه كان رضي الله عنه وعنا به في كل أحواله على كمال. وقال أيضًا: أحوال هذا الرجل يعني سيدنا الإمام الرفاعي عظيمة وذله الذي سلكه قصر عنه الفحول، ولو استقصيناه لضاقت به الكتب وإنما قصدنا من هذه النبذ التي ذكرناها التشويق فلعل الله يهدي إلى طريقه من يشاء. قلت: وأطال في ذكر الإمام الرفاعي وأصحابه وأطنب بذكر أخلاقه وكراماته وأحواله الشريفة، ثم ذكر خبر وفاته وجماعة من أهل بيته الطاهرين وشفى الغليل ثم قال بعد ذكرهم رضي الله

عنهم، ونفعنا وأمة جدهم ببركاتهم وعلومهم ما نصه: فانظر هذه الطريقة وهذا السلوك وهؤلاء السادة نفع الله تعالى بهم ورضي عنهم وسلك بنا سبيلهم ولا أخرجنا عنهم إنه أكرم الأكرمين. ثم قال رضي الله عنه وقد قلت:

نجوم هدى يهدي بها كل سالك ... وشهب لأرجاس الشياطين تحرق
قضى منهم بالحال والفعل ناطق ... وناطقهم إن قال فهو مصدق
فهم في افتراق القول والفعل واحد ... وما منهم إلا إمام محقق
فمن سار سير المصطفى وسبيله ... به يهتدي في نوره ثم يلحق
فسيروا بنا نقفو سبيل طريقه ... فإن أنتم وافقتموني توفقوا

قلت: وقد أطبق العلماء والفقهاء والعرفاء والأولياء والإخباريون والمحدثون والمؤرخون، على جلالة قدر الإمام الرفاعي وتمكّنه وعلو قدمه وترفعه عن وهدة الشطح، وتحققه باتباع النبي ﷺ في جميع أخلاقه وأحواله وأقواله وأفعاله، أجمعت على ذلك جحاجحة الطوائف وأقرّ به الموافق والمخالف وأما نسبه المتصل برسول الله ﷺ فقد شاع على ألسنة طبقات الأمة المحمدية في المشارق والمغارب، واتفق على صحته عند أهل الصدق من النسابة على اختلاف المشارب والمذاهب، ولذلك فإننا سنأتي بمقدمة مختصرة قبل ذكر عمود نسبه الشريف ونكتفي بها عن الإسهاب والإطناب في هذا الباب، فإن الأمر أعظم من أن يشار إليه أو ينبه بالأدلة والبراهين عليه. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في كتاب الألقاب، الشريف ببغداد: لقب لكل عباسي، وبمصر: لقب لكل علوي انتهى.

قلت: قوله لكل علوي أي لكل من ينتهي نسبه للإمام علي أمير المؤمنين كرم الله وجهه ورضي الله عنه، وقد خصص في شرح المنهاج آل الحسنين الكريمين بالشرف. فقال: أعني ابن حجر رحمه الله ما نصه الشريف: هو المنتسب من جهة الأب إلى الحسن أو الحسين، لأن الشرف وإن عمّ كل شريف إلا أنه اختص بأولاد فاطمة رضي الله عنها عرفًا مطردًا عند الإطلاق. انتهى.

وقال الحافظ الكبير جلال الدين السيوطي طاب ثراه في كتابه رفع الباس: رأيت الذهبي في تاريخه يطلق اسم الشريف على كل عباسي وجعفري كما يطلقه على كل حسني وحسيني. انتهى. قلت: نقل العارف العلّامة عبد الوهاب الشعراني قدّس سرّه في طبقاته الوسطى عن الإمام الكبير عبد العزيز الديريني رضي الله عنه ونفعنا به أنه

قال من أرجوزة نظمها سنة ستين وستمائة ما نصه:

رسولنا نبينا محمد شيخنا القطب الشريف أحمد

وقد قال الإمام المناوي قدّس الله روحه في طبقاته عند ذكر سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه:

شريف نما روض شرفه وهمي على العالم غيث سلفه

وقال الإمام اللغوي مجد الدين الفيروزآبادي في القاموس: أم عبيدة كسفينة قرية قرب واسط بها قبر السيد أحمد الرفاعي. وقال الإمام الطبري في كشف النقاب: نسب السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه مع اسمه، فمتى ذكر على ألسن المسلمين من عهده في الشرق والغرب والجنوب والشمال إلى عهدنا هذا. قيل: السيد أحمد وهو في عرف الأمة المحمدية كلها، أن السيادة كلمة لا تنصرف إلا لآل محمد ﷺ. وقال الإمام تاج الدين عبد الوهاب السبكي الأنصاري قدّس الله روحه في طبقات الشافعية حين ذكر الإمام الرفاعي رضي الله عنه: أحمد بن علي بن يحيىٰ بن حازم بن علي بن رفاعة، الشيخ الزاهد الكبير أحد أولياء الله العارفين والسادات المشتهرين. قلت: وأطنب بذكر كراماته وأخلاقه وأحواله نفعنا الله والمسلمين بعلومه. وقال صاحب المشرع الروي في مناقب بني علوي عند ذكر رجال الخرقة ومشائخهم فيها ما نصه: ومنهم شيخ الإسلام والمسلمين وموئل الأولياء الوارثين وأكمل الأئمة المجتهدين شهاب الدين أحمد بن أبي الحسن الرفاعي الحسيني. انتهى. وقال العلّامة الجامي رحمه الله في نفحات الأنس عند ذكر الإمام الرفاعي رضي الله عنه: السيد أحمد بن أبي الحسن الرفاعي قدّس الله تعالى سرّه ذو المقامات العلية والأحوال السنية، خرق الله سبحانه وتعالى على يديه العوائد وقلب له الأعيان وأظهر العجائب. ثم قال: وهو من أولاد الإمام موسىٰ الكاظم رضي الله عنه. وقال الشريف المرتضى رحمه الله في «تاج العروس شرح القاموس» عند قوله: رفع القطب أبو العباس أحمد بن علي بن يحيىٰ بن أحمد بن حازم بن علي بن رفاعة الرفاعي المغربي الحسيني كذا نسبه ابن عراق. انتهى. وقال العلّامة ابن باديس في شرح السينية عند ذكره رضي الله عنه: هو من ذرية جعفر الصادق قرشي شريف حسيني. انتهى.

والذين نعتوه بالسيادة والشرف من السلف والخلف، لا يستوفى في هذا المختصر لكثرتهم ذكرهم ولا يمكن عدهم وحصرهم، وهو حبيب جده حبيب الرحمٰن عليه صلوات الملك الديان والغوث الأعظم الذي ارتقت مرتبته عن القطبية

والغوثية وأفرده أعيان الأمة بكل مزية، ونص الإمام الشعراني رحمه الله في المنن: أن الشيخ أبا المنذر المهتدارجي رضي الله عنه، قال حين سئل عنه: أكبر الأولياء في عصره قدرًا، وكان قطب الأقطاب في الأرض ثم صار قطب الأقطاب في السمٰوات ثم صارت السمٰوات السبع في رجله كالخلخال ثم لا علم لنا بعد ذلك لماذا وصل. انتهى كلامه.

ونقل الإمام الطبري عن السيد قطب الدين الشيرازي الرضوي بيتين مدح بهما الإمام الرفاعي رضي الله عنه وهما:

لقد سبق السادات بالمجد أحمد كما سبق الرسل الكرام محمد
فهم غمد سيف والرفاعي نصله وهم حلة وهو الطراز المعمد

وأما نسبه الشريف أن نقول: هو رضي الله عنه سيدنا السيد محيي الدين أحمد الكبير أبو العلمين ابن السيد أبي الحسن علي ابن السيد يحيىٰ نقيب البصرة المغربي ابن السيد ثابت أبي أحمد ابن السيد حازم ابن السيد أحمد ابن السيد علي ابن السيد رفاعة الحسن المكي جد بني رفاعة الحسيين ابن السيد المهدي ابن السيد أبي القاسم محمد ابن السيد الحسن ابن السيد الحسين ابن السيد أحمد الأكبر ابن السيد موسىٰ الثاني ابن السيد الإمام إبراهيم المرتضى ابن الإمام موسىٰ الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين علي ابن الإمام السبط الحسين الشهيد ابن أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رضي الله عنه وعنهم أجمعين. وأُم الإمام الحسين سيدتنا وقرة عيوننا البضعة الزهراء فاطمة رضي الله عنها وعليها التحية والسلام، وهي بنت سيد الخلق ورسول الحق نبينا المصطفى الأعظم ﷺ، هذا نسب سيدنا الإمام الرفاعي من طريق أبيه رضوان الله تعالى عليهما وهو النسب المتواتر المتفق عليه في جميع الأقطار والأنحاء والديار، ولم يتلكأ عن القول بصحته التي لا تقبل الجحد إلا الحساد، ولا ريب فالحاسد لمرضه وغرضه جاحد غير أن الشمس لا تخفى على ذي عينين، كيف لا وطالع نورها قد ملأ فجاج العالمين، وناهيك بما نقله الإمام الحافظ عز الدين أحمد الفاروثي الشافعي الواسطي في إرشاد المسلمين، والحافظ الكبير قاسم أبو الفضل الواسطي في أم البراهين، والإمام ضياء الدين أحمد الوتري في الروضة وخلائق أن الإمام الرفاعي المشار إليه رضوان الله تعالى عليه لما وقف عام حجه الذي سبق ذكره تجاه قبر جده ﷺ قال: السلام عليك يا جدي، فقال له رسول الله ﷺ: «وعليك السلام يا ولدي» سمع ذلك

الحاضرون فهل بعد هذا برهان ونور النهار فضح الألوان:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وقد عد الأكابر من أئمة الأئمة عرف أهل البلاد حجة في كثير من مهمات القضايا، وأدلة هذا في كتبهم طافحة لا تخفى على من له أدنى شمة من علم الشريعة، وعلى هذا فليفطن العاقل العالم لعرف أهل العراق والشام والحجاز ومصر والمغرب وفارس والهند والصين وما وراء النهر وديار الروم وما يلي بلاد الأناطول ولعرف أهل البوادي من الشعوب والقبائل يرى أنهم من عهد الإمام الرفاعي إلى يومنا هذا قد أطبق خاصتهم وعامتهم، على نعته بالسيادة واتفقت الكلمة منهم كلهم بطنًا بعد بطن على أنه علم السادة فمتى ذكر قيل السيد أحمد الرفاعي ولا عبرة بمن تكلف غلطًا ومشى شططًا، وهذا أمر شاع في جميع بلاد الإسلام وتوارى عند الخواص والعوام وقد قال الإمام العلّامة الكبير أحمد بن جلال اللاري الحنفي قدّس الله سرّه وروحه في كتابه «جلا الصدى» حين ذكر نسب الإمام الرفاعي رضي الله عنه وسلسله إلى النبي ﷺ كما تقدم.

وأرى النجابة لا يكون تمامها لنجيب قوم ليس بابن نجيب

نسب تورث كابرًا عن كابر كالرمح أنبوبًا على أنبوب

ونسب سيدنا الإمام الرفاعي لأمه رضي الله عنه وعنها، فهو أحمد ابن فاطمة النجارية الأنصارية بنت الإمام الكبير القطب الجليل الشيخ يحيىٰ النجاري بن موسىٰ بن كامل بن يحيىٰ بن الصوفي الكبير الولي الشهير الإمام العارف بالله الشيخ أبي بكر الواسطي ابن موسىٰ بن محمد بن منصور بن خالد بن زين بن مت وهو أيوب بن خالد أبي أيوب بن زيد النجاري الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ، ونسب أمه لأمها فهو أن نقول: هي فاطمة بنت رابعة بنت عبد الله الطاهر نقيب واسط ابن سالم نقيب واسط ابن أبي يعلى نقيب واسط ابن محمد نقيب واسط ابن أبي الفتح محمد أمير الحاج ابن السيد الكبير محمد الأشتر أمير الحجاج ابن عبيد الله الثالث ابن علي بن عبيد الله الثاني ابن علي الصالح بن عبيد الله الأعرج ابن الحسين الأصغر ابن الإمام زين العابدين علي ابن الإمام الحسين الشهيد سبط النبي ﷺ، ونسب جد الإمام الرفاعي لأبيه سيدي السيد يحيىٰ المغربي نقيب البصرة من جهة أمه فنقول: يحيىٰ ابن آمنة بنت يحيىٰ العقيلي ابن الناصر لدين الله على ملك الأندلس ابن أحمد بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر الذي فتح الله

الغرب على يديه ابن عبد الله المحض ابن حسن المثنى ابن الإمام السيد الحسن سبط النبي المؤتمن عليه الصلاة والسلام، ونسب جده لأمه سيدي الشيخ يحيىٰ النجاري الأنصاري من جهة أمه أيضًا نقول: يحيىٰ ابن علوية، ويقال: عالية بنت الحسن اللاع بن محمد بن يحيىٰ بن الحسين ملك الغمر ابن الحسن المثنى بن الإمام الحسن سبط النبي ﷺ وللإمام الرفاعي من طريق جده الإمام جعفر الصادق نسب لسيدنا أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فإن أم الإمام جعفر هي أم فروة بنت القاسم بن محمد ابن سيدنا أبي بكر الصديق عليه الرضوان، ولهذا كان الإمام الصادق جعفر رضي الله عنه يقول: ولدني الصديق مرتين، ويتصل نسب سيدنا الإمام الرفاعي أيضًا بالإمام الحسن السبط عليه السلام من طريق جده الأعلى علي بن رفاعة الحسن الأصغر المكي نزيل إشبيلية، وذلك أن رفاعة الحسن قدّس الله سرّه وروحه هاجر من مكة إلى إشبيلية بالمغرب في فتنة القرامطة قاتلهم الله سنة سبع عشرة وثلثمائة لإقامة الحجة على العبيديين لأجل ذلك، فإنه قيل: إن القرمطي فعل ما فعل خدمة للعبيديين وقيامًا بأمرهم إرغامًا للعباسيين، فلما وصل المغرب عظمه ملوكها وأمراؤها وعكف عليه ساداتها وانتفع به المسلمون، فأقام ببادية إشبيلية فارًا بدينه مع قبيلة بني شيبان ثم تزوج بالشريفة نبها بنت أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر ملك الغرب الحسني الكبير، فأعقب منها عليًا جد السيد أحمد الرفاعي السادس وسعدًا وعمران وبركات، ولكلهم أعقاب مباركة رضي الله عنهم ونفع بهم المسلمين انتهى. وقد جمع الله تعالى لسيدنا السيد أحمد المفاخر وزينه بوراثة المناقب والمآثر وملكه أزمة المجد فأخذها من كابر عن كابر، وإن من تتبع سير القوم وأمعن النظر بالتاريخ واختطف الجمل التي تنعطف إليها أنظار الحكماء من كتب المحققين، يعلم العلم اليقين أنه لم تقم في عالم الإسلام حفلة مجد لولي من مشاهير الأولياء ولسيد من عظماء الآل النجباء في الأمة المحمدية بعد صدور الآل الأئمة ونجوم الأمة الصحابة أسود الملمة كحفلة المجد التي قامت للإمام الرفاعي رضي الله عنه، هذا ابن الجوزي إمام الحنابلة في عصره وشيخ الحديث يقول: كنت عنده يومًا وعنده مائة ألف إنسان وقد قام بكفاية الجميع. وهذا الحافظ المناوي والإمام الشعراني والإمام الكبير عبد الغفار القوصي وأضرابهم يقولون: كان في رواقه كل يوم ستة عشر ألفًا من الفقراء، وبعضهم قال: عشرون ألفًا، وكان يمد لهم السماط صباحًا ومساء، وقال ابن خلكان وابن كثير والحافظ الذهبي وأمثالهم: كان يجتمع عنده خلق لا يحصون ويقوم بكفاية الجميع.

وقال ابن الأثر وابن كثير والبيضاوي في تواريخهم: كان صالحًا عظيمًا وتلامذته لا يحصى عددهم، وقال ابن حماد: كان في عصره قبلة القلوب واتفق الرواة على أنه كان يقول: حشرت مع فرعون وهامان إن خطر لي أني شيخ على أحد إلا أن يتغمدني الله برحمته وأكون كآحاد المسلمين، وأما حلمه وصبره مع القدرة وزهده والحطام تحت أقدامه وتواضعه مع تفرده بجلالة القدر في زمانه، فهو مما شاع وذاع وملأت أخباره البقاع لا يختلف فيه اثنان ولا يخالف فيه مختلفان، وأما كراماته فناهيك منها بمدّ يد النبي ﷺ من قبره الطاهر لجنابه الكريم بين الألوف وهي منقولة على ألسن صنوف المسلمين من عهده الشريف إلى الآن وإلى يوم الدين إن شاء الله. ولقد قيل فيه رضي الله عنه عند ذكر هذه المنقبة العظيمة:

هذه رتبه رقاها الرفاعي   لم ينلها من الرجال سواه
هو في الأولياء قطب رحاهم   قدس الله سره وحباه

وقد أحيا الله له الميت وناهيك منها بقصة الأسماك وغيرها فقد ذكرتها كتب القوم ونقلوها نقل الحديث الشريف بأسانيدها التي لا تجحد، وأما أتباعه فقد ملأت الشرق والغرب وهم في كل مصر بدوره وفي كل قطر صدوره، ففي مصر من أتباع أتباعه القطب الجليل السيد أحمد البدوي والقطب الكبير السيد إبراهيم الدسوقي والإمام المليجي والبلتاجي والديربي والشريف عبد العزيز المتوفى والسيد عزاز الحسيني والشيخ بهرام الدميري وجامع الفضلين الدنوشري وخلائق، ومن أتباعهم الإمام الجليل شمس الدين محمد إمام الكاملية وعنه الجلال السيوطي وعنه الشعراني، وكذلك فالإمام زكريا الأنصاري والنبتنيتي والقوصي وأضرابهم ممن لو أردنا تعداد أسمائهم لضاق المجال، وفي الديار المغربية الإمام الكبير عبد الله أبو جعفر ابن سيد بونة الخزاعي الذي انتمى إليه الشيخ محيي الدين العربي وأمثاله، وبواسطة أتباع الحضرة الرفاعية فقد تلبس بالخرقة الرفاعية القطب الكبير أبو الحسن الشاذلي الحسني، وقد انتمى للجناب الأحمدي من طرق عديدة نقلها أمة من رجال الأسانيد منهم الشيخ أبو المواهب الشاذلي في ثبته والشريف المرتضى في شرح القاموس وغير واحد، وفي الحجاز فالأئمة السادة آل الطبري والحافظ جمال الدين المطري وعنهم خلائق، وفي اليمن آل الأهدل أخذ جدهم عن الشيخ الأحور والأحور أخذ بأمر محمدي عن الإمام الرفاعي والسيد أحمد بن علوان رضي الله عنه ينتهي من ثلاث طرق للإمام الكبير أبي العلمين وبالواسطة فآل علوي وأسانيدهم طافحة وآل الشماخي والقطب إسماعيل الحضرمي والعارف العيدروس وخلائق لو أردنا ذكر تسلسلهم

وأسمائهم لما وسعهم هذا المختصر، وفي الشام فالرجال الأعيان المعروفون عند القوم ببدور الشام مثل القطب الباز الأشهب الشيخ أرسلان الدمشقي رضي الله عنه، فقد كان خادم الإمام الرفاعي ومن أعيان خلفائه نص على ذلك الرّحّالة الطواف الفاضل ابن بطوطة في رحلته المشهورة التي ترجمت من العربية إلى لغات عديدة، ونص على ذلك الإمام الوتري والإمام الأكبر عز الدين مولانا السيد أحمد الصياد سبط الإمام الرفاعي، وصرح بذلك الأنصاري في عقود اللآلىء والإمام الجليل عبد العزيز الديريني وخلائق وكذلك فالشيخ حسن القطناني رضي الله عنه، فهو في عام مد اليد تشرف بملاقاة الحضرة الرفاعية ونال النفحة الأحمدية وانتمى للجناب الرفاعي وصار من أعيان أتباعه، والقطب الشيخ حياة بن قيس الحراني والشيخ عبد الرحمٰن شملة الزاهد الكبير والقطب النجي سيدي الشيخ عقيل المنبجي العمري والقطب الكبير الشيخ مزيد ابن الشيخ يونس الشيباني القرشي وهو والد القطب الشيخ سعد الدين الجباوي شيخ الخرقة السعدية، وغيرهم من الأكابر هم ومن تعلق بأذيالهم نفعنا الله بأحوالهم. وأما في العراق فالإمام أبو شجاع الشافعي الكبير فقيه عصره والإمام الجليل أبو الفرج عمر الفاروثي الواسطي والقطب الأجل علي بن نعيم الحنبلي البغدادي والشيخ أبو العشائر الواسطي والشيخ محمد الغزلاني الموصلي وألوف غيرهم من أهل القلوب البارقة والأحوال الصادقة، وفي فارس فالشريف الحسين السمرقندي الحسيني والسيد حسن النقيب الشيرازي الحسيني الرضوي والإمام أبو المعالي الكرماني ثم المروزي وخلائق، وفي تركستان والحتن والخطا فشيخ الجماعة القطب أحمد اليسوي وعنه أمة. والخلاصة فقد بلغ عدد خلفائه العارفين العاملين وخلفائهم إلى مائة وثمانين ألفًا حال حياته واتفقت كلمة الرواة على أنه لم يبق بقعة في الأرض آهلة بالمسلمين إلا وله فيها أتباع ومريدون وزوايا ومآثر تذكر وتشكر ولا تنكر.

استطراد لطيف:

قد سبق ذكر القطب الجليل الشيخ عبد الرحمٰن شملة الدمشقي الزاهد، أحد خلفاء سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه، وقد رأيت في كتاب الوحيد للإمام عبد الغفار القوصي قدّس سرّه منقبة له يعذب ذكرها. قال ما نصه بحروفه: حدّثني الشيخ يعيش بن محمود قال: كنت يوم بجامع دمشق والشيخ عبد الرحمٰن شملة متكىء وأنا أغمز في رجليه، والملك الأشرف قد جاء إلى زيارته وهو متكىء على حالته وأنا أغمزه فجلس السلطان الملك الأشرف على ركبته وقبل يده وقدم إليه ألف دينار وقال له: يا سيدي هذه تصرفها في حوائجك أو كما قال، فقال: وحياة أبيك ما

لي بها حاجة قال: يا سيدي أطعمها للفقراء قال له: وحياة أبيك ما عندي فقراء، قال: يا سيدي ففرقها على فقراء الجامع فقال له: يا ولدي ادفع لهم بيدك حتى يبقى لك الثواب. فقام السلطان ولم يأخذ منه شيئًا، فلما قام قال لي: يعيش قلت: لبيك قال: هذا الطواشي من أين قلت له: هذا السلطان الملك الأشرف قال: بحياة أبيك قلت: نعم، فلما كان بعض أيام حضر السلطان إلى زيارة الشيخ عبد الرحمٰن شملة وقبل يده وقال: يا سيدي لي عندك حاجة تقضيها لي قال: وما حاجتك؟ قال له: يا سيدي أبني لك رباطًا قال فقام الشيخ عبد الرحمٰن وأخذ بيد السلطان ومشى في جامع دمشق ودار به وقال: جميعه لي ثم قال له: تقدر تعمل لي زاوية مثل هذا قال له: يا سيدي مال الشام عشر سنين ما يكفي لمثل هذا. فقال: هذه زاوية معمولة بلا تعب فانظر إلى هذا الفراغ لأنه لم يبق له في الدنيا موطن ولا أمل. انتهى.

قلت: وقد روى الإمام الذهبي في تاريخه عن الشيخ عبد الرحمٰن شملة نصًا عن الإمام الرفاعي رضي الله عنه يصرح بدوام شأنه وطريقه إن شاء الله إلى نهاية الدوران وناهيك بهذا الإمام وأتباعه ورجاله:

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

وأما رجال بيته العامر وأفراد ذريته الأكابر فإنهم كالشموس، وقد قال رضي الله عنه: وعدني ربي أن ينبت في بيتي الأولياء كما ينبت الربيع البقل. قلت: وقد كان والحمد لله وهو مشاهد من عهده العالي إلى يومنا هذا، وذلك اختصاص من الوهاب الكريم. ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٥] وهنا سنتبرك ونتشرف بذكر أسماء جماعة من البيت الطاهر الأحمدي ونشير لمعالي مراتبهم بالاختصار التام وإلا فيتسع المجال والمقال والمقام، اعلم أيها المحب أن من أعظم رجال البيت المعمور الأحمدي مولانا السيد إسماعيل أخو الإمام الأكبر الرفاعي لأب وأم، والسيد عبد السلام والإمام مهذب الدولة السيد سيف الدين علي والإمام ممهد الدولة السيد عبد الرحيم وهؤلاء الثلاثة أمهم السيدة ست النسب أخت الإمام الأكبر الرفاعي وأبوهم السيد سيف الدين عثمان ابن عم الإمام الأجل أبي العلمين المشار إليه رضوان الله تعالى عليه وعليهم أجمعين. وكلهم من أعاظم وأقطاب الأمة الذين تنجلي بهم الغمة وتنكشف المهمة، وقد غصت بتراجمهم وذكر مناقبهم كتب القوم الأكابر قدست أرواحهم. وقد خلف سيدنا الإمام الرفاعي في رواقه العالي الأحمدي بعد وفاته في المشيخة ابن أخته

وشبل ابن عمه سيدنا السيد الجليل مهذب الدولة سيف الدين علي بن عثمان الرفاعي رضي الله عنهم أجمعين.

فائدة:

تواتر بين السادة الأحمدية وغيرهم من أكابر الطريقة المرضية رجال السادة الصوفية، أنه لما ولد سيدنا الإمام الأكبر السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه وعنا به في أم عبيدة بدار أبيه السيد أبي الحسن علي الملقب بسلطان العارفين طاب مرقده، سمع أهل الدار قائلًا يسمع صوته ولا يرى شخصه يقول: جاء يد سر الرب فحسبوا ذلك بحساب أبا جاد فكان تاريخ ولادته وذلك في سنة اثني عشر وخمسمائة على الصحيح فحفظ ذلك في الصدور والسطور، ويوم وفاته رضي الله عنه سمع قائلًا يسمع صوته ولا يرى شخصه يقول: لله جاء يد سر الرب فكان ذلك تاريخ وفاته فإن لله اعتبار المد الطبيعي ألفًا تعد بست وستين وهذا عمره العالي على الصحيح وتدبر فإنه كان عمره، وقالوا بتاريخ ولادته بشرى وحسابها حساب الولادة وفي وفاته بشرى الله وهي تاريخ الولادة ومدة العمر والوفاة وقال قائلهم في ذلك:

ولادته بشرى لأمة جده ومدته لله إذ شغله الله
٥١٢ ٦٦ ٦٦

والمجموع بالنظر إلى تاريخ الوفاة فهو سنة ٥٧٨ فإن وفاته كما اتفق على الرواية بشأنها يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وقت الظهر وكان يومًا مشهودًا، قال الإمام عبد الغفار القوصي في كتابه المسمى (الوحيد) عند ذكر وفاته رضي الله عنه: كان يومًا مشهودًا ثم إنه ساعة عبوره قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ. وكانت آخر كلمة قالها ثم قضى نحبه ولحق بربه تعالى. وقال الإمام قاضي القضاة أبو المفاخر عز الدين محمد المعروف بابن السراج القرشي الدمشقي الشافعي في كتابه (تفاح الأرواح)، سكن أم عبيدة بأرض البطائح وبالبطائح منشأه ومات بها يوم الخميس رابع عشرين جمادى الأولى أو الثلاثاء ثاني عشرين سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ودفن بتربة الشيخ يحيىٰ النجاري جده لأمه، ثم قال بعد كلام وقد تقدم شيء منه ولعله ليس بعد مكة والمدينة والقدس والخليل شرفهم الله تعالى موضعًا يقصد بالزيارة كرواقه وتربته، ثم قال في بحث الزيارة ما نصه: وإن أنكر ذلك بعض المدعين علمًا وفضلًا واستدل بظواهر واعتضد بنقول، فليس بشيء عند التحقيق في

ذلك جميعه وفيه بحث كبير وكلام طويل والذي عليه العمل الآن وقد قال به أئمة الأمصار الجواز والاستحباب، فثق بما نقوله ولا تغتر بمخالفه فليس هو في مخالفته سائرًا مع الحق ولا قاصدًا إلى الصدق، حققنا ذلك كشفًا وعلمًا وأتقناه حكمة وحكمًا.

قلت: ثم بعد رده على من أنكر زيارة الأولياء رضي الله عنهم وقوله بالجواز والاستحباب ونقله إجماع أئمة أمصار الإسلام على ذلك. (رجع لذكر الإمام الرفاعي رضي الله عنه وعنا به) فقال: كان شافعيًا فاضلًا لا يتصدر ولا يجلس على سجادة وقال قبل موته: أنا شيخ من لا شيخ له أنا شيخ المنقطعين أنا مأوى كل شاة عزباء وقيل عرجاء انقطعت في الطريق. قلت: ثم ذكر من خوارق الإمام الرفاعي وبراهينه الدالة على تأييد مقاله وعلو حاله شيئًا كثيرًا لا يسعه هذا المختصر، وذكر أنه انتمى لطريقته العلية وصار من خدام عتبته الأحمدية وسلسل سنده في الطريق إليه ثم منه رضوان الله تعالى عليه إلى جده النبي الأعظم ﷺ. ومثل ذلك ذكر الإمام أحمد بن جلال اللاري الحنفي في «جلاء الصدى» وذكر أنه أخبر بموته قبل وقوعه رضي الله عنه.

قلت: ونص على ذلك الإمام المناوي في طبقاته وغير واحد، وقد قام ابن أخته الإمام السيد مهذب الدولة علي بن عثمان بعد خاله الإمام الأكبر الرفاعي رضي الله عنهما بأمر المشيخة أحسن القيام وعظمه الخواص والعوام وتخرج به الأئمة الأعلام وظهر أمره ظهور الشمس في رابعة النهار وانقاد لخدمته الكبار والصغار، واتفق القوم في عصره على جلالة قدره وهو صهر خاله سيدنا الإمام الأكبر الرفاعي على بنته الطاهرة السيدة فاطمة ووالد الأقطاب الأجلاء السيد القطب الأقرب محيي الدين إبراهيم الأعزب والسيد نجم الدين أحمد والسيد إسماعيل، ومناقبه جليلة وكراماته عظيمة جزيلة. وقد ذكر منها الإمام عبد الغفار القوصي شيئًا حسنًا في كتاب الوحيد وكذلك الإمام الصفي بن أبي المنصور والإمام ابن السراج والإمام الجليل أحمد بن جلال اللاري الحنفي في مصنفاتهم وأمة غيرهم وإن فضله أشهر من أن يذكر، وقد قال له خاله: يا علي أنت شيخ الرفاعية من الشيخ منصور إلى أن ينفخ في الصور، وكانت خلافته في الرواقي الأحمدي خمس سنين وأشهر وتوفي يوم الأربعاء قبل صلاة الظهر اليوم الحادي والعشرون من صفر سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وكانت وفاته في فم الدير وهي البلدات التي تعرف الآن بالسبيليات قرب البصرة، ثم حمل إلى أم عبيدة عطرها الله بساكنيها ودفن في قبة خاله رضي الله عنهما وخلفه في مشيخة رواق أم عبيدة أخوه القطب الجليل أبو البرهان ممهد الدولة السيد عبد الرحيم رضي

الله عنه، وهو صهر سيدنا الإمام الأكبر الرفاعي على بنته الطاهرة السيدة زينب، والذرية الرفاعية المنتشرة في أقطار الدنيا على الغالب فهم منها، فإنها رضي الله عنها رزقت من القطب السيد عبد الرحيم رضي الله عنه، السيد شمس الدين محمد والسيد قطب الدين أحمد والسيد أبا الحسن علي والسيد عز الدين أحمد الصياد والسيد أحمد عز الدين أبا القاسم والسيد عبد المحسن أبا الحسن والسيدة عائشة والسيدة فاطمة وتلقب بملكة، وكلهم من أعاظم الأولياء وكمل الأصفياء اشتهرت في الأمة كراماتهم ونشرت في بلاد الله راياتهم وقد أنعمت بتراجمهم وذكر أخبارهم ومناقبهم مؤلفات الرجال ومصنفات أرباب الكمال، وإلى هذه الأصول الشريفة تنتهي أنساب السادة الرفاعية في جميع الممالك الإسلامية، فإلى السيد إسماعيل ابن السيد مهذب الدولة علي بن عثمان الرفاعي رضي الله عنه ينتهي نسب السادات بني الكيال المشهورين من الديار الحلبية بالفضائل والأحوال، وقد جاء منهم العلماء والأولياء والفضلاء وناهيك منهم من رجال العصر بالقطب المستغرق السيد الشيخ إسماعيل الكيال الرفاعي الأستاذ الشهير وولده الأستاذ الكبير المستغرق السيد الشيخ عبد القادر، وأخيه الموله الغائب السيد الشيخ محمد، فهم في الديار الحلبية والنواحي الشامية من أشهر الأولياء المعروفين الذين ثبتت لهم الكرامة وحققت لهم بين أهل الأحوال الزعامة، ولآل السيد شمس الدين محمد السبط الأوحد والإمام الأمجد ينتهي نسب الكثير من السادة الرفاعية سكان البصرة وديارها، وهم بالفضائل والمجد والحال المشكور أشهر من كل مشهور، ومنهم رفاعية المدينة المنورة ورفاعية اليمن وينتهي إليه رضي الله عنه نسب آل الحوراني وآل الجندلي وغيرهم وينتهي للقطب المتمكن السيد أبي الحسن عبد المحسن نسب آل الحريري وآل الرفاعي بديار حوران، ومنهم بدمشق بنو الركاب وغيرهم وبمصر وينتهي للقطب السيد نجم الدين أحمد رضي الله عنه نسب آل الراوي وهم بيت الولاية في العراق وآل السبسبي المشهورين في الديار الشامية ولسيدنا السيد شمس الدين محمد رضي الله عنه ينتهي نسب السادة آل عجلان نقباء دمشق ومشايخ المشايخ فيها ونسبتهم إليه من طريق الأمومة، وهم من طريق آبائهم صحيحو النسب ينتهون للإمام جعفر الصادق رضي الله عنه ولسيدنا القطب الغوث الجواد السيد عز الدين أحمد الصياد رضي الله عنه ينتهي نسب آل عز الدين، ويعرفون بالنعيم وكراماتهم وخوارقهم مستمرة غنية عن التعريف، ونسب آل خير الله وهم مشايخ المشايخ في حلب كابر عن كابر ومنهم عدة من النقباء والأولياء وفروع بني الصياد آل السيد عز الدين أحمد الأكبر سبط الحضرة المعظمة الرفاعية في العراق والشام واليمن

ومصر كثيرة ومفاخرهم شهيرة، وقد نص بتراجم رجالاتهم دفتر المفاخر وتورثوا المناقب والعلم والولاية والحسب الباهر والنسب الطاهر عن أصولهم الأكابر، فهم في آل الرفاعي شموس مجدهم وواسطة .وإلى هذه الأرومة الكريمة والجرثومة العظيمة ينتهي نسبنا الكريم وحبل اتصالنا الطاهر العظيم وقد آن أن نتشرف بذكر حسبنا وعمود نسبنا حتى إلى الجد الأعظم ﷺ، فالفقير إلى الله تعالى مصنف هذا الكتاب والمتوكل على الله تعالى في كل الشؤون والأسباب محمد أبو الهدى كان الله له ولوالديه وأحسن بدار الجزاء جزاءهم بين يديه يوم القدوم عليه يقول: أنا والحمد لله تعالى ابن السيد حسن وادي المكنى بأبي البركات بن السيد علي بن السيد خزام بن القطب الكبير السيد علي آل خزام دفين جيش وصاحب المرقد الطافح بالنور فيها ابن العلّامة الإمام القطب الهمام أستاذ العارفين السيد حسين برهان الدين القادم من البصرة ابن الإمام السيد عبد العلام ابن علم المحدثين السيد عبد الله شهاب الدين المبارك ثم الزبيدي البصري ابن السيد محمود الصوفي الكبير ابن السيد محمد برهان ابن السيد أبي محمد حسن الغواص دفين الشام ابن السيد الحاج محمد شاه ابن السيد محمد خزام دفين الموصل الحدباء ابن نور الدين السيد عبد الواحد ابن السيد محمود الأسمر ابن السيد حسين العراقي ابن السيد إبراهيم العربي ابن السيد محمود ابن السيد عبد الرحمٰن شمس الدين ابن السيد عبد الله قاسم نجم الدين المبارك ابن السيد محمد خزام السليم ابن السيد شمس الدين عبد الكريم أبي محمد الواسطي ابن السيد صالح عبد الرزاق ابن السيد شمس الدين محمد ابن السيد صدر الدين علي ابن السيد القطب الغوث الجامع عز الملة والدنيا والدين أحمد أبي علي الصياد قدّس الله سرّه العزيز ابن السيد ممهد الدولة والدين عبد الرحيم ابن السيد سيف الدين عثمان ابن السيد حسن ابن السيد محمد علي ابن السيد الحازم ابن السيد أحمد ابن السيد علي المكي ابن السيد الحسن رفاعة المكي الكبير نزيل المغرب ابن السيد المهدي ابن السيد أبي القاسم محمد ابن السيد الحسن ابن السيد الحسين ابن السيد أحمد ابن السيد موسىٰ الثاني ابن السيد الإمام إبراهيم المرتضى ابن السيد الإمام موسىٰ الكاظم ابن السيد الإمام جعفر الصادق ابن السيد الإمام محمد الباقر ابن السيد الإمام زين العابدين علي الأصغر ابن السيد الإمام علم الإسلام ثالث الأئمة الأوصياء أبي عبد الله سيد الشهداء مولانا الإمام الحسين السبط الشهيد بكربلا ابن إمام الأئمة وعين فحول أشراف الأمة أسد الله الغالب أمير المؤمنين سيدنا عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه رزقه الله إياه من زوجته الطاهرة البتول النقية سيدة نساء العالمين سيدتنا

فاطمة الزهراء النبوية بنت سيد المخلوقين إمام المرسلين علة خلق العالمين، حبيب الله الرسول الصادق الأمين نبينا وشفيعنا وسيدنا ومولانا محمد تاج النبيين صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وعترته وذريته وأهل بيته الطاهرين أجمعين.

لطيفة:

أسمعني الفاضل الهمام مفتي الحنفية بدمشق الشام محمد أمين أفندي الجندي سنة ست وثمانين ومائتين وألف في إسطنبول بيتين من شعره مدح بهما آل الصياد عليهم رضوان ربّ العباد، وهما من نفيس شعره رحمه الله تعالى فخذهما وكن من الشاكرين:

آل النبي بنو الصياد سادتنا ... لواء مظهرهم بالعز معقود
ولن يرى الضيم قلب خوف بارئه ... فيه وحب بني الصياد موجود

ولنا ولله الحمد والمنّة نسب من جهة أم جدنا القطب السيد علي آل خزام الصيادي دفين حيش قدّس الله سرّه، ينتهي إلى سيدنا وعماد مجدنا سيف الله الأمير الخطير الوليد المخزومي القرشي رضي الله تعالى عنه وعنّا به، فإن أم السيد علي الأصلية النجيبة زيانة بنت مراد بن جابر بن ناصر العاصي الخالدي المخزومي شيخ بني خالد بديار الشام، ونسبه لسيدنا خالد من طريق والده محمد رضي الله عنهما، وهو في وثائق أنسابنا مسطور وبألسن التواتر مع التكريم مذكور، ولنا نسب ينتهي إلى القطب الغوث الفرد الكبير الولي الأصيل والعارف الجليل ذي المدد الظاهر والنسب الطاهر المشتهر في البوادي والحواضر، أحد الأقطاب الأربعة الأعيان مظهر المجد والفضل والعرفان، رب الفيض الرباني مولانا السيد الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه بواسطة جدنا السيد محمود البصري ابن السيد عبد الرحمٰن شمس الدين، فإن أم السيد محمود الشريفة برق بنت السيد الشيخ محمد الحيالي ابن السيد أحمد ابن السيد علي ابن السيد حسين ابن السيد محمد ابن السيد الشيخ محمد شرشيق ابن السيد محمد ابن ولي الله العارف بالله السيد الشيخ عبد العزيز دفين جبل الحيال من أعمال الموصل ابن القطب الغوث الفرد الكامل معدن الفضائل الحسيب النسيب أبي محمد السيد الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، وينتهي نسبه الشريف إلى الإمام الهمام سبط النبي عليه الصلاة والسلام مولانا وسيدنا الحسن أبي محمد ابن أمير المؤمنين روح العارفين باب مدينة علم سيد الأولين والآخرين مظهر العجائب ليث الله الغالب سيدنا وسندنا ودعامة مجدنا وقوة ظهرنا أبي الحسنين الإمام علي بن

أبي طالب رضي الله عنه وسلام الله وتحياته على روحه الطاهرة ما دامت الدنيا والآخرة.

تحفة: كنت كتبت لرجل من السادة القادرية لسبب أوجب ذلك ما نصه:

قولوا لرب حسب حديثه ... مخالف بنهجه قديمه
تفخر بالجبلي إذا تنمى له ... بنسب أصوله كريمه
وحقك الفخر به لو كنت من ... يمشي على طريقه القويمه
فهو إمام عارف رتبته ... جليلة رفيعة عظيمه
ولم يزل يمطر من إحسانه ... للطالبين ديمة قديمه
سار على أثر جناب المصطفى ... بسيرة آياتها عميمه
وقد بدت من سره عجائب ... مناقب جواهر نظيمه
إن قلت يا فلان إنك ابنه ... من ابنه فصحح العزيمه
وارحم ولا تقطع إذا أرحامه ... فنفسه رؤوفة رحيمه
وافطن فنحن الزهر آل بنته ... بنسبة عالية فخيمه
قلوبنا بحبه مشغوفة ... لله لا لبغية ذميمه
كالحسنين شأننا وها هما ... بفاطم قد أعطيا الغنيمه
وهكذا الجيلي تاج العارفـ ... ـين جدنا من جهة الأمومه
وبالرفاعي الرفيع المرتقي ... نحرز منه لحمة العمومه
ولم تزل تشملنا أنظاره ... ولو أطال كاذب زعومه
فالكاذب الخواض أين ما التحى ... زعومه أغلاطها سقيمه
علت بنا للغوث عبد القادر الجـ ... ـيلي برق الدرة اليتيمه
عن وهدة الشطح رفعنا قدره ... وقد رأينا أبدًا تعظيمه
وأنت يا فلان أفرطت بما ... حملته من تهم معلومه
وقد مسست مجده وشأنه ... بكلمات كلها كليمه
ونحن نزّهناه عن ما قلته ... نريد في تنزيهه تفخيمه
نرضى بما يرضى له نبيه ... وهذه العاقبة السليمه
وإنه لعمنا وجدنا ... بالنسبة الصحيحة الصميمه

نـجـلّه نـعـظـمـه نـحـبـه　　نـكـتـب فـي قـلـوبـنـا تـكـريـمـه
لا بـرحـت تـحـفـنـا بـمـدد　　مـؤيـد هـمـتـه الـعـظـيـمـه

وعلى كل فمقام حضرة مولانا القطب الأعظم الجيلاني قدّس سرّه النوراني محفوظ وبأنظار التعظيم ملحوظ، ولا يضره ما نسبه إليه أهل الجهالة من الشطحات الموضوعات والكمالات الزائدات، فقد وضع مثلهم الأحاديث المكذوبة وعزوها بهتانًا للشارع الأكرم الأعظم ﷺ حالة كونه خلقه القرآن، وهو علة خلق الأكوان وحبيب الرحمٰن ونور الله اللامع في بحبوحة الكيان عليه وعلى آله وأصحابه صلوات الله في كل آن وزمان.

فائدة:

جاء مرفوعًا برواية السيدة عائشة الصديقة رضي الله عنها وعن أبيها «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»(١). قلت: هذا التعارف الروحي فيه مراتب، مرتبة منه ائتلافها لا يقف إلا مع القالب، ومرتبة منه لا يقف ائتلافها إلا مع القلب، ومرتبة منه لا يقف ائتلافها إلا جامعًا بين الشأنين، ومرتبة منه لا تقف مع كل هذا بل ترتفع إلى حكم التعارف الغيبي فتمزق حجب القوالب والقلوب وتأخذ في ترفعها إلى استكشاف سر الائتلاف الأول فتمزج الروح بالروح، وهناك فيغلب سلطان الروح كل مادة كثيفة سوى الروح اللطيفة المجردة. ولهذا ترى أن المريد يفنى في الشيخ، وهذا الفناء هو الائتلاف الروحي الأصلي الذي تضمحل عنده العلائق، فإذا كملت مرتبته ارتفعت الروح في منزلة أدبها الخالص إلى الفناء في النبي ﷺ ومن هذا المقام إلى الفناء في الله تعالى، فمرتبة الفناء في الشيخ حكمها التعارف الذي ينتج عنه الائتلاف، ومرتبة الفناء في الرسول ﷺ حكمها العلم الذي ينتج عنه سر المعرفة بجليل قدره عليه الصلاة والسلام وكونه العلة الغائية لخلق الأكوان والوسيلة العظمى للملك الديان والفناء في الله سبحانه وتعالى، فمرتبة حكمها الإيمان الأكمل الذي يدفع الشكوك ويربط القلب بصدق التنزيه بملك الملوك فلا يرى إلا سلطان أمره في المكونات وينزهه في ذاته وصفاته عن سمات الحادثات، وإذًا يقف بين حكمي اسميه الأقدسين الباطن والظاهر، فمن حكم اسمه الباطن يرد التأثير في أفعال الخلق إليه، ومن حكم اسمه الظاهر ينظر إلى إحسانه الإرادة الجزئية فيعتني بصرفها فيما يرضيه سبحانه وتعالى امتثالًا لأمره ويعول عليه، وللوقوف في هذا

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢١٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٣١).

الطريق الأمين يقول: (اللّهم إياك نعبد وإياك نستعين). وإني والحمد لله صح لي التعارف الروحي في مقام الإرادة في الطريق مع ثلاثة مشايخ: فشيخي الأول والدي وسيدي وملاذي وقبلة روحي وباب فتوحي العارف الكامل الولي الواصل أبو البركات صاحب الإفاضات الساريات السيد حسن وادي الصيادي الرفاعي الخالدي قدّس الله سرّه ونفعنا والمحبين ببركاته، وشيخي الثاني فهو الولي الأصيل ذو المجد الأثيل مظهر المفاخر وإرث الأسرار الأحمدية كابرًا عن كابر، السيد علي أفندي آل خير الله الصيادي الرفاعي شيخ مشايخ حلب طيب الله مرقده وأعلا في معارج الفخار فرقده آمين، وشيخي الثالث فهو القطب الغوث الجامع والبدر الذي هو في سماء المفاخر البتولية، طالع علامة العصر وحيد الدهر صاحب المكاشفات الصريحة والإشارات الصحيحة والتصانيف العديدة والتآليف المفيدة واللسان الباهر والقلب العامر، المقبل على الله المعرض عن الناس بهاء الدين مولانا وسيدنا السيد محمد مهدي آل خزام الصيادي الرفاعي الحسيني الشهير بالرواس رضي الله عنه ونفعنا والمسلمين ببركاته وأنفاسه وعلومه، وهو كما يعلم من قواعد القوم رضي الله عنهم شيخ الفطام، أما سيدي ومولاي الوالد الماجد قدّس الله سرّه وأفاض علي وعلى محبيه بره، فنسبه الشريف الطاهر لسيد الأوائل والأواخر قد تقدم ذكره ونفح عطره (ونسبه المعنوي في الطريق العالي الرفاعي فسأذكره) مفتخرًا بلسان التعظيم وأتلوه لك أيها المحب بناطقة التكريم فأقول: أخذ الطريقة المباركة الرفاهية عن القطب الجليل المعرض عن هذه الدنيا الدنية كثيرها والقليل، محبوب القلوب والولي الذي تكشف ببركة همته الكروب، الرفيع الحسب الرفاعي النسب أبي الأحوال السيد رجب المحمدي الصيادي الرفاعي قدّس الله روحه ونفعنا به، وهو ابن السيد محمد ابن السيد حمود ابن السيد عثمان ابن السيد محمد سلطان العجاج ابن القطب المكين السيد حسين برهان الدين آل خزام البصري الذي سبق ذكره الشريف بنسب سيدي الوالد قدّس سرّه. وقد أخذ السيد رجب الطريقة العلية الرفاعية من شيخه العارف الهمام، علم المشايخ العارفين الكرام وولي الله السيد الحاج أحمد الجندي العباسي أبي الصياد لأمه، وهو عن أبيه وولي الله السيد الشيخ مصطفى الجندي المعري، وهو عن خاله السيد محمد عرفات آل خزام الصيادي، وهو عن ابن عمه القطب المحترم السيد خير الله الكبير صاحب العلم وسيأتي ذكر تتمة السند بنسبة العم الأمجد الأوحد السيد علي آل خير الله قدّس الله روحه وحياه. توفي سيدي الوالد الماجد طيب الله ثراه وله من العمر ست وستون سنة، وكانت وفاته سنة اثنى

عشرة وثلثمائة وألف في مدينة حلب الشهباء، ودفن في زاويته التي أنشأها بها في محلة باب الأحمر، ومرقده المبارك يزار وتلوح عليه الأنوار وكان يوم وفاته يومًا مشهودًا وقد رثاه أفاضل الأمصار وصُلِّي عليه صلاة الغائب في أكثر الأقطار، وقد ملأ مريدوه وخلفاؤه ومحبوه المدن والقفار، وقد عظمه الأئمة الأكابر وشهد له بعلو القدم أفاضل الحظائر، وناهيك منهم بسيدنا وعمادنا السيد بهاء الدين محمد مهدي الصيادي الرفاعي الشهير بالرواس رضي الله عنه فإنه نعته بالولاية الكبرى والمرتبة العظمى والشأن الخطير والقلب الكبير وأنه ملحوظ بنظر العناية من النبي ﷺ، وأنه أمر من جناب الحبيب العظيم عليه أفضل التحية والتسليم بملاحظته في شأنه، يؤيد ذلك قوله رضي الله عنه بشأن الوالد المشار إليه رضوان الله عليه من قصيدة:

وادي الولاية من صميم محمد ... سر النبوة عروة المتوسل

وادٍ بذكر الله ضاء مشعشعًا ... بطريقة المدثر المزمل

لم أنس إذ قال النبي عشية ... بارك على ذا السيد المتوكل

وهي طويلة جليلة وقد لخصنا منها هذه الأبيات الجميلة وقال فيه شيخنا رضي الله عنهما من قصيدة نضيدة:

أخا الهدى لا تبارح قطّ نادينا ... سيملأ الأرض هديًا سهل ولمينا

فنحن عترة شيخ الأولياء بلا ... ريب وفيض المعالي من رباهينا

وقال فيه أيضًا عطّر الله مرقديهما ونوّر ضريحيهما:

لله في شيخون عبد خاشع ... متجرد عن ربقة الغفلات

حسن الشؤون أبو العواجز جده ... سلطان أهل الحال في الحضرات

لا بد تدركك العناية إن تقل ... بصحيح سر يا أبا البركات

وقال فيه أيضًا يصرّح بملاحظة الروح الطاهرة الرفاعية له قدّس سرّه:

شاهدت من سلطان أم عبيدة ... نظرًا يفيض مسلسل النفحات

يجري إلى بن خزام فياض العطا ... ولذا يقال له أبو البركات

هذه نهلة من خمره وشمة من عطره، وقد أفردته كما أفرده غير واحد من محبيه بالتأليف وبسطت المقال بذكره الشريف، وفي تلك الكتب المصنفة بشأنه الكفاية نفعنا الله والمحبين بمدده وبركته آمين. وأما شيخي وابن عمي ومحبوب قلبي وتربيع لبي،

الولي الكامل معدن الفضائل سليل السادة الأكابر الأفاضل، العارف بالله المعرض عمن سواه قرة عيني السيد علي آل خير الله طاب ثراه، فهو ابن القطب السيد خير الله ابن الولي الأمجد السيد محمد ابن القطب المكرم السيد خير الله الكبير صاحب العلم ابن السيد أبي بكر ابن السيد خير الدين ابن السيد عز الدين أبي بكر ابن السيد راجح ابن السيد عبد الملك ابن السيد عبد المنعم ابن السيد عبد الملك ابن السيد عبد السميع ابن السيد محمد ابن السيد أحمد ابن السيد عبد السميع ابن السيد شمس الدين أحمد ابن السيد الكبير شيخ الإسلام صدر الدين علي ابن القطب الغوث الجامع الجواد السجاد ابن السجاد فرد الأفراد أبي علي السيد عز الدين أحمد الصياد سبط الحضرة المعظمة الرفاعية وابن القطب العظيم السيد ممهد الدولة عبد الرحيم الرفاعي الحسيني. وقد سبق ذكر نسبه مسلسلًا إلى النبي ﷺ، وأم السيد خير الله صاحب العلم السيدة فاطمة بنت الإمام السيد حسين برهان الدين نزيل بني خالد بديار حماة جدنا الذي يعلو به مجدنا رضي الله عنهم أجمعين. أخذ شيخنا السيد علي الطريقة الرفاعية عن أبيه السيد خير الله وهو عن أبيه السيد محمد عن أبيه القطب السيد خير الله صاحب العلم عن أبيه السيد أبي بكر عن ابن عمه السيد محمد بن حجازي عن ابن عمه السيد أبي بكر عن جده السيد موسى الكبير عن أبيه السيد عمر عن أبيه السيد عبد السميع عن أبيه السيد شمس الدين محمد عن أبيه السيد صدر الدين علي عن أبيه القطب الغوث الجواد مولانا السيد عز الدين أحمد الصياد عن أخيه القطب الجليل المتمكن السيد أبي الحسن عبد المحسن عن جده سلطان الأولياء لائم يد جده سيد الأنبياء عليه صلوات خالق الأشياء شيخ الأمة المستغاث به في المهمة علم الشرق (أبي العلمين) ملجأ العواجز كعبة القلوب مولانا وسيدنا السيد أحمد محيي الدين الرفاعي الحسيني الحسني الأنصاري رضي الله عنه وعنا به ونفعنا والمسلمين بعلومه ومدده وشريف همته.

أما كرامات شيخنا السيد علي آل خير الله ومناقبه ورفيع مكانته في قلوب الناس وعلو منزلته لدى أهل القلوب، فذلك أشهر من نار على علم يعرفه الخواص والعوام ويعترف به الأفاضل الأعلام، توفي رضي الله عنه في بلدته حلب الشهباء ودفن بزاويته المعمورة في محلة بانقوسا، وكانت وفاته عام تسع وثمانين ومائتين وألف وقد رثاه الأفاضل واحتفل بالثناء عليه أمة من أولي الفضائل وقد قيل في تاريخ وفاته من قصيدة:

ولدى زيارتنا له أرخ ترى　　　نورالرفاعي من مقام علي

نفعنا الله به وبأسلافه وجعل البركة والعلم والتقوى بذريته وأخلافه آمين.

وأما شيخي وسيدي وتاج رأسي ونور باصرتي وملجأي وعمدتي وولي نعمتي القطب الغوث الجامع والبدر المتلألىء الساطع العلّامة النحرير والفهامة الخطير رب التحبير والتقرير علم المعارف بحر العوارف شيخ الحضرات في العصر صاحب الخوارق التي تجل عن الحصر وارث علوم جده سيد الكونين نائب أبيه أبي العلمين المرشد الذي ترفع في زمنه عن القياس، أبو البراهين بهاء الدين مولانا وشيخنا السيد محمد مهدي الصيادي الرفاعي الشهير بالرواس رضي الله عنه وعنا به ونفعنا والمسلمين ببركة علومه ومدده، فهو ابن السيد علي ابن السيد نور الدين ابن السيد أحمد ابن السيد محمد ابن السيد بدر الدين ابن السيد علي الملقّب بالرديني ابن السيد الكبير العارف بالله تعالى السيد محمود الصوفي، وهو الجد الجامع بين نسبنا ونسب سيدنا الإمام السيد محمد المهدي الصيادي المشار إليه رضوان الله تعالى عليه. وأما سند شيخنا المتداول في الطريقة العلية الرفاعية فهو عن الولي العارف بالله السيد عبد الله الراوي الرفاعي، وهو عن أبيه الولي الكبير السيد أحمد الراوي عن السيد نور الدين حبيب الله الحديثي عن جدنا وعقد مجدنا القطب السيد حسين برهان الدين آل خزام الصيادي الرفاعي البصري نزيل قبيلة بني خالد بديار حماة الشام، عن أخيه السيد نور الدين عن أبيه السيد عبد العلام عن عمه السيد سراج الدين الصغير عن جده السيد محمود عن أبيه السيد محمد برهان عن أبيه أبي محمد السيد حسن الغواص دفين الشام، عن أبيه السيد الحاج محمد شاه عن أبيه السيد محمد خزام الموصلي عن عمه السيد ملك المندلاوي عن أبيه السيد محمود الأسمر عن أبيه السيد حسين العراقي عن ابن عمه السيد تاج الدين عن ابن عمه السيد عبد الرحمٰن شمس الدين عن جده السيد محمد خزام السليم عن أبيه الشمس عبد الكريم عن أبيه السيد صالح عبد الرزاق عن أبيه السيد شمس الدين محمد عن أبيه شيخ الإسلام السيد صدر الدين عن أبيه القطب الغوث الجواد أبي علي السيد عز الدين أحمد الصياد عن أخيه السيد أبي الحسب عبد المحسن عن جده سلطان الأولياء مقبل يد جده سيد الأنبياء عليه صلوات رب الأرض والسماء قطب الأقطاب ملجأ الطلاب وسيلة كل داعي أبي العلمين مولانا وسيدنا السيد (أحمد الرفاعي) الحسيني رضي الله عنه وعنهم أجمعين. وهو أخذ عن الشيخ الكبير علي أبي الفضل الواسطي الشافعي عن الشيخ أبي الفضل بن كامخ عن الشيخ غلام بن تركان عن الشيخ أبي علي الروزبادي عن الشيخ علي العجمي عن الشيخ أبي بكر الشبلي عن سيد الطائفة

الإمام الجنيد البغدادي عن خاله الشيخ السري السقطي عن الشيخ الأكبر معروف الكرخي عن الشيخ الجليل داود الطائي عن الشيخ الأجل حبيب العجمي عن إمام الجماعة الحسن البصري عن مرجع الكل بالكل باب مدينة العلوم مظهر العجائب أمير المؤمنين سيدنا وسندنا ومولانا الإمام أبي الحسنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه وعنهم أجمعين.

وسند سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه عن خاله الإمام السيد الشيخ منصور البطائحي الرباني الأنصاري ثم الحسيني وسنده الذي لم يكن واحد من غير أهل البيت حتى إلى النبي ﷺ فهو مقرر معروف مذكور في المطولات بل هو أشهر من أن ينبه عليه.

تحفة عظيمة:

لا يخفى على من له أدنى شمة عرفانية ونهلة وجدانية أن الأولياء الذين صحت كشوفاتهم لا بد ولو بعد حين أن تظهر بشاراتهم وتلمع من بطن الغيب في عالم البروز إشاراتهم، وأن شيخنا القطب الغوث الأكمل الأجل السيد محمد بهاء الدين المهدي الصيادي الرفاعي الحسيني الذي تشرفنا بذكره ونشرنا لطائف عطره، هو صدر الأولياء في عصره ووحيد أهل المعاريج القدسية في دهره. وقد بشرنا والحمد لله بظهور الطريقة العلية الرفاعية بنا وببروز نور المجد الأحمدي في بيتنا وعلى يدنا كل ذلك لوجه الله ولإعلاء شرف ولي الله سيدنا الإمام الرفاعي المقدم المكرم الوارث لأخلاق جده الأعظم ﷺ لا يشاب ذلك بغرض دنيوي ولا يمزج بقصد نفسي، ما فيه غبار يرجع إلى أمر في هذه الدنيا ولا نهي ولا ظمأ يؤول لشأن من شؤونها ولا ري، بل هو منحصر في طريق القوم الذين برأهم الله من اللوم، وهو عبارة عن التمسك بحال النبي ﷺ والقول بأقواله والعمل بأعماله صلى الله عليه وعلى آله. وفي ذلك قمع المبتدعين وردع الضالين ومحبة الصالحين والانتصار للدين والنصيحة لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وإمامتهم، وفيه الأدب مع الخلق والرجوع إلى الخالق وصدق النية وصفاء الطوية وإرادة الخير للآدميين على طبقاتهم كبارهم وصغارهم، والموالاة لمن والى الله والمعاداة لمن عادى الله وعدم منازعة أولى الأمر ولو بتأويل ما، والدعاء بالخير لسلطان المسلمين وخليفة المؤمنين نصره الملك المعين وأعز به كلمة الحق والشريعة والدين وحفظ به ثغور بلاد الموحدين وأعانه في أموره كلها على ما يرضاه إنه خير الناصرين. وفي كل هذا فتهذيب القلب بذكر الله والتباعد

عن نسيان الله والوقوف بباب الله واتباع حبيب الله عليه أفضل صلوات الله ومحبة الآل والأصحاب والتحلي بمشارب الأقطاب والأنجاب واحترام الصالحين واجتناب أهل الزيغ من المارقين وبذل النصيحة للخلق واجتذابهم إلى طريق الحق وإحياء سنن الإمام الرفاعي الذي هو من لباب سنة جده الطاهر النبي العربي عليه أفضل صلوات الملك العلي وتعظيم الأولياء كلهم وإجلال منازلهم ورد الشطحات بتأويل حسن ومجانبة أهل الأهواء والفتن. هذا هو طريقنا ومشربنا وتحقيقنا وقد بشرنا السيد المهدي طاب مرقده ولمع في سمٰوات القبول فرقده بهذا الشأن العظيم والمظهر الكريم، وأن ذلك سيكون في حلب ومنه ينسل ركب هذا المجد إلى كل حدب وصرح بذلك في أخباره وكثير من أشعاره منها قوله رضي الله عنه:

انشق النسمة من شهبائهم كانتشاق المصطفى ريح اليمن

وقال أيضًا من قصيدة:

قل لمن أعرق فينا جاهلًا أسست دعمتنا في حلب

وقال رضي الله عنه:

قد تخافينا فقم مظهرنا من سما شيخون ولكن حلبا

وقال نفعنا الله بعلومه:

سر الولاية مرقاة تقوم بها نيابة وطوى بطحائها حلب

وقال قدّس الله سرّه:

نعرف في الكون ولكننا شمس هدانا تنجلي في حلب

قلت: وقد وافق سيدنا السيد المهدي رضي الله عنه على هذه الإشارة بعض قدماء الأولياء. قال الشيخ أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر القرشي الهاشمي الشاذلي البغدادي في كتابه المسمى «المجموع الشريف المحتوي على كل معنى لطيف» من رحلة الشيخ الولي أبي الحسن علي بن عمر القرشي الشاذلي الأموي اليمني رحمه الله ما نصه، وسمعته رضي الله عنه يقول: سألني سيدي الشيخ ناصر الدين رضي الله عنه حين قدومي عليه من الشام عن الأصحاب وعن بيت المقدس وعن الشام ثم قال لي: هل تعاليتم إلى حلب؟ فلما قال هذه الكلمة كشف لي عن علوم جمة من علوم الحكمة ثم قال حين الإخبار وإلى الآن يظهر لي من هذه الكلمة ما تكل عنه العبارة وتقصر دونه الإشارة انتهى.

وهذا الكتاب موجود في كتبية آيا صوفيا وغيرها من كتبيات دار السعادة المصونة المحروسة، وقد ذكرت هذا سرورًا ببروز نور الكشف المهدوي الذي لمع كالصباح الجلي، فإنه لم يتخلف من بشاراته وآيات كشوفاته ولا حرف واحد، وهذا من أعظم الأدلة على تمكنه في مقامه ورصانة أقدامه لا زال رفيع المقام محفوفًا بأنوار القبول من جده المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقد أوضح هذه العبارات بصريح البشارة في هذه الأبيات فقال لا عدمنا فيضه السيال:

بالقرب من متكين نشر لوائي ... سراقيم بعالم الأسماء
سيفاض في الشهباء منه رونق ... عال ويحيي ميت الأحياء
لله في البطحاء عين عناية ... ترعى فروع خزام في الشهباء

وكان ولله الحمد والمنّة الأمر كما قال سيدنا السيد محمد مهدي المشار إليه: سحت سحب الرضوان عليه، وأن هذا الإمام والأسد الضرغام كان في طريق الله حجة يعَوِّل عليه العارفون ومشربه محجة يهتدي بها السائرون. قلت له مرة وقد استدل على نكتة تصوفية في الحقيقة بأبيات من الشعر: يا سيدي أما لهذه النكتة دليل من الشرع الشريف؟ فتبسم رضي الله عنه وقال: بمثل هذا سئل الإمام الجنيد رضي الله عنه وعنا به قلت: وكيف ذلك؟ فقال: سأله سائل عن التوحيد فقال للسائل: سمعت قائلًا يقول:

وغنّى لي من قلبي ... وغنيت كما غنى
وكنا حيثما كانوا ... وكانوا حيثما كنا

فقال له السائل: أهلك القرآن والأخبار حتى تأتي بالشعر؟ فقال: لا، ولكن الموحد يأخذ أعلا التوحيد من أدنى الخطاب انتهى. قد عرف الخواص والعوام فضل هذا السيد الهمام، وقد شاعت مؤلفاته ومنظوماته وسارت في البلاد حكمه وكلماته وثبتت بالعيان الذي لا يقبل الدفاع، خوارقه الشريفة وكراماته وقد زادت منظوماته عن مائة ألف بيت كلها غرر وفرائد درر، فيها من علوم الحقائق وعجائب الرقائق وأساليب الدقائق ما تندهش له الأبصار وتنذهل له الأفكار، وبالجملة فهو غوث الزمان وقطب الأوان وعلامة العصر وفهامة الدهر وشيخ الرجال وكعبة أهل الحال، توفي رضي الله عنه ببغداد عن سبع وستين سنة وكانت وفاته عام سبع وثمانين ومائتين وألف، نور الله مرقده بنور القبول والغفران ونفع بعلومه ومدده أهل الإيمان، دفن طاب ثراه في مسجد دكاكين حبوب بالقرب من رأس القرية محل مرقد الغوث الفرد ذي القدر العلي

والشرف الجلي مولانا السيد السلطان علي والد حضرة سيدنا الإمام الرفاعي رضوان الله عليهم أجمعين. ومرقده المبارك عليه رباط معمور مبرور يطفح بالنور آهل بذكر الله وبالرجال المقبلين على الله ولا إلـه إلا الله، وقد تبركت بذكر مشايخي الكرام الثلاثة بقصيدة نضيدة جعلتها لهذا الكتاب المبارك مسك الختام وزبدة المرام فقلت:

دار السرور بنا مع الأوقات ... والخير في الحركات والسكنات
قلنا بتوحيد الإلـه وقدسه ... فردا بعز صفاته والذات
ونبينا شرف الوجود المصطفى ... بحر الكمال وعلة الذرات
وإمامنا الغوث الرفاعي الذي ... تنمى إليه خوارق العادات
والسيد المهدي عقد نظامنا ... شيخ الزمان الطيب النفحات
ولنا يد الإمداد من رجب العلا ... ومن الرضا حسن أبي البركات
ومن ابن خير الله ذي النسب الذي ... حفلت به غر من السادات
قوم متى دارت بنا أخبارهم ... فعلت كدور الراح بالكاسات
يا سادتي والعهد أعظم ملحق ... بجنابكم يا نجدتي وحماتي
لكم الولاية حلة مرقومة ... بلطائف الأسرار والآيات
ولكم يد التصريف صح نظامها ... أبدًا بحكم المحو والإثبات
وبكم بدا سر الطريق لأهله ... وجلال هذا الشأن في الحضرات
عاداتكم غوثي ورفعة مظهري ... لا تقطعوا العادات يا ساداتي

هذا ما سمح به الوقت وساعد عليه الزمان وهو بالنسبة لضعف عزائمنا غاية الإمكان، والله المسؤول أن يحفظ هذا المختصر من جحد الجاحد وحسد الحاسد، إذ لكل منهما عثرات لا تقال وكلمات لا تقال وفي كل الشؤون التوكل على الله والاستناد إليه جل علاه هو المعين والنصير وهو على كل شيء قدير. وسأشرف خاتمة كتابي بأبيات وردت على لسان شيخنا السيد بهاء الدين محمد مهدي المشار إليه صبت سحائب الرضوان عليه تبرز إشارة وتطوي بشارة وها هي بنصها قال رضي الله تعالى عنه وعنا به:

تحير فينا الحاسدون بزعمهم ... وراحوا على سوء الظنون وجاؤوا
قلوب جرحناها بأسهم ربنا ... وأين لمجروح القلوب دواء
فلو أبصروا لاستسلموا لجنابنا ... ولكن على تلك القلوب غطاء

رأوا أرضهم تعلو سمٰوات عزنا ... وهل تحت أرض في الوجود سماء
فنحن لنبراس الصدور أشعة ... ونحن لأسقام القلوب شفاء

اللّهم حقّقنا بالإلهام الصحيح وخلّقنا بكل خلق مليح واكتبنا في دفتر عبادك المرضيين مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا يا رب العالمين، وصلّ في كل طرفة ولمحة على سيد أهل حضرات قربك حبيبك سلطان أنبيائك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

هذا تقريظ الفاضل الكامل سليل العلماء الأفاضل صاحب التصانيف اللطيفة والتآليف الشريفة ذي الفضيلة الحاج محمد نوري آل المفتي الأريحاوي.

يا سيدي يا رفاعي يا أبا العرجا مددك

سفر به دارت كؤوس الراح ... تسقي الملا من خمرة الفتاح
من خمرة قدسية تغدو بها ... أرواحنا سكرى بغير جناح
تسمو لأفلاك العلى طربًا ولا ... عجب إذا طارت بغير جناح
وتغيب من تلك الرقائق كلما ... فاح الشذا من عطرها الفياح
يا أيها الساقي أدر كاساتها ... لأولي الغرام بغدوة ورواح
ليروا بنشأة سرها الفياض ما ... يكفيهمو عن خمرة الأقداح
من يشتري راح الدنان بدانق ... فليشر هذا الراح بالأرواح
هذا هو الراح المباح وما سوى ... راح الهدى والرشد غير مباح
يمحو من القلب السوي ولذا انتمى ... لأبي الهدى وابن الرسول الماحي
شبل الرفاعي الذي قد أشرقت ... شمس الضحى من نوره الوضاح
وسليل صياد يصيد بلحظة ... أسد الشرى لكن بغير كفاح
وسلالة الآل الأولى شملوا الملا ... بمكارم ومراحم وسماح
كم حلّ عقدة معضل أو مشكل ... وقفت لديه عزائم الشراح
يروي العلوم بأسرها عن سادة ... بثوا الحياة بميت الأشباح
لا سيما المهدي تاج الأولياء ... غوث الزمان ملاذنا الجحجاح
لله غوث أفصحت أنباؤه ... عن كل فضل أبدع الإفصاح
وأتت بمحكم سنة علوية ... نبوية في غاية الإيضاح

أحيا مآثرها الإمام أبو الهدى وأبانها رغم العدو اللاحي
وأتى بقول إمامنا خواص هـ ـذا العصر ذي الإرشاد والإصلاح
محبوب طه من غدا متلألىء بجبينه الوضاح نور صباح
حسن العلا مولى أفاض على الملا بحر العطايا من بطون الراح
ربّ الخوارق والبوارق والحقا ئق والسوابق سيد النصاح
مولى متى نسطو بأسهم سره فجميع أصناف العداة أضاحي
سبقت خيول الوالهين خيوله في ساحة العليا بدون جماح
وغدت تضيء كواكب من رشده العالي السنا بعواصم ونواحي
ولقد حبانا شبله من لفظه عقدًا يفوق عقود ذات وشاح
وأشار للفتح الإلـٰهي الذي غيبًا أتى من فالق الأصباح
فأتى كتابًا مفردًا في بابه هو روضة زينت بزهر أقاح
أثر لمولى لم تزل آثاره العليـ ـا مدار سعادة ورباح
أثر لمولى عبد دولة عزه يوم الوغى يسطو بغير سلاح
يدعو أُولي التقوى بلطف إشارة لتجارة موفورة الأرباح
ويقظ الألباب ممن لم يزل في سكره يسعى بسيمة صاحي
يغني لأهل السير في نهج العلى بمناره العالي عن المصباح
لله در مصنف سامي السماء برفعة زينت بخفض جناح
السيد السند الذي لمعت بدا ئع نوره بصحائف الألواح
نشرت بحسن الطبع فانتشر الشذا والطيب ممتزجًا بنشر رياح
وبذلك النشر الشذي أولو النُهى أرخ تهنى راحة الأرواح
١٣٢١

لا زال من يأوي لسدة بابه يحظى بخير عناية ونجاح
ويعود شاكر ما رأى من فيضه مستغرقًا في جلة الأقداح
ما قال نوري مادحًا ومقرظًا سفر به دارت كؤوس الراح

(المفاخر برقبته والمباهي بعبوديته)

«محمد نوري»

تفريط لكتاب راحة الأرواح للعالم الماهر ناظم عقود الجواهر الشيخ أحمد بن الأمين الشنجيطي المالكي دام موفقًا في الأمرين الدنيوي والأخروي:

أريح مسك أم كبا نفاح … أم روضة غنَّاء ذات أقاح
أم نسمة هبت لنا مختالة … قد عطرتها راحة الأرواح
أم ذي عروس في غلائلها بدت … مفترة عن ثغرها الوضاح
أم هذه راح ثوت في دنها … قد كان مازجها معين قراح
أم ذي جواهر ألفتها فكرة … تبدي العويص بأحسن الإيضاح
فكر الإمام أبي الهدى حاوي الثنا … مولى الجدا غيث الورى السحاح
أبدي من الدر النضيد جواهرًا … تزري بعقد فوق جيد رداح
فتح الإله به علومًا قفلها … قد كان محتاج إلى مفتاح
فلكم أذاع لها سرائر جمة … لم تفش للقرطاس والألواح
حكم بها قذفت قريحة عارف … تدعو بحي على فلاح فلاح
فإذا أودت من البلاغة أسها … فهو الأساس وغاية المصباح
يغنيك عما في اللسان وكلما … في التاج ذي التبيين والإفصاح
وإذا سمعت قريضة ما خلته … ألا تلقاه من الإقحاح
كأبي حنيفة في القياس ومالك … والشافعي وأحمد الجحجاح
ذو شيمة علوية من نسبة … صحت وكان يعينها بسماح
سعد الزمان به وأدبر نحسه … وانزاحت الأتراح بالأفراح
ألف المكارم ناشئًا فاعتادها … إن القبيح لديه غير مباح
يغضي عن الزلات إلا أنه … يرنو بطرف للعلا طماح
يكفيك من أفضاله وسموه … ما قد أذاعت ألسن المداح
تشدو به السمار في أنداثها … وبه تصحيح الورق في الأدواح
قد فاق أهل زمانه بعلومه … وصلاحه وبعقله المرجاح
وإذا يخط الدهر فعلًا سيئًا … فله جميل للإساءة ماحي
لا زال يرقى رتبة لا تنتهي … لبلوغها فتخاء ذات جناح

العبد اللائذ أحمد بن الأمين الشنجيطي غفر له آمين

تمّ الكتاب بحمد الله وفضله

الرقائق الرواسية

تأليف

قطب العارفين السيد محمد أبي الهدى الصيادي الرفاعي

المتوفى ١٣٢٨ هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله مُفيض المدد، والصلاة والسلام على حبيبه ونبيّه سيّدنا محمد نور باصرتَيّ الأزل والأبد وعلى آلهِ وأصحابه الآخذين عن جنابه الأعظم حقائق الأمور بأصح السند.

أما بعد:

فيقول العبد المستند إلى عناية الله في الأحوال والمساعي محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي كان الله له ولوالديه وللمسلمين إنه البر المعين: هذه رسالة فيّاضة بالنور المعنوي طافحة بالمدد المهدوي سمّيتها (الرقائق الرواسية) جمعتها من إشارات وبشارات ودقائق عبارات صدرت من لسان شيخي وعمي وقُرّة عيني وتاج رأسي أبي المعالي والبراهين غوث أعاظم الواصلين شمس العرفان فرد الزمان قطب الوقت والأوان سيد أهل هذا الشأن علّامة العصر، فهّامة الدهر الشامخ المجد المتين الأساس، غريب الغرباء، مولاي وملجأي السيد بهاء الدين محمد مهدي آل خزام الصيادي الرفاعي الحسيني، الشهير بالرواس رضي الله عنه وعنا به ونفعنا والمسلمين بعلومه وبركاته آمين، وهذه الرسالة الجليلة والخزانة الجوهرية الجميلة مع صغرها، كبيرة الشأن عظيمة البرهان يعرف شأنها العارفون، ويفهم لباب سرّها الموفّقون، والموفّق الله، وما توفيقي إلا بالله.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رقيقة: قال شيخي رضي الله عنه: العالِم العارِف لا يرى نفسه مجبورًا ولا مستبدًا، لا شهود الجبر يقعده عن المقاصد ولا شهود الاستبداد يقيمه إلى التجري على المفاسد.

رقيقة: قال رضي الله عنه: لا يُفيد النظر بلا عبرة ولا العبرةُ بلا علم، ولا العلم بلا عقل، ولا العقل بلا توفيق، والتوفيق رفيق الأدب، والأدب صاحب الإذعان، والإذعان نتيجة التواضع، والتواضع أخو المروءة، والمروءة من الإيمان.

رقيقة: قال رضي الله عنه: عالم الحدث طمس، وعالم الرسالة شمس، ولا ينكشف طمس الحدث إلا بشمس الرسالة، ومن زعم الاستنارة في عالم الحدث بغير شمس الرسالة خبط في دُجْنة فحماء وسقط في فاحمة ظلماء وزعم لهب النار قراحَ الماء.

رقيقة: قال رضي الله عنه: حبل النبوة حبلٌ لا ينفَصِم يصل إلى الحق مَن به يعتصم، ما زلّ عن الطريق مَن أخذ به ولا انحرف عن الصواب مَن وقف معه به، الهداية إلى الطور الصالح، والفهم النيِّر، وعنده خيرات الدنيا والآخرة كلها والمُفَارِقُ لَهُ مُفارِق لكل خير.

رقيقة: قال رضي الله عنه: نُقطةُ النبوة بَحر، وذرتها بَرّ والجهل بها كفر.

رقيقة: قال رضي الله عنه: لا يصح الأخذ عن الله بغير واسطة النبوة، ولا يصح الأخذ عن النبوة بمخالفةِ الكتاب والسنة، وقول المرء نظام فعله وظاهره نمط باطنه، أجْلُ نضرة الوجوه بنور الهداية، زمام النظرة إلى مفيض العناية.

رقيقة: قال رضي الله عنه: دست المشافهة مع الحق الحضور في مجالس القرآن العزيز، وغنيمة الحضور التدبر، وبركة التدبر الأخذ بما أتى به الرسول، والانتهاء عما

نهى عنه، والسلم الأطول لتلك المعاني الرفيعة صدق المحبة بالإجلال والتعظيم للنبي العظيم ﷺ.

رقيقة: قال رضي الله عنه: تهجم أهل الأغراض من المتفقهة وتبعهم المتقشفة فأغلظوا على السادة الصوفية، ردُّوا أخبارهم وأنكروا أذكارهم، وكل ذلك بغيٌ وفيه هدم لجدران الحال النبوي، وسد لباب الفتح المحمدي، والحق يقال يرد ويجحد ما أدخله زمر الشطَّاحين، وأصحاب الدَّعاوي وأرباب الخوض والقول بالوحدة المطلقة والحلول وأمثال ذلك من الطامات على طريق القوم ونسبوه للأكابر من رجال الطائفة وكله مكذوب عليهم، وهم مُبرَّؤُون منه بعيدون عنه، فسلم للقوم سليم أحوالهم، وتباعد عن الشطَّاحين وأهل الدعاوى العريضة والمخلطين وأقوالهم، وقف مع الحق والله نعم المعين للمُحِقّ، وكفى بالله وليًا.

رقيقة: قال رضي الله عنه: لا تأخذ أحدًا بالشبهة فإن الأخذ بالشبهة انقياد لأحقاد النفس، وانحطاط عن مرتبة الصفاء، والظن الحسن بالناس، وأخو المروءة لا يسقط إلى وهدة البله ولا يرتفع إلى قمة البغي، طريقه وسط ومن توسط ما خبط ولا سقط والله ولي المتقين.

رقيقة: قال رضي الله عنه: العلم مهذب، والعقل مؤدب، والشرع نور، وإلى الله تصير الأمور.

رقيقة: قال رضي الله عنه: قف مع العقل فيما يوافق العلم، وقف مع العلم فيما يوافق النص، ولا تَرَ الفوقية لعقلك فكم للعقل الوسيع من هفوة، وإذا أُبْهِمَ عليك حُكم النص فاتهم عقلك واسأل الصالحين أهل العلم الصحيح واليقين. قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: الآية ٤٣].

رقيقة: قال رضي الله عنه: كتاب الله معدِنُ الحكم ولكن من وقف برأيه مع ظاهر مفهومه من غير علم منصوصٍ سقط والعياذ بالله في وهدَة الهلاك، بل عليه أن يأخذ حكمة أحكامه من سنةِ المفسر الأعظم، نبي الرحمة سيدنا وسيد العرب والعجم محمد ﷺ، وسنته أيد الله مجدها، مفاضة إلينا بالوسائط العالية الصادقة من الآل والصحابة والتابعين وأئمة الدين، فإجماعهم حجة وطريقهم محجة قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: الآية ١١٥] فالموفق متبع غير مبتدع يقف في الأعمال المفروضة والمسنونة مع النصوص بالعموم والخصوص وفيما أبيح في حضرة

الإطلاق ومن شاد الدين غلبه، المؤمن لا يحجر على العادات المباحة ولا يغلظ بالنصيحة ولا يكفر بالذنب ولا يندفع على أخيه بإفشاء العيب، ولا يحكم بالظنون ولا يكفر الجميل قلّ أو جلّ، ولا يتملّق في الدين، ولا يكون خصيمًا وظهيرًا للخائنين، ولا يكثر التشدق متقشفًا، ولا يفلت حبل الحق خاملًا، ولا يرجع إلى رأيه، ولا يهين الحق وأهله بمجرد فهمه، ولا يعدل عن الحق إذا ظهر له ولو على لسان عبده، ولا يأخذ بالعصبية فيطمح إليها تعززًا بأبيه وجده وقبيله ومجده، فإن تلك من خلال الجاهلية الأولى ولا يجحد الحقوق، ولا يعمل بالعقوق، ولا يحقر الآدميين، فإن مطلق الآدمية، محل التكرمة الإلـهية، ولا يزلق بإهمال أمر الدين لأجل الدنيا فذلك الخسران المبين، ولا يكون فظًا غليظًا لا في دينه، ولا في أدبه، ولا في قوله، ولا في فعله، وإذا غضب جعل غضبه لله لا لنفسه ولا لحظه، وإذا جادل جعل جداله دائرًا بين جِذَاريَ الحكمة والموعظة وأورد جمله بلسان النصيحة والمحبة، لا يَثب كالحيوان المفترس، يلين القول ويحسن التعبير، ويأتي بالحُجَة البيّنة ويظهر بالحكمة البالغة، ولا يجحد أن يظهر مطلقًا بل يجهد أن يظهر له الحق ويصير معه.

رقيقة: قال رضي الله عنه: من يعجز عن الإبداء يعجز عن الإعادة ومن كانت له القدرة المطلقة في الإبداء لا تتقيد قدرته في الإعادة قال الله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [قٓ: الآية ١٥] الآية. وهذا السر اللطيف مدرك بالعقل، والعقل كما قال أمير المؤمنين سيدنا علي المرتضى كرم الله وجهه وأتحفه بجليل رضوانه وسلامه: لإقامة رسم العبودية لا لإدراك الربوبية.

رقيقة: قال رضي الله عنه: النفس الصنم الأكبر فلا تعبدها بمتابعتها، وتذكر دعاء سيدنا الخليل إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٥]، وقد فسّر هذا السّرّ بنص: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: الآية ٤٣]، فكن ممّن أشير إليهم بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّازعات: الآيتان ٤٠، ٤١].

رقيقة: قال رضي الله عنه: قمت بمحض الفضل الإلـهي قريع الدهر، ومختار العصر، وكنت قيض بيضة البيت الفاطمي وغرقيها وأخذت النمط الأصوب من مشرب الآل وما مرت ساعة إلّا ولي فيها تُهتَانٌ سَحّاح، وقمر وضّاح، ومَندُوحةٌ في المشعب وفلج في المذهب، لا أكترث بالمستعارات، ولا ألتفت إلى الفانيات، وأنا في حضرة زهدي الأغر الأنوف، جمعت الشيبة بالحق على الشيب ولم أقل هذا تقريضًا لنفسي، ولا إعجابًا بشأني، وإنما أتحدث بنعمة ربي، وقد فتحت لي والحمد لله تعالى أبواب

خزائن العلم، والمدد الفياض بمحض الوهب الإلـهي فلم أرَ إلى الحق طريقًا ولا إلى الصواب مشعبًا أقرب من الذل لله تعالى والانكسار والتسليم له والافتقار والتحقق كل التحقق بسنة النبي المختار، وطرح الأغيار، والإقلاع عن الغرور والاستكبار، ولا بِدَعْ فالعجب فضلة من الحمق، والكبر ينشأُ عن أثر ذلة في النفس يريد صاحبها سترها بإظهار عجة الكبر وإنها لفاضحة ومثلبة قادحة ومصيبة فادحة وقد ذهبت بكلّي إلى ربي معرضًا عن الميسرة والإملاق والمباراة والمماراة والبؤس والرخاء والقر والحر والأمل والوطر والتمائم والغنائم، فإذا أردت سلوك الطريق الحق فارفع إلى ربك وطرك واجعل إليه سفرك وحضرك واكتف بالمسكة من العيش، فإن القناعة كنز لا يفنى، وإن أحسن إليك ربك بالزيادة من المال والعيال فاشكره واذكره، ولا تنقطع بالنعم عن المنعم، ولا تستعن بالنعمة على المعصية، واجعل ولهك فيه سبحانه وإليه، وتوكل في كل أمورك عليه، ولا تعبأ بكافر بِرّ أو جاحد خير فإنه وقيع حفرته، وذبيح شفرته، ودع الكاذبين والمنافقين، وكن مع الصادقين والصالحين، والحمد لله رب العالمين.

رقيقة: قال رضي الله عنه: الروح جبريل عليه السلام، وكلمة الروح وكلمة جبريل بحساب، أباجاد عددهما واحد وهذا وإن كان لا يعتبر إطرادًا غير أنه عند الحرفيين لا يخلو من فائدة، وعند العارفين إن وافق حقًّا وطابق صدقًا كان معتبرًا وإلا فلا، وهذا هو الصواب، وفي هاتين الكلمتين فالوفاق في العدد وافق الحق وطابق الصدق فإن كلمة الروح عددها ٢٤٥، وكلمة جبريل عددها ٢٤٥ فالروح المطلقة المتنزلة من عالم الأمر للنوع الإنساني هي روح الله يؤيد ذلك قوله تعالى في آدم عليه السلام: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: الآية ٢٩] ومنها الروح المتنزلة إلى مريم عليها السلام بنفخة جبريل عليه السلام، وهي التي قامت بنشأة عيسى عليه السلام، وهذه النشأة الروحية نراها تبرز في كثير من المواد المجزأة من أصناف الذرات المخلوقة، فجحد القدرة في هذا المقام كفر انشق عن جهل قبيح ورفع الأمر إلى مرتبة الألُوهية، وجعل المخلوق عين الخالق أو منه تجزيئًا هو أيضًا جهل دافع إلى الكفر لا محالة والحق بين القولين والله تعالى منزه في قدسه عن أن يجزأ منه شيء أو أن يكون عين شيء، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص: الآيتان ٣، ٤]. ثم قال شيخنا رضي الله عنه لطيفة أورد بعض ظرفاء الفضلاء لغزًا في أم الكتاب فقال:

وأم لـم تلد ولـدًا وليست بأم الرأس يعرفها اللبيب

وأُم الرأس نهايةُ الجبهة.

رقيقة: قال رضي الله عنه: عد أهل النظر المشايخ الجهال الذين يتصدرون للإرشاد بين العباد بمجرد الدعوى في الصبيان، ومنهم من عدهم في النساء، وذلك لنظر حسن فإن الصبي لجهله يهجم على النار ويريد السقوط في البئر، والنساء لشهواتهن يرتكبن كل محظور، والمشايخ الجهال وأرباب الأطماع الفاسدة منهم يهجمون بغيهم وبهتانهم على نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ويكذبون على الله والناس ويتبجحون بالشطحان المكذوبة على الأكابر، ويقولون بالحلول والاتحاد ويزلقون بعباد الله إلى الغَيّ والفساد ويقَدّمون ويؤَخرون ويفاضلون بين الأولياء بغير ميزان شرعي ولا نص مرعي، ويخوضون بحار الدعوى بعزم الزور والبهتان وخدع الشيطان، فما أولئك إلا إخوان الشياطين وقادات المجانين ولا عدوان إلا على الظالمين ولطيف قول القائل:

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما رأي النساء وإمرة الصبيان

رقيقة: قال رضي الله عنه: المرشد سفير الحق إلى الخلق، والسفير الرسول المصلح بين القوم وقد سمي سفيرًا لأنه يسفر أي يكشف ما بين القوم من العداوة، والمرشد يصلح الناس ويذكرهم بالله وبأيام الله ويدلهم بالشرع المنير على الله ويهز الهمم بالحق إلى الله، فإن فعل ذلك فهو مرشد وإن جمع الناس على باطل كشطح أو قول بحلول أو اتحاد أو تبجح بدعوى أو قام يكذب على الله وعلى أوليائه لغرض في نفسه فهو مفسد ليس بمرشد، وتوضع كلمة الإسفار للبشر والبشاشة ومن هذا المعنى حديث سيدنا العباس عم رسول الله ﷺ فإنه قال كما رواه عنه الإمام النوفلي رحمه الله في كتاب الأخبار بنص: كنت عند رسول الله ﷺ إذ أقبل علي بن أبي طالب فلما رآه سفر في وجهه فقلت: يا رسول الله إنك لتسفر في وجه هذا الغلام فقال: «يا عمّ رسول الله والله لله أشدّ حبًا له مني لم يكن من نبي إلا وذريته الباقية بعده من صلبه، وإن ذريتي بعدي من صلب هذا، إنه إذا كان يوم القيامة دعي الناس بأسمائهم وأسماء آبائهم» وفي هذا الحديث الشريف إشارة لما نص في آية المباهلة من قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٦١] تشريفًا لقدر الإمام المرتضى رضوان الله وسلامه عليه. وقد كان سيدنا الإمام السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنه وعنا به يقول: الانحراف عن الأمير المرتضى سيدنا علي كرم الله وجهه وأكرمه برضوانه وسلامه من سوء القضاء والعياذ بالله والنبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهمّ إني أعوذ بك من سوء القضاء،

وجهد البلاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء»[(١)]. وإنما القلوب بيد الله تعالى يقلبها كيف يشاء فإذا صدم القدر قلب عبد فلفته عن محبة الأمير وأولاده فقد جره والعياذ بالله لسوء القضاء. ومن دعائه عليه الصلاة والسلام: «اللّهمَّ يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» وما الانحراف عن آل النبي ﷺ إلا من العقوق لجنابه الرفيع عليه أكمل الصلاة والسلام، وذلك من علامات الشقوة الصريحة، والحب للآل الكرام عليهم وعلى آبائهم التحية والسلام من علامات السعادة في الدارين والموفق الله سبحانه.

رقيقة: قال رضي الله عنه: أُسّس هذا الدين المحمدي على النفع العام للذرات كلها والسيف فيه لمنع أذية المؤذين ولحفظ الأمن الأتمّ للمخلوقين، فمن وقف عند حدود الله غير آثم ولا عاد فلا جناح عليه، ومن راح يتعدى حدود الله فعلى الأمة إرجاعه إلى حده وإلزامه بما ألزم به الله لعبده والأمر لله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رقيقة: قال رضي الله عنه: ذو الحصاة أعني ذا الرزانة والعقل لا يندفع إلى الشر مهما أمكنه الوقوف عنه يظن كل عقدة أنشوطة يستسهل بالحكمة والطرق اللينة حلها إلا إذا وقف الإمكان، وظهرت الاستحالة للعيان، أخذ للحال بما يجب له، على أن ذَا اللب يبرز بحال الهم لدفع الهم وهو الفتى القوي، وليس بالعاقل من استزلق برأي كل زالق، وتبع كل ناعق، وأكثر الناس خسرانًا، السريع الهجمة على الشر فإن بدايته ليست بمصونة، ونهايته ليست بمأمونة، والرابح من انجمع عن السوء وأسبابه، وتباعد كل التباعد عن الشر وأبوابه، وصان شأنه عن أن يهرف بما لا يعرف وأن يقدح ولو صحح، وكان عفيف الدخلة شريف الخلة يبوء لله بنعمته عليه، يصل الرحم ويؤدي الأمانة ويبعد عن الخيانة ويلتحف العفة والصيانة ويلين العريكة ويرحم الخلق على طبقاتهم واختلاف أجناسهم ولغاتهم، إذا ندبته همته إلى الشر جاد لها مليًا، وإذا استنصر في حاجة قدم الحق فجعل الله له نصيرًا ووليًا، وإذا حاور وحاضر أتى بالحجة منتصرًا للحكمة الحقة لا للغاية والبغية، يحفظ ناشئة الليل، ويصون خواطره من الزلق والميل، وإذا غبار الوقت شغله وألهاهُ تذكر فقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: الآية ١٦].

رقيقة: قال رضي الله عنه: المُتَلَافِ لله بوجوه البر يريد رضاءَ الله بنفع الخلق ليس بمغبون بل هو في غنى ولو زحزح إلى الخصاصة واللمام بطرق الحيلة الذي

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٠)، وابن حبان (٣/ ٢٩٤)، والنسائي (٨/ ٢٦٩، ٢٧٠).

ينسى الله ويسيءُ للخلق ليس بغني ولو تربع في منصة الثروة، يشهد لذلك قول أمير المؤمنين سيدنا الإمام علي المرتضى كرم الله وجهه ورضي عنه: القنية ينبوع الفتن.

رقيقة: قال رضي الله عنه: إذا ابتليت بصديق سيىء الخلق فاصبر عليه فهو عدو نفسه، ومن كان عدوًا لنفسه لا يكون صديقًا لغيره، ولو سمى نفسه صديقًا، وإنك بالصبر تجد لك مندوحة منه فإنه هو يفارقك، وإذا فارقك بسائقة سوء خلقه وخبث نيته فاحمد الله، وفي كلام الأمير المرتضى رضوان الله وسلامه عليه «مَن لاحاك فقد عاداك» والتلاحي: التنازع ومتى كان المرءُ كثيرَ النزاع فهو عدو، غير أنه قليل العقل وشره عليه أكثر من شره على رفيقه أو صديقه، وما لضيق القلب صديق ولا لسيىء الخلة رفيق، ويقال من التعذيب تأديب الذيب فلا تطمع بإصلاح من ساءت فطرته وقبحت سيرته، وظنك به الخير مين فاضرب بمودته الحائط ولا تنس قول القائل: من استرعى ستر الذئب فقد ظلم.

رقيقة: قال رضي الله عنه: من لم يكن قادرًا على إصلاح نظام الدنيا لا يكون كامل الاقتدار في إصلاح أمر الآخرة، وإنما الرجل الكامل الجامع بين الأمرين. قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠١]، وقال حبيب القلوب ومفتاح خزائن الغيوب ﷺ: «ليس الرجل رجل الدنيا أو رجل الآخرة بل الرجل رجلهما» وفي كلام شيخنا سلطان الأولياء علم الله المنشور السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنه: كل أخ لا ينفع في الدنيا لا ينفع في الآخرة، والمحمدي الطراز والحال يكون رجل الأمرين ومظهر النفعين.

رقيقة: قال رضي الله عنه: الوارد كاللغز إذا حل فهم وزال إشكال المستشكل فيه، ومثال ذلك واقعة سيدنا موسىٰ مع سيدنا الخضر عليهما السلام، فإن الخضر لما أتاه بتأويل ما لم يستطع عليه صبرًا سكن روعه وطابت نفسه صلوات الله وسلامه عليه فكانت محنة نبي الوقت كليم الله على نبيّنا وعليه أجَلُّ صلاة الله وسلام الله واردًا من واردات الغيب، ولما كان مورده الغيب القدسي لم يشهد معناه وهلة ولزم الإيمان به ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: الآيات ١ - ٣]، ووارد الغيب لم يفقه معناه ولا يكون مخالفًا للنصوص البتة، ومتى فسر الوارد وشرح سره اتضح أمره وزال الإشكال والشطح لما كان من التجاوز والتزحزح، ومن آثار النفس ورعونة الخواطر كان مخالفًا في منطوقه ومفهومه للنصوص، ولذلك أجمع أهل الكمال من أهل الله على أن الولي لا يكون حالة

الشطح وليًا عند الله، وتفسير ذلك أن الولي حالة الشطح كالنائم فهو أعني النائم وإن كان عاقلًا فإنه في حالة نومه منسلخ عن مرتبة القيام بما يقتضيه العقل فلا يكون مكلفًا حالة النوم بما يكلف به حالة اليقظة، ومرتبة الشطح مرتبة نقص على كل حال وبين مرتبة صاحبها ومراتب أهل التمكين أهوال، ولا عبرة بما يصدر على لسانه من الأقوال ولا بما يصدر عنه من الانفعال، وحاله حال سكر لا يؤاخذ به ولا يقتدى به فيه، وبهذا البيان تعرف الفرق بين الوارد والشَّطِحْ، وقد كان جماعةٌ من الأكابر رضي الله عنهم لا تنحط هممهم إلى منزلة الشطح بما يشارفهم من ضغطة الحال، وأصحاب المقام سموا عن هذه المرتبة فلا تزال هممهم ترقى إلى منار السعد من بحبوحة الشرع الكريم لما حصل لهم من فرجة المقام، فذو الحال متلون وذو المقام متمكن والله حسبنا ونعم الوكيل.

رقيقة: قال رضي الله عنه: قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٩] نص فرقاني يفيد أن المعاني تبرز بصفة الصور في غد لإقامة الحجة ولله الحجة البالغة، ومن هذا تفهم فهمًا لا ريبة تخامره أن هذا الكلام الذي ينقش على أثواب الهواء ويحفظ في خزانة الفضاء، مصان برقيب عتيد لديه بحكم ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾ [ق: الآية ١٨] هو أيضًا سيبرز صورة ترى جبهتها وتسمع لهجتها وكذلك بقايا الأعمال فإنها ستبدو صورًا، ولذلك قرأ الأمير الكرار المرتضى سلام الله عليه ورضوانه: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النحل: الآية ١١١] بفتح الدال من تجادل المكسورة على قراءة غيره، ومعنى هذه القراءة الشريفة أن النفس الشهوانية تبرز صورة عن النفس التي هي الهيكل كما عبر على ذلك النظريون، فإنهم عرفوا أقسام النفس وأحسنوا التعريف فإن قلت: غلبتني نفسي، أشرت إلى شهوتك وإن قلت: ربّ احفظ لي نفسي أشرت إلى روحك أو قالب جسمك وهكذا أقسام النفس. وهذا مفهوم النص الفرقاني أعني قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ﴾ [الكهف: الآية ٤٩] ويفيد معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٩] أي بإبراز صورة لم تكن من عمل العبد تشهد عليه وتعزى إليه والله بكل شيء محيط.

رقيقة: قال رضي الله عنه: جهل العالم أغلظ من جهل الجاهل، لأن جهل الجاهل يزول بالعلم وجهل العالم يغلظ بالعلم، أعني إذا وقف مع رأيه ولم يرجع إلى الصواب وإن خالف رأيه وباين فهمه ولهذا السر جاء في كتاب الله: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: الآية ٧٦] فالعالم إذا وقف في مفهومه عند رأيه ولم يطلب من

هو فوقه ليصل إلى الصواب سقط إلى وهدة الخطأ وزل وربما انحرف والعياذ بالله وضل، وكذلك جاء في الخبر عن النبي الصادق الأبرّ ﷺ: «إن من العلم لجهلا»(١) وفي كلام حكيم الأولياء وسلطانهم سيدنا الإمام السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه «ربّ علم ثمرته جهل وَرُبَّ جهل ثمرته علم» ألا تبصر أساطير من سلف وما وقع للمعتزلة والقائلين بخلق القرآن والفرق المعلومة من أهل الأهواء كيف خبطوا بعلمهم لما وقفوا مع آرائهم فزلوا وضلوا السبيل وحسبنا الله ونعم الوكيل.

رقيقة: قال رضي الله عنه: لا تعتبر كلمات الصوفية المنقولة عنهم إلا إذا وافقت مضامينها سنة النبي المكرم ﷺ ولم تباين سيرة آله الأعيان وأصحابه نجوم العرفان عليهم أتم التحية وأجل الرضوان، وإذا رأيت في كتبهم كلمات عزاها إليهم عاز، فاعرضها على الكتاب والسنة وقسها على سيرة السلف الصالح إن كانت من الأقوال أو من الأفعال، فإن وجدتها موافقة للكتاب والسنة أو مطابقة لسيرة السلف أو قابلة للتأويل الحسن الذي لا يصادم حكمًا ولا يعيي فهمًا ولا يوقع في القلب ريبة فاقبلها وإلا فردها على قائلها ونزه القوم أهل الله عن الذي يسنده إليهم أرباب الهفوات الكاذبة والمقاصد الخائبة، وتحقق بالأدب معهم فهم طائفة حق لا ينحرف أحدهم عن الحق والله المعين.

رقيقة: قال رضي الله عنه: لا دليل على عظم منزلة الولي أدل من الأخلاق الحميدة، فإنها علة البعثة المحمدية الطاهرة بدليل قول المصطفى الأعظم ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» فإذا رأينا الرجل العارف متخلقًا بالخلق الحسن المحمدي وهو خفي المظهر، وآخر من العارفين دونه في الخلق وهو ظهوري المظهر نرجح صاحب الخلق الكامل على الآخر بلا تردد، والحق بيّن وإن لم يختلف في هذا من القوم اثنان، وفي كلام الإمام السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنه وعنا به: التصوف كله خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف، والخلق معراج السر فإن الضيق الخلق لا بد وأن يكون ضيق حظيرة السر، وحينئذٍ يكون عروج سره في مقامات الكمال ضيق الخطوات، والخلق الحسن هو أن يكون العبد ريض القلب نير السر رحب الصدر غير فظ ولا غليظ يقول حقًا ويحكم عدلًا، يرحم الصغير ويوقر الكبير ويكون مع الحق حيث كان، لا يهدم للشرع الأنور جدارًا ولا يرفع للباطل منارًا ولا ينصرف إلا لطريق المتابعة المحمدية في الأقوال والأفعال لا تميحه العصبية هكذا

(١) لم أقف عليه.

وهكذا متى صرعه الحق انصرع له ولو جرى على لسان رقيقه ومملوكه والملك لله ولا حول ولا قوة إلا بالله. والحق أقول هذا الطراز في الأولياء رضي الله عنهم طراز الإمام سيدنا السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنه فإنه قد سلك في الأخلاق طريقًا صعبًا لم يسلكه غيره، وقد سبق به السابقين وأعجز اللاحقين، ولذلك أجمع القوم على تقديمه في مرتبة الغوثية الكبرى وعدوا مقام سلطنة الولاية آية في شأنه وهو بلا ريب إمام الدوائر وسلطان الحظائر وشيخ البادي والحاضر وملحق عجزة الأصاغر بأقوياء الأكابر والواحد بين أولي المقامات في جميع الخصائص والذي قيل فيه أنه متمم كل ناقص، والجهبذ الضخم السلسلة والفرد المتفق على أنه شيخ من لا شيخ له وصاحب اليد ورب البرهان المؤيد والمدد الذي لا يجحد والعلم الرباني المطمطم ومحبوب جده المصطفى ﷺ.

رقيقة: قال رضي الله عنه: الجلال ظهور آثار الغلبة والهيبة والكبرياء والسلطان والقدرة والقبض في جميع الشؤون، والجمال ظهور آثار الرفق واللطف والسكينة والحنان والنعمة والرحمة والرأفة والبسط في جميع الشؤون، ومن هذا المعنى حكم الحديث الشريف الذي أورده عين القضاة الهمذاني رحمه الله في كتابه «زُبدة الحقائق» من طريق أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ونصه: «يا أبا ذر إن الله جميل يحب الجمال» وقد جاء من طريق أُخرى بغير خطاب أبي ذر مصدرًا بلفظ: «إن الله جميل»[(١)] الحديث. ويشاكل هذا الحديث الشريف قوله صلوات الله وتسليماته عليه: «إن الله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده»[(٢)] لكونه سبحانه وتعالى يحب ظهور آثار الجمال في ملكه وملكوته ولا يعطل سلطان الجلال، لأن الجمال إمهال والجلال إنذار وبينهما لا إهمال، وقد وهم بعض القصاصين فزعم أن الحديث ينحصر معناه في جمال الصورة الآدمية وذلك من الأغلاط السقيمة. فقد يرى جمال الصورة الآدمية في المردود الفاجر وعكسها في المقبول الطاهر، والحكم هناك لباطن السيرة لا لظاهر الصورة، وأما إن وافق ظاهر الصورة باطن السريرة بالجمال المرضي والرونق البهي فهو يعدّ أيضًا من النوع المحبوب المنوّه عليه في حديث: «إن الله جميل يحب الجمال» وقد قيل إن حسن الصورة، كثيرًا ما يوافق حسن السيرة ومن هذا المعنى ما ورد في الخبر الأطهر: «اطلبوا الخير

---

(١) رواه مسلم (١/ ٩٣)، والترمذي (٤/ ٣٦١).
(٢) رواه الترمذي (٥/ ١٢٣)، وأحمد في المسند (٢/ ١٨٢).

عند حسان الوجوه»[1] وإلا فمطلق حسن الوجه لا يدخل في مفهوم الخبر الكريم ويقال ولم ينفع الشبان حسن وجوههم إذا كانت الأخلاق غير حسان فما كل مخضوب البنان بثينة ولا كل مصقول الحديد يماني.

رقيقة: قال رضي الله عنه: القدر سر من أسرار القديم لا يصل إلى كنهه عقل الحادث، ولذلك زلق بعض المتفلسفة فأنكروا القدر وقال شاعرهم:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

والحال أن الحكمة الحقة والمعرفة الصحيحة تقضي طبعًا بالإيمان بالقدر كل الإيمان، والإيمان بالقدر لا يتضمن ضياع الفرصة كما فهم قائلهم، بل الإيمان بالقدر يلزم باغتنام الفرصة كل الاغتنام لعل سر القدر يسعف وتأتي الفرصة بالمطلوب مع اعتقاد الفعل في الكل للقدير القاهر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وكم من فرصة أنتجت أعظم غصة، والحكيم المحمدي العاقل العالم العارف يقف بين القدر والعقل لا يهمل القدر فيضل ولا يهمل العقل فيزل، يأخذ بالتدبير ويستكشف به سر التقدير فإن انبلج له نور ذلك السر مشرقًا معينًا أعمل التدبير كل الإعمال واستعمله في دقائق الأعمال، وإن ظهر له ذلك السر من سجف القدر معارضًا لما هو يتطلبه فيكون مع القدر، فإن معارضة الأقدار من جواذب الأكدار وأقول:

وإذا الأمور تقاربت لأوانها حلّت عرى الأقدار بالأقدار

ومن هذا تفهم أيها الولد الصالح والوارث الفالح إن شاء الله، أن أسرار القدر لما كانت فوق مدرك العقل فلا يبسط الحكيم المحمدي يديه ويمد رجليه ويزعم التسليم بإهمال التدبير وإذا دبر وطول وقصر لا يزعم القدرة في النتيجة، بل يسعى ويرد الفعل للفعال المطلق الذي له الخلق والأمر وهو بعد السعي والتدبير على كل شيءٍ قدير وإليه المصير وقد قرأ الأمير الكرار كرم الله وجهه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم: الآية ٣٩] وَالإلُ الألوهة وقرأها أيضًا كما قرأها الجمهور بلفظ «ألّا» وقال: بالحكمين وأوضح السرين والأمر بين الأمرين ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

---

(١) رواه إسحٰق بن راهويه في مسنده (٣/ ٩٤٧)، وأبو يعلى في مسنده (٨/ ١٩٩)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٢٤٣)، والطبراني في الكبير (١١/ ٨١)، والقضاعي في الشهاب (١/ ٣٨٤، ٤٠٧).

رقيقة: قال رضي الله عنه: جاء في الأخبار الشريفة: «إذا ملئت المعدة خرست الحكمة»[1] فقد عُدّت الحكمة بذاتها ناطقة بمقتضى هذا النص المبارك، وفهم أن لسانها الجوع غير الجوع المفرط يفهم ذلك من قوله: «إذا ملئت المعدة» ويعلم من نظم هذه الجملة المباركة أن الشبع مخرس للحكمة، فالعارفون بالله لا يملئون المعدة بالطعام حتى تخرس حكمتهم ولا يفرطون بالجوع حتى تضيق بالسأم منه حظيرتهم بل يأخذون بحكم قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: الآية ٣١]، ولم يكن في الدين المحمدي من حرج والحرج لم يزل مع الإفراط والتفريط، والعاقل العالم المحمدي لم يبرح في البحبوحة الوسطى، فإذا تريضت أيها الولد المبارك فلا تجعل في رياضتك ما يسئمك من جوع، وإذا خرجت إلى ساحة العادة فلا تجعل من عادتك ما يتخمك من شبع، ولا تجعل حظّك بطنك فإنه شرّ وعاءٍ ملأته، وقد ترى أن القوم نصوا على الجوع وحذروا من الشبع ولكن لا تزلق فتفهم أن قصدهم الجوع المفرط، فإن حكماءهم وعرفاءهم رضي الله عنهم بلغوا الدرجة العالية في العلم النبوي، والنبي ﷺ لم يأمر بما يسئم ولا بما يبطر وإنما هو سيد الحكماء الربانيين وعين العقلاء الإلـٰهيين وأعلم الأنبياء والمرسلين وقد جاءَ بالحكمة البالغة، وغاية الحكمة المحضة التوسط في كل حال وبالتوسط سكون النفس وراحة القلب وهدأة الجسد وبذلك تطيب العبادة يؤَديها المرء منشرح الخاطر ريض الفكر، وإلا إذا أفرط في الجوع سئمت همتهُ وضاقت حظيرته وانحط عن طيب الخاطر ورياضة الفكرة، وحينئذٍ عدم العبادة له خير من العبادة التي يسأم بها وكأنه والعياذ بالله يمن بعمله على الله وإن الله لغني عن العالمين، وإذا أفرط بالشبع قام مخبطًا يلهث كالثعبان تغلبه قسوة النفس الشهوانية فلا يرتاض طبعه ولا تتجرد تجرد الحكماء الربانيين همته. وإذا كان في المرتبة الوسطى بين الإفراط والتفريط وقف مع الآدمية برتبتها اللائقة لها، وهذا الجوع المقبول الذي أشار إليه القوم ونص عليه في خبر «إذا ملئت المعدة خرست الحكمة» وأطلق فيه الأمر بنص قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: الآية ٣١] فتدبر وكن سالكًا حكيمًا وعارفًا عليمًا ولا تخرج عن منهاج الشرع الأنور مقدار شعرة، وهنالك تعلو منزلتك وتنير حكمتك وتنظم في سلك العارفين والله ولي المتقين.

رقيقة: قال رضي الله عنه: يعرف الكامل بكلامه والعاشق بتفجعه وآلامه والمحب بحاله وغرامه، وإذا جمع العارف بين الكمال والعشق والمحبة وبدت عليه

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٦٧).

آثار تلك الخلال وآيات تلك الأحوال وقف معها مكينًا وصان سرها أمينًا ويقول الجنيد رضي الله عنه:

رق الزجاج وراقت الخمر ... فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنما. خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

فأحكم كلامك ليعرف كمالك، وصن تفجّعك وألمك لتعرف في العشق هممك، واكتم حالك وغرامك لتعرف في المحبة أقدامك وإلا فإذا لم تحكم الكلام تهتك مجد الكمال وإذا لم تصن التفجع والألم تسقط في العشق عن مراتب أُولي الهمم وإذا لم تكتم الحال والغرام تزل بك في طرق المحبة الأقدام، واعلم أن المحبة تنشأ عن طارق سر إلٰهي يمر على القلب فتارة يمر وتارة يستقر، فإن استقر وخامر معناه الفكر، أخذ يترقى حتى يصير عشقًا وولهًا وجنونًا، هذا إذا كان في حادث مصنوع ومرئي مطبوع فما بالك إذا كان الطارق في الخالق فهنالك الغنيمةُ الكبرى، والنعمة العظمى وعليك حينئذٍ أن تشكر الله سبحانه وتحمده وتمجده وتذكره وتعظمه وتثني عليه الخير كما هو الحق عليك في غدوك ورواحك وقعودك وقيامك بل ويقظتك ومنامك، وإذا عرفت هذا السر متيقظًا متنبهًا تصان من زلقات الشطاحين ورعونة السكارى وتقف في حالك إلى أن تصل إلى حد مقامك مع الأدب المحمدي والطور المصطفوي من شارقة حكم ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ [النجم: الآية ١٧] وتغدو متبعًا للجناب الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم وإذًا أنت بإذن الله في الآمنين والحمد لله ربّ العالمين.

رقيقة: قال رضي الله عنه: جفاء المحبوب وفاءٌ إن كان على جادة الصفاء إلَّا أن يتخلله فراق، العين المستنيرة بالمشاهدة لا يضرها إلَّا المباعدة ويقال:

الصبر يجمل في الشؤون جميعها ... إلا عليك فإنه لا يجمل

وفي المقام الأول يستشهد أهل الحب بقول مجنون ليلى:

أحب على أيما حالها ... إساءة ليلى وإحسانها

رقيقة: قال رضي الله عنه: إذا أُضِفْتَ إلى القوم وحصلت لك الملابسة معهم فاجعل لك في حال من أحوالك مناسبة صحيحة معهم لتصح لك الإضافة، والإضافة تكون لأدنى ملابسة، ألا ترى أن رسول الله ﷺ سمى أول سور القرآن بعد الفاتحة سورة البقرة كما جاء من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«آيتان من آخر سورة البقرة مَن قرأهما في ليلة كفتاه»[١] ومعنى قوله العالي عليه صلوات الله وسلامه، سورة البقرة أي السورة المشتملة على ذكر البقرة وقصتها العجيبة وهذه التسمية من قبيل تسمية الكل بالجزء الأشهر أو الأغرب الأعجب، وهكذا يقاس في سائر سور القرآن العظيم كسورة آل عمران وسورة الأنعام والكهف، وقال جلة من علماء اللغة: الإضافة هي للملابسة، وقال آخرون: بل الملابسة علة الإضافة وليست هي، والاختلاف لفظي فإذا أدركت حكم هذا البيان أضفت نفسك للقوم الكرام رضي الله عنهم بملابسة مباركة من أحوالهم وأخلاقهم وأطوارهم، أو بشيء من صدقهم وزهدهم وهممهم وعباداتهم، وهنالك تصح الإضافة إن شاء الله إليهم ويَسُحُّ بعون الله عليك من أُفُقِ العناية الربانية من سحاب الرحمة ما يسح عليهم وهم القوم لا يشقى جليسهم.

رقيقة: قال رضي الله عنه: تباعد مهما أمكنك عن الفاجر ولا تجعله رفيقًا لك ولا قريبًا منك فإنك إن أحسنت إليه كفر إحسانك، وإن أحسن إليك أعابك وأهانك، ولذلك فإن المصطفى الأعظم ﷺ كان يقول في دعائه: «اللّهم لا تجعل لفاجر عندي يدًا»[٢] ولا يكون تقريب الفاجر إلّا من حجاب يطرأ على القلب بقسوة أو غفلة، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه أيضًا: «أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والمسكنة»[٣] والعيلة معناها الفقر ولا تفهم أنه أراد بالمسكنة وصفها بل أراد حكمها ليقيم بالقدرة أركان الدين، وإلا ففي دعائه المبارك أيضًا قال: «اللّهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين»[٤] ولا تغفل نفسك بحسن الظن في كل أحد، فإن الشرع بين ونظامه صَيِّن وفي الحديث الشريف: «من حسن ظنه بالناس كثرت ندامته» فتدرب بأمرك كله بتعليم الحكيم الأعظم ﷺ ولا تكن سيىء الظن مطلقًا بالناس فإن ذلك من سوء الحال قال تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: الآية ١٢] فقف في ظنونك كلها بين جداري الفطنة والحكمة ولا تصحب المجهولين البتة، وإذا جربت امرءًا وعرفته حقًّا فلا تهمل حكم معرفتك به ولا تكن

(١) رواه البخاري (٤/ ١٩١٤)، ومسلم (١/ ٥٥٤، ٥٥٥).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (١/ ٤٩٣)، وأورده بنحوه المناوي في فيض القدير (٦/ ٣٥٨)، والعجلوني في كشف الخفا (٢/ ٤٢٦).

(٣) رواه الضياء في المختارة (٦/ ٢٤٣، ٢٤٤)، والطبراني في الصغير (١/ ١٩٨).

(٤) رواه الترمذي (٤/ ٥٧٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٨١)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ٣٠٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٨)، والبيهقي (٧/ ١٢).

صاحب أوهامك ولا مجذوب زعمك وما راق لفكرك، بل كن رفيق الحق والصواب وهنالك وكل آرائك حكمة ونتائجها خير والله الموفق.

رقيقة: قال رضي الله عنه: التحدّث بالنعمة من شرائف الأخلاق المحمدية، وحدّه عدم التجاوز والتزحزح إلى ما لا يصح، وأن لا ينسلك فيه غبار النفس وطلب التفوق على الناس، فإن الإنسانية في نسق واحد وحكم الخلق شامل لكل الذراتِ ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ [الملك: الآية ٣] هذا في نوع المخلوقين، ومن معنى النسق الواحد في الإنسانية قول الله تعالى لنبيه الأعظم ﷺ قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: الآية ١١٠] وأفرده بمزيد نعمته عليه بنص: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠؛ سَبأ: الآية ٥٠] فلم يتعدّ المثلية ولم يكتم النعمة ولم يتجاوز حكمها ولا حدّها فلم يقل أنا أُوحي إليَّ بل قال وقوفًا عند الحد: «يوحى إليّ» وكل ولي محمدي، رب وهب رباني وعلم نبوي يقف عند هذا الحد المحدود ويعمل بهذا العهد المعهود وكم في القوم من أهل البداية من يخطفه حاله ويصرعه إدلاله، فيقول ويصول ويتجاوز الحد وينقض بسكره العهد فيتبجح ويشطح، ولو سكت لكان أصلح وما ذلك إلا من رعونة لها بقية في النفس تشب بالرجل منهم حالة سكره في منزلة وجده فتطمح نفسه للتفوق والتعالي ويخوض بحرًا عميقًا ويظن الفوز فيغدو غريقًا، ومع ذلك فالصادق في سكره منهم لا يؤاخذ بما يصدر على لسانه من شطحه وزحزحته وتجاوزه وإن كان ذلك سوء أدب ونقصًا في الطريق، ولا يقتدي به في كل كلمات شطحه والحق أن لا تدون ولا تنقل لأن الآخذ بها يزل وربما يهلك ويضل وفي الحديث: «طيبوا أفواهكم فإنها طرق القرآن»[1] ولهذا النص الجليل معنيان: تطهير حسّي وتطهير معنوي، فالحسي بالسواك وتنقية الفم وتنظيفه وعدم أكل القبائح من المحرمات أو من نبات الثوم والبصل وعدم شرب ما حرم الله وكله معلوم لأن الأفواه طرق القرآن والقرآن طاهر المعنى حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والتطهير المعنوي بالأدب الكامل يقتضيه اللسان عن كل ما حرم الله تعالى من كفر وكذب وبذاءة ونميمة وغيبة وفساد وفحش وأمثال ذلك ومنها الدعوى الكاذبة وكلمة التفوق والشقشقة بالشطح والإدلال والقيل والقال والتأويل بما لا يراد والقول بالحلول والاتحاد، وكون الأفواه طرق القرآن فلا يمزج فيها الباطل بالحق والشر بالخير والظلمة بالنور، ومن هذا يعرف العارف أن التحدث بالنعمة شرطه التكلم بالكلام الحق الذي لا تدخل فيه الريبة ولا يخامره الزهو

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٨٢)، والديلمي في الفردوس (٢/ ٤٦١).

والغرور ولا يمزج بسكر وغيبة، ومتى خلا عن هذه المزالق وكان عن صحو ولم يلتبس بنخوة نفس وداهية تفوق، كان هو التحدث بالنعمة وقائله يثاب ولا يعاب وعلى هذا فإني أحمد الله وله في كل لحظة وطرفة من الحمد والشكر ما يرضيه ويرضى به عني وعن جميع إخواني المسلمين، فإنه سبحانه قد أمتن فأكرمني بالإيمان وخلّقني بمحض لطفه وفضله بخلق حبيبه روح الأكوان وسيد الإنس والجان عليه أفضل الصلاة والسلام ما كَرَّ الجَدِيدَانُ واختلف الملوان، وقد ألزمني كلمة التقوى وأفاض لي من العلم الوسيع والإحاطة الوافرة بنصوص الشريعة المطهرة وأحكام الحكمة والفنون الكثيرة والمطالب الوفيرة ما يقوم له بالاحترام جحفل الوقت من الخواص ويقعد، وألحقني بخدمة رسوله المكرم الأعظم ﷺ في الباطن والظاهر فقمت والحمد لله شيخ المنهاج الأحمدي والطريق الأقوم الرفاعي نائبًا فيه عن شيخ الأمة الغوث الأكبر والكبريت الأحمر والقمر الفاطمي الأزهر مولاي وسيدي وقرة عيني السيد محيي الدين أحمد الكبير الرفاعي الحسيني رضي الله عنه وعنّا به، وأفاض لي من المدد المحمدي والسر الأحمدي ما أقامني في مرتبة الغوثية الكبرى والقطبية العظمى وارثًا لرسوله ﷺ متحققًا بحاله مطيلسًا ببر كماله، ولم أزل أترقى بحمد الله في معاريج كمالي ومقاماتي وأحوالي إلى أن أحرزت بمحض الكرم رتبة الختمية في منزلة القربى بطي منشور الغوثية والقطبية، وأنا الحكيم العارف العاقل العالم وقد أعطيت عنوان المجد الأوحد بلقب غريب الغرباء وبويعت في الحضرة مرفوع العلم أنعت بهاء الدين، وفي كل لحظة لم تزل تلحظني بركة النظر الخاص بالحنان الأخص من عين روح الأعيان وكنز النجاح والأمان ﷺ، وقد التحفت في مقام الظهور كساء الخفاء وسيبدو فرقدي بعد انطوائي في مرقدي فتدق لي رويدًا رويدًا نوبة الظهور المحمدي في البلاد المعمورة بالمسلمين شرقها وغربها، ومن تمسك بي ورجع في طريقه إليّ يكون بوعد الكرم على لسان معدن الهمم ﷺ أمينًا مباركًا موقرًا مصون الجناب محمي الجانب لا يضره من ناواه ولا يصل بسوءٍ إليه من عاداه مؤيدًا بالله ملحوظًا بمدد رسول الله معانًا من أولياء الله، وقد تنجلي شمس ظهور طريقي وطالعة صبح حقيقتي فتشرق في القيعان والبلدان وتعم الأقطار والأمصار بنور الله وبمدد رسول الله ﷺ ولم يمسها غبار الغرض الدنيوي والقصد المستعار الفاني بإرادة فساد في الأرض ولا علو ولا أمر ولا نهي، بل هي إنشاء الله تجدد للأمة أمر دينها تدل على الله وتسرع بالقلوب إلى الله ومن أسرار الله أن الله أطلعني فرأيت للقرآن العظيم لكل حرف منه نورًا لا يشبه نور الحرف الآخر فعجبت لذلك، فقيل لي هذه الأنوار

معاني الصور الآدمية فهل رأيت صورة عين صورة أخرى من كل وجه فحمدت الله وشكرته وذكرته، وانجلى لي نور قرب محمدي من حضرة مصطفوية بطرز جمال يسهم ذلك الجمال نور جلال والغالب نور الأصل في كل حال ولم يغب سطع ذلك النور عن عيني طرفة عين، وما زالت تبرز لي منه صحائف علوم تتلألأ فيها سطور فنون لم تترك سرًا غامضًا كونيًا ولا معنى خفيًا أو جليًا إلّا وتنص عليه وتبدي بفصيح العبارة وصحيح الإشارة ما أغمض من معانيه، ولسان الأمر يقول اقرأ، فها أنا أقرأ مضامينها وأفهم أفانينها وأنا المقبول الوجه المؤيد المنهاج المبارك القلب واليد، ما أقبل بقلبه علي حيًا كنت أو ميتًا مقبل وأحب وراثي ونوابي وأخذ بزمام ولايتي ونصر لوجه الله طريقي ومنهجي إلّا وكان تحت راية مدد النبي ﷺ في الباطن والظاهر وفي الدنيا واليوم الآخر، وما انحرف عني منحرف وأبغض وآذى وراثي ونوابي أو من أخذ بزمام ولايتي إلا وذاب في عاقبته وحاله وعياله كما يذوب الرصاص في النار وتمجه القلوب وتكرهه الأعين وتلحقه الألسن ويهان ولا يعان ويسقط ولو نطح القمر، وما كُلُّ ذِي دُرَّةٍ عُمَر، هذه بشارة حبيبي في حضرة الكرم ولي مني من يبرز في منصتي عني والعناية قديمة والمواهب الأزلية جسيمة والله نعم المولى ونعم النصير.

رقيقة: كل من انطوى بمنشور طريقي ولو فارق أي طريق كان، فهو في أمان الله لأن طريقي طريق رسول الله ﷺ، الأقوال فيه عقائد والأعمال محامد والأحوال فوائد والمنهج منهج تواضع وذل لله وانكسار ورفق بالخلق ووقوف معهم بنظر المثلية لا الفوقية، وهذا مشرب سيدي علم الله المنشور وبيت الولاية المعمور أبي العلمين السيد أحمد الكبير الرفاعي الحسيني رضي الله عنه وعنّا به، فالزمه أيها الولد ورح برًا تقيًا مباركًا مرضيًا راشدًا مهديًا والسلام عليك وعلينا وعلى عباد الله الصالحين وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

انتهت الرقائق بفضل باري الخلائق آمين

الدُّرَّة البَيْضَاء

تأليف

قطب العارفين محمد مهدي الصيادي الرفاعي الرواس

المتوفى سنة ١٢٨٧هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي ليس الحمد إلا له، حمدًا يوافي نعمه ويكافي مزيده، ويستدر لنا فضله ونواله، والصلاة والسلام على عبده ونبيه وحبيبه ورسوله، شمس سماء النبوة، وزعيم موكب الرسالة، وعلى آله الذين ورَّثهم الله كماله وجماله وجلاله، وعلى أصحابه الذين أحكموا في العوالم أحكام شريعته ونصروا أقواله وأفعاله، وعلى ورّاثه ونوابه وخلفائه ورجال دولته وخدام سُنّته ما التوى غصن البرق وطلعت الغزالة، وصحح معوج عزيمته بسُنَّة سيد أهل العزائم وأحواله.

أما بعد: فيقول العبد المتوكل على الله، اللائذ بباب سيد الوجودات رسول الله، عليه أفضل صلوات الله، ألا وهو المسكين الذي إذا غاب لا يذكر، وإذا حضر لا يعرف ولا يوقر، غريب الغرباء، وأضعف الفقراء والعلماء، بهاء الدين محمد مهدي آل خزام الصيادي الرفاعي ثم الرديني الحسيني غفر الله له ولوالديه، وأحسن بفضله يوم النشور قدومهم عليه، ورحم لهم بمحض كرمه ولطفه وقوفهم بين يديه، والمسلمين أجمعين، إنه الولي المعين.

هذه رسالة مباركة سمّيتها (الدرة البيضاء) جمعت والحمد لله لباب أسرار الشريعة السمحاء، والطريقة الغراء، يبهج بها الصالحون، ويهرع لها طلاب الحق المرضيون، ويصد عنها المخذولون، وما هي إلا آية حق، مقتبسة من كتاب الله، وسنة رسول الله، عليه أتم وأعم صلوات الله، خلصت نقية كاسمها، فاغتنمها أيها المحب اللبيب، فإنها من لطائف النفحات النبوية، ومن عوارف البركات المصطفوية، أمرني بكتابتها وإذاعتها ـ لمن يريد الله به الخير ـ حبيبي ﷺ، فهي منصوصة مخصوصة، جُمَلها جميلة، وكلماتها جليلة، وبركاتها جزيلة، وسجلها كنز فضيلة، وها هي في مجلاها درة بيضاء، ويهدي الله لنوره من يشاء، والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

باب في التوحيد وحقيقة المعرفة بالله تعالى

قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمّد: الآية ١٩]، وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٩١] أمر الله حبيبه ﷺ بالعلم الجامع المحيط الأتم، ليتحقق أنه لا إلٰه إلا الله بعلمه الذي لا يشاب بجهل، وهناك يفقه عن علم مستجمع لجميع رقائق الفهم، وطرائق العقل، وحقائق الإذعان، بالدليل والبرهان، والكشف والعيان، والآثار والأخبار، ثم يترقى إلى ذروة العلم الجامع فيعلم بنور المؤثر لا بمواد الآثار وبإفاضة المعلم لا بترادف الأخبار، وتدرك كل ذرة منه، فيما ظهر له وغاب عنه، أنه لا إلٰه إلا الله، وحينئذٍ يقول: الله، ويذر كل ذي خوض في لجة عماه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وينتهض لاطمئنان قلبه في مشهده الإبراهيمي، وجدله البشري، بما استودعه خالقه في نفسه، فيستدل على عظمة بارئه وسلطان قدسه، ويرى الغائب عنه كالحاضر معه، للأدلة التي لا تنقض، والبراهين التي لا ترفض، خاطره يتنزل إليه من لا مكان، وعقله يأخذ واردات الخاطر فتنطبع فيه صريحة البيان، وبعد أن تحفظ في لوحها وتعيها أذن الفكر يقدر على ترجمتها اللسان، قلم خطاط ولوح محفوظ، وشيء غائب وكأنه مشهود ملحوظ، وهذه الكوامن كالسمع، والبصر، والحس، والشم، والطعم، والكلام، والمنبعثات بالأسباب، منها كالغضب والرضاء، والحزن والسرور، والضجر والنشاط، والهم ورياضة الخاطر، وما يماثل كل ذلك مما هنالك، تفصح عن موجود، بطرز مفقود، ليقول لعقل العاقل، لسان الحكمة القائل: هذه كلها على وجود موجدك براهين، فلا تكن من الضالين، وقل: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعرَاف: الآية ١٩٦] ومتى عرف المرء نفسه بما استودع فيها من الأسرار، عرف ربه فآمن به وأقلع عن الأغيار، واكتفى بتعظيم صفاته، عن خطر الخوض بكنه ذاته،

لعجزه بحدثه عن الوصول إلى جلال سلطانه القديم، وقال لعقله النيّر عند هجوم جنود الشبهات تثبت بالله ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٧]. وبهذا الخط يرتقي من رتبة الإسلام إلى رتبة الإيمان، ثم إلى رتبة الإحسان، ويفهم بعلمه قول سيد خلق الله ـ عليه أجلّ وأشرف صلوات الله ـ: اعبد الله كأنك تراه»؛ ومن عطل فقد ضل، ومن ازدلف بالقول إلى الوحدة المطلقة فقد أشرك وزل، وليس للنجاة من سبيل، سوى ما أتى به النبي ﷺ، وهذا هو كما رأيت، فتمسك به أيها المحب وأنت من الناجين، والله ولي المتقين.

باب في واجبات التوحيد

أشرف واجبات التوحيد: الخوف من الله تعالى، فالذي يوحده سبحانه ويخاف منه ينهى النفس عن الهوى، فلا يظلم أحدًا، ولا يحقر أحدًا، ولا يتكبر على أحد، ولا يطغى بالفانيات، ولا يطيش بالمستعارات، يدور مع الحق حيث دار، ويذكر الله في الحركة والقرار، ويقوم مظهرًا للخير، نافعًا لخلق الله، ذا شفقة عليهم، جالبًا حسبما يمكنه صنوف النفع إليهم، يرى البعيد والقريب في الله سواء، لا يستخفه الزمان، ولا يخدعه بالزائلات الشيطان، واقفًا تحت لواء نص: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحِجر: الآية ٤٢] إن غفل ندم وتذكر، وإن هفا لعدم العصمة أناب واستغفر، يعفو إن تمكن من نفسه عمن ظلمه، ويحسن إلى من أساء إليه، وإذا لم يقدر على قهر نفسه وقف في بحبوحة العدل عاملًا بحكم قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٤] أي تحققوا بالخوف من الله، فلا تتعدوا المثلية، بل ليكن ما اعتديتم به على من اعتدى عليكم مثل ما صدر منه، ومن زاد فقد حاد، وكان من الظالمين، وما للظالمين من أنصار.

ومن واجبات التوحيد:

الانتصار لله، وذلك هو الانتصار **لأوامره ونواهيه، ومعنى ذلك هو الأمر** بالمعروف والنهي عن المنكر، ومتى انتصر **العبد لله، وقام** بذلك خالصًا لوجه الله، ينصره الله، كفل ذلك القرآن، ونص عليه حبيب الرحمٰن ﷺ.

ومن واجبات التوحيد:

الأخذ بما أتى به رسول الله ﷺ والانتهاء عما نهى عنه عملًا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحَشر: الآية ٧].

ومن واجبات التوحيد:

الشفقة على خلق الله كلهم، الناطق منهم والصامت، العلوي والسفلي، ليتحقق قلب العبد بالشفقة حتى على الحيوانات والنباتات والمياه الجارية والنسمات السارية، فلا يريد لذرة كونية إلا الخير إعظامًا لسلطان خالقها جل وعلا.

ومن واجبات التوحيد:

أن تسر العبد حسنته، وتسيئه سيئته، فرحًا بالله وخوفًا من الله.

ومن واجبات التوحيد:

أن تضمحل مقاصد النفس وعوائق الهوى تجاه أمر الله تعالى.

ومن واجبات التوحيد:

سعي المرء بإكثار الحسنات، وإقلال السيئات طمعًا بكرم الله ورهبًا من عظيم سلطانه.

ومن واجبات التوحيد:

التأهب دائمًا في كل لحظة للقاء الله بالعمل الصالح، وتنزيه قدس الله عن الشرك، تحققًا بسر قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠].

ومن واجبات التوحيد:

حسن الظن بالله تعالى في كل حال، فقد جاء في الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي)[١].

ومن واجبات التوحيد:

موالاة من والى الله، ومعاداة من عادى الله، ومن فروع هذا الأصل التباعد عن المبتدعة وأهل الزيغ في المعتقدات، والقائلين بما لم يقبل التأويل من الشطوحات، ومنها أيضًا هجر أهل الحط على الأولياء والصالحين والعلماء العاملين، والبعد عن الخواضين بالمسلمين، والمفسدين ـ الذين دأبهم شق عصا الأمة ـ والمفرقين بين

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٦٩٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١، ٢٠٦٧)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٥١، ٣١٥، ٣٩١، ٤١٣، ٤٤٥، ٤٨٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٤١٦)، (٢٢/ ٨٧، ٨٨، ٨٩)، وفي الأوسط (١/ ١٢٦)، (٨/ ٥٦)، وفي مسند الشاميين (٢/ ٣١٧، ٣٨٤)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٢)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥).

الأصحاب، والناقمين حسدًا على الناس، والمتجاهرين بالمعاصي، والغمازين واللمازين والكذابين وأهل الدعوى، والمنتصرين لأنفسهم على الحق، وأرباب الأغراض، الممتلئة قلوبهم بالأمراض، والناقضين عهودهم، والقاطعين ما أمر الله به أن يوصل، وطوائف أهل الأهواء.

ومن واجبات التوحيد:

النصيحة لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، والقيام بإرشاد كل من المخلوقين، بكل ما يمكن من بذل النصيحة والبر والقول الحسن.

ومن واجبات التوحيد:

الوقوف عند الحدود في الأقوال والأفعال والأحوال، والسير الوسط في معيشة النفس والأهل والعيال، ومن يؤول أمرهم إلى المرء، فلا يبسط يده فيضجر، ولا يغللها فيقتر، ولا يبخل ولا يبذر، ويكون في شؤونه وسطًا ليأخذ من السنة الأدب الواجب عليه، ولكيلا يسلط مؤاخذة الشرع الشريف عليه، ويجلب بالكاد المعيشة إليه.

ومن واجبات التوحيد:

الاقتصاد الشرعي لكيلا ينسخ بالتبذير والقلة حسن حاله مع ربه، والمقتصد أدبه أدب شرعي فيه من البركة النجاح الخالص، في الحال والمال، والله الولي بكل الأحوال.

ومن واجبات التوحيد:

شدّ مئزر العزم بإقامة أركان الدين، بالصدق وصحيح اليقين.

ومن واجبات التوحيد:

حُسْن التوكل على الله تعالى، وحقيقة عدم النظر إلى الأسباب، في كل الأبواب، وعدم إهمالها أدبًا مع الله تعالى، فإنه أعطى كل شيء خلقه، فالاعتماد على الأسباب فشل، والإهمال لها خلل، والصواب الأخذ بها أدبًا، والنظر إلى خالقها دينًا، والتوكل عليه إيمانًا ويقينًا.

ومن واجبات التوحيد:

الرِّضا عن الله تعالى في كل حالة، مع الانتهاض للأخذ بواجبات الشرع المنافية للكسل والبطالة، فإن الله تعالى يكره العبد البطال، ومنه العون في الأقوال والأفعال.

ومن واجبات التوحيد:

هزّ همم المسلمين لصيانة أحكام الدين، فإن النبي ﷺ أنبأنا أن الله يحب المؤمن القوي أكثر من المؤمن الضعيف، وذلك لأن المؤمن القوي يقدر على نصر دين الله، وإعلاء كلمة الله، والضعيف لا يقدر إلا على خويصة نفسه، وبمثله لا تقوم حفلة الدين في الأرض، وقد يرحم الله البعض بالبعض.

ومن واجبات التوحيد:

العزم الصالح في الأمور كلها، لتكون أعمال المرء كلها ناشئة عن عزم صالح، زبدته الإخلاص ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣].

ومن واجبات التوحيد:

الأخذ بالعدل في أمر النفس والغير أدبًا مع الله تعالى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤].

وفي هذا المقدار من هذا الباب كفاية والتوفيق من الله.

باب في معرفة شأن النبي ﷺ

هو محمد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي العربي المكي المدني النبي الأمي عليه أفضل الصلاة وأشرف التسليمات، اختاره الله من خلقه، وأيده بعلمه، واصطفاه لذاته، وصوره من نوره، وبعثه هاديًا لخلقه، فهو عبده وحبيبه ونبيه ورسوله، والرحمة المرسلة، والبركة المنزلة، والنور الدائم، والنوال الساجم، جاء ليتمم مكارم الأخلاق، وليمحق سوء الأخلاق، ومثالب الشقاق والنفاق، وليدل الخلق على الخلاق، وليوقف كل المخلوقين في حضرة الإطلاق، وقد أيده الله فأظهر دينه على الدين كله، وأوصل به الحق إلى أهله، فلن تضل الأمة ما إن تمسكت بسنته، ولن تخزى ما دامت في سيرها وسيرتها على قويم محجته، لم يتجاوز رتبة العبدية ولم يطمح إلى الالتباس بكل وصف له يوصف من أوصاف الربوبية، نزه الله عن مجانسة الحادثات ومشاكلة المخلوقات، وأحكم حِكمة الأدب مع الذرات، وألزم بالشفقة في جميع شؤونات الكائنات، ووسع الناس بأخلاقه الشريفة، وهدم صوامع الغرور والدعاوى الكثيفة، وأفاض نور الله إلى العاملين، وأفرغ سر العلم الإلـهي في طبقات الأمة، فهي تتقلب في موج بحر علمه إلى يوم الدين، وساوى بشرعه بين الأمير والمأمور، وأوقف

صنوف أمته مع الحق لا مع الغرض في جميع الأمور، وتكلم بلسان الحق فأقنع وأسمع، وقال: لن تقدس أمة لا يؤخذ فيها للضعيف حقه من القوي غير متعتع، وهذب بالعلم الإلهي كل من تحت السماء، ووقف تحت لواء عدله الذئب والشاة في حظيرة الأمن سواء، فهو أعقل الأنبياء والمرسلين، وأعلم كبارهم أجمعين، ونبيهم في الطي والنشر، فهو نبي وآدم بين الماء والطين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فالأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام كلهم إخوانه، ألزم بإجلالهم وإعظامهم وإكرامهم واحترامهم والإيمان بهم وبكل ما أتوا به عن الله، وأمرنا عليه الصلاة والسلام أن لا نفرق بين أحد منهم، غير أن شريعته ﷺ لما كانت الشريعة الجامعة لجميع فهومهم، المحيطة بجميع علومهم، التي لم تبدل ولم تحرف، ولم يغير منها نص، ولم يمس أساسها الفرقاني شَيْن ولا نقص، فلذلك كانت ناسخة للشرائع لاستجماعها حقائقها ورقائقها ودقائقها من كل عبادة صالحة وكل حكمة ناجحة، لا يشك بذلك إلا الجاهل والمكابر الغافل؛ وللحق من الحق براهين ودلائل، يعرفها العاقل، ويذعن لها العالم الفاضل، فقل أيها المحب اللبيب بِعِظَم شأن هذا الحبيب ﷺ، ولا تندفع به إلى ما قاله جماهير الأمم المعلومة بأنبيائهم، فجعلوهم لله أبناء، وهدموا من أركان التوحيد بناء، وانحرفوا عن طريق الصواب، وفتحوا من الأغلاط في معتقداتهم أوسع باب؛ والعقل يرد ما انتحلوه، والحكمة تصد ما قالوه، إنما أنبياؤهم عليهم الصلاة والسلام إخوان نبينا صلّى الله تعالى عليه وسلّم في مرتبته، وأشباهه في منزلة عبوديته، كلهم عبيد لله، ولا إلٰه إلا الله، هذا هو الحد في هذا المقام، وكلهم خاصة النوع الإنساني وساداته وكبرائه الأجلاء العظام، أعطاهم الله الحظ الأوفر، وجلالة القدر والمظهر، وأفرغ في شريف قوالبهم ولطيف قلوبهم قدرة من قدرته، فيها صدرت عنهم المعجزات، وسرت منهم إلى أولياء أممهم الوارثين لهم الكرامات، وأجلهم مظهرًا وحظًّا، وأفصحهم نطقًا وأعذبهم لفظًا، سيدنا وسندنا ونبينا محمد المصطفى المكرم صلى الله عليه وعليهم وسلم.

قال شيخ مشايخنا الجد الأمجد الغوث المفرد، مولانا السيد أحمد الكبير الرفاعي الحسيني رضي الله تعالى عنه وعنا به:

لم يخلق الرحمٰن في العالم ... كنور عيني أبي القاسم
من آدم جاء ومن هاشم ... فخرًا لجنس العالم الآدمي

فالكرامات من معجزاته السارية الدائمة في أولياء أمته لم تزل إلى يوم القيامة، وهو حيّ في قبره، منعم في مرقده الأنور الأطهر، وقد تقلب في الساجدين، وأتى نقيًا من الأمهات الطاهرات والآباء الطاهرين، كلهم تنسلوا حرمة لجنابه الكريم بمحض الصون الرباني على نكاح الإسلام لم يشنهم نكاح الجاهلية، وهذا القول هو الراجح أيضًا بشأن إخوانه النبيين والمرسلين أهل المقامات العلية، وكلهم وسائل إلى الله، لهم شفاعة مقبولة عند الله، وأعظمهم وسيلة وأجلهم قبولًا نبينا صاحب الشفاعة العظمى في الموقف القدسي إذ يقول: أمتي أمتي، ويقول كل من الأنبياء: نفسي نفسي، ولأجل وجهه الكريم فلصلحاء أمته وأوليائها شفاعة منصوصة، وبركة قبول مخصوصة، وهم المنصورون ببركة جاه رسول الله ﷺ في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ولهم به ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذه المنزلة عطاء كريم منه الإمداد، وبيده الإسعاد، جلّت قدرته، وتعالت عظمته، إليه المصير وهو على كل شيء قدير، وفي قولنا منه أي من الله تعالى الإمداد إلى آخر الجملة.

فائدة:

تظهر للمتدبر وتلك أن الأمة المحمدية تقول: كلهم بأحقية صدور المعجزات عن الأنبياء صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين، وجماهير أهل السنة والجماعة يقولون: بأحقية صدور الكرامات عن الأولياء رضي الله تعالى عنهم غير أنهم لا يثبتون للكل فعلًا يصدر عنهم باستبداد منهم، إنما أفعالهم تصدر عنهم بإمداد الله تعالى لهم، وهو الفعال الحقيقي، وهو مُظهر تلك الأفعال، ومُهبط تلك الأسرار، كالشمس استودعها الضوء، وكالليل استودعته الظلمة، وكالنار استودعها الإحراق، وكالماء استودعه الريّ، فصدور الضوء عن الشمس، والظلام عن الليل، والإحراق عن النار، والريّ عن الماء، لا يمكن جحوده، ولكن لا ينبغي للمسلم العاقل إلا أن يقول: إن الله سبحانه وتعالى أعطى الشمس الضوء فأضاءت، وأعطى الليل الظلام فأظلم، وأعطى النار الإحراق فأحرقت، وأعطى الماء الريّ فأروى، وكذلك كل المستودعات علويها وسفليها من مضمون خبر: (إن الله أنزل الداء والدواء فتداووا)[1]، فالتداوي بالسر المستودع من قِبَلِه تعالى في الدواء لا بذات الدواء، وكذلك فالاستمداد وطلب

(١) رواه أبو داود (٤/ ٧)، والضياء في المختارة (٦/ ٣٣٠)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٣١، ٥٦)، وأحمد في المسند (٣/ ١٥٦)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨١)، (٤/ ٢٥٤).

الإغاثة والإعانة في مهمات الأمور، وحوادث الدهور من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو من الأولياء عليهم الرضوان هو للسر المستودع فيهم من الله سبحانه وتعالى، فإنه أعزهم وأعطاهم مكرمة، وقَبِلَهم وتولاهم فذواتهم لهذا الاختصاص محترمة، وهممهم لهذا الإيداع مطلوبة مؤملة، والله سبحانه وتعالى يختص برحمته من يشاء، وقد يُرى الرجل العالم المتشرع يأتي إلى الصراف الذي هو من غير ملة، وعلى غير شريعة، ويقترض منه شيئًا من الدراهم لقضاء حاجته، فهل ذلك العالم استرزق الصراف؟ واعتقد أنه يرزقه ويقضي له بما يرزقه إياه حاجة؟ فليس لك أيها العاقل إلا أن تقول: كل ذلك لم يكن، ولكن العالم عَلِمَ أن الله تعالى تصرفت قدرته فاستودعت الدراهم التي تقضى بها الحاجات عند ذلك الصراف، فذهب ذلك العالم للمحل المستودع فيه الدراهم موافقًا للفعل الإلـهي مسترزقًا الرازق الحقيقي في الأخذ من الصراف، ومستمنحًا الكرم الرباني بردّ ما أخذ وقضائه عنه، وحيث أن بضاعة الصراف المستودعة عنده لم تسوَ عند الله جناح بعوضة فلا حرمة ولا تكرمة له في نفس ذلك العالِم، وأما المستودعون علوم الله وأسراره وأنواره وآثار قوته القدسية وبراهين آياته الربانية، فهم مكرمون معظمون محترمون لإعظام شأن ما استودعوه على أنهم مظاهر محبة الله تعالى، ومن يحبه الله تعالى يجب على عباده إجلاله وإعظامه حيًا وميتًا، فإنه محل السّرّ الإلـهي المستودع، ومظهر المحبة الربانية، وهاتان صفتان قدسيتان، وحبل الصفة القدسية لا ينقطع لا بحياة ولا بموت، وإن الله حيٌّ لا يموت له الحكم وإليه ترجعون.

فتشبث أيها المحب بأذيال من أحبهم الله واستودعهم أسراره، وتوسل بمحبة الله تعالى لهم واتخذهم أبوابًا في شؤونك إلى ربك وبهداهم اقتده ولك الفوز في الأخرى والأولى، والسعادة في الدنيا والعقبى، وهنا سر لطيف فإن الله سبحانه ابتلى الأنبياء والأولياء بما ابتلاهم به لينفي لأولي العقول ما يخامر زعوم البعض منهم من الحلول والاتحاد، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وذلك كما يقع لبعض الأولياء من السقوط في وهدة المعصية. لينفي عن الولي زعم العصمة التي هي للأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وفي الخبر: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون)[1] كل ذلك لأسرار ربانية قامت بها الحكمة الإلـهية،

(١) رواه البخاري (٥/٢١٣٩)، والحاكم في المستدرك (١/٩٩، ١٠٠)، (٣/٣٨٦)، والدارمي (٢/٤١٢)، والنسائي في الكبرى (٤/٣٥٢، ٣٥٥، ٣٧٩)، وإسحٰق بن راهويه في مسنده=

ظاهرها ابتلاء وباطنها اعتناء، وله سبحانه التصرف المطلق في ملكه كيف يشاء، فاعلم هذا السر وقف عنده ـ فأكمل أهل العرفان من عرف طوره ولم يتعد حده ـ وخذ العبودية المحمدية منهاجًا، والطريقة النبوية معراجًا، ولا تنحرف، ولا تمرق، ولك الإطلاق في المباحات، وأنت مقيّد بالمأمورات (فاستقم كما أُمرت) وهذه أثقل حملة كلف بها روح الوجود، حتى قال: «شيبتني هود»[1]، وصلّ عليه في كل آن وزمان بصدق الجنان وطاهر اللسان، وأنت حينئذٍ في أمورك كلها إن شاء الله في بحبوحة الأمان، والله المستعان وعليه التكلان.

باب في وجوب التمسك بالسُّنّة السَّنِية والتباعد عن البدعة السيئة الردية

قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: الآية ٦٣] والفتنة قد تكون في الأمر الدنيوي، وقد تكون والعياذ بالله في الأمر الديني، ولذلك حذر القرآن من مخالفة أمر النبي ﷺ والتمسك بسنته صلى عليه ربه فيه نجاح دنيوي، وفلاح ديني قامت على ذلك الأدلة العقلية، وأتت به البراهين النقلية، وما فشل أمر المسلمين في وقت إلا لمخالفتهم الأوامر النبوية، وإهمالهم شدة الاعتصاب لإحياء السنة السنية، ولذلك فإذا كثر الشقاق وفسدت الأخلاق فالداعي إلى سنّة سيد الأنام كالقائم بإحياءِ ذاته عليه الصلوات والسلام، وفي الخبر: «مَن أحيَا سنّتي فكأنما أحياني»[2] وورد أيضًا: «من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد»[3] وقد زل عن طريق الصواب أُناس في هذا الباب، فأرادوا العمل بما يقرأون في كتب الأحاديث والأخبار يزعمون رفض التقليد للأئمة ـ أعني الأربعة الذين جمع الله كلمة المسلمين على القول بمذاهبهم ـ وهذا منتهى

= (٢٥٨/١)، والشاشي في مسنده (١/ ١٣١، ١٤٤).

(١) رواه الترمذي (٥/ ٤٠٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٤)، والبزار في مسنده (١/ ١٦٩)، وأبو يعلى في مسنده (١/ ١٠٢)، وسعيد بن منصور في سننه (٥/ ٣٧٠، ٣٧١)، وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٦٨)، والطبراني في الكبير (٦/ ١٤٨).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٤٦)، والطبراني في الأوسط (٦/ ١٢٥)، (٩/ ١٦٩)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٣٤٩).

(٣) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١١٨)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٣٢٧)، وأورده الذهبي في الميزان (٢/ ٢٧٠)، والحافظ في اللسان (٢/ ٢٤٦)، والمنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٤١)، وقال: لا بأس به، وكذلك ابن عدي.

الخطأ على أن إجماع أهل السنّة على الأخذ بمذاهب هؤلاء الأئمة الأربعة أعني الإمام الشافعي والإمام أبي حنيفة والإمام مالكًا والإمام أحمد رضي الله عنهم أجمعين، وذلك لأنهم استجمعوا رقائق العلم بالسنة، وأخبارها وآثارها ورواتها وطرق أسانيدها وانتهى لهم إذ ذاك العلم بكتاب الله تعالى وتفسيره وتأويله، مع الفقه الأجمع الأتم بأعمال رسول الله ﷺ، وبأعمال الصحابة والفقهاء من التابعين وتابعيهم، والاطلاع الوثيق على حكَم اجتهاداتهم وأسبابها، وكان اختلافهم لذلك رحمة للأمة، فإنه ما هو خلاف، فمن أخذ بقول واحد منهم فقد وُفق إذ كلهم على هدى، ولقائل أن يقول الحق لا يتعدد. قلنا: نعم ولكن اختلاف أولئك لم يكن من هذا القبيل بل هو اجتهاد في الحق اختلاف الطريق ولم يختلف المقصد، فالحق لم يزل لدى كل واحد منهم قصدًا يذهب إليه ويعول في العمل عليه وكل واحد منهم استند فيما ذهب إليه إلى عمل صحيح صدر عن النبي ﷺ، أو عمل أحد الآل أو أحد الصحابة أو أحد التابعين وأعمالهم وأعمال من قال بأقوالهم من علماء الدين الصادقين، لا بد وأن تستند إلى نصّ قولي أو عمل جلي صدر من المصطفى ﷺ وهو أعلم منا بذلك، وأخبر بحقائق كل ما هنالك؛ فالقول بأقوالهم والأخذ بها لم يكن تقليدًا لهم إنما هو موافقة لهم في القول، وتقليدًا للمعصوم الكريم ـ ﷺ ـ في العمل.

ومثال ذلك أن العالِم يأمر بالأمر فتطيعه فيه العامّة، وكلٌّ منهم يعلم أن الطاعة للعالِم في ذلك الأمر لم تكن له، وإنما هي لصاحب الأمر أعني الخليفة في العصر عن النبي ﷺ وعلى هذا فالمتمسّك بقول أحد هؤلاء الأئمة الأربعة الكرام هو متمسك بسنته ﷺ، ومن البدعة الانحراف عن طرقهم أخذًا بالرأي المجرد، ومع ذلك فلا نكفر أهل الأهواء إلا بما فيه نفي الصانع، أو بجحود ما جاء به الرسول ﷺ، فإن تكفير أهل القبلة أمر خطير، نعم يجب علينا النصح للمبتدع لنقوم بحق قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: الآية ١٢٥] وإذا أصر على البدعة السيئة فيجب على المسلمين رده أولًا باللسان، وثانيًا إذا لم يرجع فباليد، والمترتب على العلماء رد المبتدع باللسان، وعلى الأمراء رد المبتدع باليد، ومن لم يفعل ذلك من الفئتين يكن مؤاخذًا من قبل الله ورسوله ﷺ، وعلى العلماء الاهتمام ببث أخلاق النبي ﷺ في الأمة ليوفوا حق العلم الشرعي المفاض إليهم من بحر شريعة الشارع الكريم ﷺ وعلى أهل الأحوال الصادقة من رجال الطرق العلية خدام القوم أهل الله ـ رضوان الله عليهم ـ بذل الجهد بإفراغ أحوال النبي ﷺ في الأمة

لينهض بهم حاله عليه الصلاة والسلام إلى الغيرة في الله، فيعلو بذلك أمرهم في دينهم ودنياهم، وعلى العلماء ورجال الطرق إفراغ العلم والحال المحمديين في الأمة، وإن لم يكن ذو العلم أو الحال مستمدًا من ظاهر الشرع وصريح النص فدعواه مردودة عليه، وهو كاذب سيَّما أهل الشطح الذي يتجاوز حد التحدث بالنعمة، فإن الشرع الشريف فتّاش على الشطاح ولا جرم فإن الشطح أثر رعونة في النفس تظهر على لسان المغلوب، وتارة على لسان الطياش الأحمق، فالمغلوب بسكرة الحال معذور، ولكن لا تسمع له من شطحاته كلمة، بل ولا تنقل ولا تقبل، وبعض كلماته تأوّل، والتأويل يكون لكلمات الكمَّل، فإن قبلت التأويل أوّلناها، وما نقلناها ولا حررناها على أن هذا التأويل لوقاية قائلها من مؤاخذة الشرع الشريف لا غير.

وإن كانت لا تقبل التأويل رددناها على قائلها كائنًا من يكون، فقد قال إمام دار الهجرة علم الأئمة الإمام مالك رضي الله عنه: «ما منا إلا من ردَّ أو رُدَّ عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ»، ولنا فرجة أخرى في هذا الباب وتلك إذا أسندت كلمة لا تقبل التأويل لعارف غير مُدرك نعتقد أنها دست عليه وهو مبرأ بالنظر إلى كماله، وصلاح حاله وقويم أفعاله، ومصون من كل قول يخالف الشرع الشريف، وقد نص البعض من أهل الكمال على وقوع الدس الكثير في كتب العارف الشيخ محيي الدين بن العربي طاب ثراه عليه رحمة الله.

ولنا حمل المسلم على الصلاح فما بالك بالعارفين من المسلمين، وحيث أن الدس ممكن، والشرع ملزم بحمل المسلمين على الصلاح، فوجه السلامة هو ما ذكرناه والله المعين.

باب في معرفة مقادير آل النبي ﷺ وأصحابه الكرام ووجوب محبتهم وحرمتهم ومحبة الصالحين والعارفين والعلماء العامِلين والنظر إلى المسلمين بعين الرعاية والحُرمة إجلالًا لشأن النبي ﷺ هذا مع الشفقة على خلق الله تعالى كلهم على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومعارف ذواتهم

أما آل المصطفى صلّى الله تعالى عليه وسلّم وعليهم، فهم من أجزائه النورانية المقدسة بضعة منه بث الله منها الكثير الطيب قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: الآية ٢٣] فقد ألزمنا الكتاب العزيز بمودتهم ومحبتهم،

وذلك مُرضٍ لرسول الله ﷺ، جاء في الخبر عن النبي ﷺ: «أهل بيتي أمان لأهل الأرض كما أن الشهب أمان لأهل السماء»(١) فمن يرد الله به الخير يوفقه لمحبة أهل البيت النبوي فيسعد بمودتهم ومحبتهم، والنظر إليهم بما يجب عليه من الرحمة والرأفة بهم، والوقاية لمجدهم والإعظام لهم حرمة لجدهم صلّى الله تعالى عليه وسلّم، ولا شك فالمنحرف عنهم المبغض ـ والعياذ بالله ـ لهم هو ممكور وليس بمعذور ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٧].

وأما أصحاب النبي ﷺ فهم أعوانه وأنصاره، وخدامه الذين أيد الله بهم الدين، وأعلى بهم كلمة الشرع المبين، وبث بهممهم دين الله في العالمين.

والخلفاء منهم أعيان الأمة وأئمتها أوجب الله لهم الطاعة. قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النّساء: الآية ٥٩] وقد فَهِمَ أهل القلوب الذين كشف الله لهم ببركة رسوله ـ صلّى الله تعالى عليه وسلّم ـ حجب الغيوب من نص هذه الآية الكريمة أن أُولي الأمر الذين يقومون به في الأرض هم من الأئمة لا من العترة على الغالب، وقد أوجب تعالى طاعتهم، والطاعة أخت الحرمة، فإن من قال بحرمة امرىء ألزمته حرمته له بالطاعة على الغالب.

فللآل المودة، وللصحاب الحرمة، وفي التعبيرين المعنى واحد، مختلف طريقه، متّحد مآله.

فالزم أيها المُحِبّ مودة النبي ﷺ، وقل بحرمة أصحابه وأنصاره وأعوانه، وإياك، والحط على واحد منهم، فإنه مات ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو راضٍ عنهم، فاذهب إلى ما ذهب إليه، وعول في أمر دينك ودنياك عليه.

وأما ما أوقعه القدر بعد وفاته ﷺ بين الصحابة والآل ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ فإنه من سلطان القدر ليمتحن الله بهاتيك الوقائع قلوبًا، وغاية ما أجمع عليه أهل الحق ترك تلك الأمور إلى الله ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٤] الآية، فاشتغل بما يعنيك، واطرح ما لا يعنيك، أحبب القرابة، واحفظ حرمة الصحابة تسلم في معتقدك وتغنم.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/٤٨٦)، (٣/١٦٢، ٥١٧)، والروياني في مسنده (٢/٢٥٨)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٦٩)، والطبراني في الكبير (١٠/٢٤٣)، (١١/١٩٦)، وفي الأوسط (٧/٦)، وفي الصغير (٢/١٦٦).

وأما الصالحون والعلماء العاملون، فقد يدفع الله تعالى بصلاحهم عن الأمة الأسواء، ويرشد بعلومهم جماهير الأمة إلى طريق السواء، والعلماء ورثة الأنبياء، وكلهم أمرنا نبينا ﷺ بالرجوع إليهم، والتعويل في أمر الدين عليهم.

وقد كان الإمام الشافعي والإمام أحمد يختلفان إلى شيبان الراعي رضي الله عنهم أجمعين، فقيل لهما مع شرفكما وما أنتما عليه من العلم وجلالة القدر تختلفان إلى هذا البدوي للأخذ مما عنده، فقالا: نعم قيل لرسول الله ﷺ: ماذا نصنع يا رسول الله إذا عرض أمر لم نجد له شيئًا يعني نصًا صريحًا في كتاب الله ولا في سنتك فقال: «اسألوا الصالحين» ومن هذا يفهم اللبيب أن الصالحين مرجع الأمة في كل مهمة وملمة كان ذلك بتعليم رسول الله ﷺ، والعلماء العاملون هم الصالحون الجامعون بين الحال والمقال، فالرجوع إليهم واحترامهم وتعظيم شؤونهم يكون من تعظيم أمر النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

وأما الشفقة على خلق الله كلهم فهي دأب المصطفى ـ صلّى الله تعالى عليه ـ وأدبه، وفي الخبر: «خير الناس من ينفع الناس»[(١)]، وأيضًا: «الخلق كلهم عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله»[(٢)].

والشفقة على ذرات الحادثات العلويات والسفليات ملزمة بالسعي ـ مهما أمكن ـ بجر النفع إلى كل ذرة منها، وقد قيل: الرجل البَرّ لا يؤذي الذر. هذا حكم دين الإسلام وكفى بالله وليًّا.

باب في الجمع بين مشربي العلماء العاملين والمشايخ العارفين نفع الله بهم أجمعين

العلماء العاملون أخذوا بالنصوص، في العموم والخصوص، فهم في أعمالهم وأقوالهم مقيدون بالنص عاملون به كل منهم على ما ذهب إليه إمامه ذاهب، وبقوله قائل، وبعلمه عامل، اتخذه دليلًا، وقلد في أعماله المعصوم الأعظم ـ صلّى الله تعالى

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٧٣)، وقال: «لم أر من ذكر أنه حديث أو لا، فليراجع، لكن معناه صحيح...».
قلت: ومعناه صحيح عند السادة الصوفية.

(٢) رواه الشاشي في مسنده (١/ ٤١٩)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ٦٥، ١٠٦، ١٩٤)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٥٦).

عليه وسلّم ـ لا ينفك أحدهم عن هذا النمط الكريم أبدًا، فهو ولي من أولياء الله تعالى يُتَّبع ويُعتقد ويقبل قوله وينقل.

والمشايخ العارفون أخذوا مع العمل بالمنصوص بإشغال القلوب وتهذيبها بالإخلاص الكامل في كل أعمالهم، وبالمخالفة لنفوسهم في كل أحوالهم، حتى انتهضوا للأخذ بالعزائم، وعدوا الأخذ بالرخص من أحوال الضعفاء، وتحققوا بالاتّباع بالقول والعمل والحال، ومشربهم هذا هو عين مشرب العلماء العاملين، غير أنهم دققوا النظر بإحكام الأحكام التي جاء بها الخبر، فلذلك ظهرت على أيديهم آثار تلك الأحوال النبوية الصادقة، وأفاض الله تعالى إليهم كل مزية جليلة، وكل كرامة خارقة.

وأجلّهم مَن تحلى مع هذا الحال بالعلم النيِّر وجمع العمل والحال، فمثل ذلك الرجل يعد من أعيان الفريقين، ومن صدور الطائفتين، وهم وإن قسمناهم إلى قسمين، وعددناهم طائفتين، ففي حقيقة الأمر هم ركب واحد، كلهم في عمله إلى الله راجع وعائد، ورثوا الأنبياء الذين لا نفرق بين أحد منهم ـ رضي الله عنهم ـ.

فعليك أيها المحبّ بإعظام الركبين، ومحبة الفريقين، واعلم أن من شذَّ من العلماء عن المشرب الذي وصفنا به العلماء العاملين، فهو من علماء السوء ومن البطالين.

ومن شذَّ عن المشرب الذي وصفنا به المشايخ العارفين فهو من الكاذبين، أو من الجاهلين. فنقِّ نفسك في الطريقين من وصف الشاذين عن المنهجين، والله ولي الهداية، ومنه التوفيق والعناية.

باب في تعريف أصناف الأولياء رضي الله عنهم

من صنوف الأولياء رجل أخذ الأدب طرزًا، والفقر إلى الله كنزًا، عاش مع الناس كواحد منهم، لا يميزه إلا الدقيق الفكر عنهم.

ومنهم من وقف في مقام الحيرة مندهشًا لا يبدي، ولا يعيد، إذا رآه المفتون قال: هذا مجنون، يقتصر على الأوامر فيعمل بها، وعلى النواهي فيجتنبها، وتصعد همته إلى مطلوبه من طريق حيرته.

ومنهم من غلبه الزهد فزهد نفسه وغيره، فأخذ به زهده إلى منصات العارفين، ومراتب أهل اليقين.

ومنهم من تقرّب إلى الباب بالبذل والسخاء والتواضع الخالص، فأكسبه ذلك سموًا في مقامه، وارتقاءً في منزلته، فأصبح وهو على فراشه سابقًا للقوافل، واصلًا إلى أكرم المنازل.

ومنهم من نشط بالصدق فإذا قال صدق، وإذا عمل صدق، وإذا أخذ صدق، وإذا أعطى صدق، وإذا قام صدق، وإذا قعد صدق، فنفعه صدقه، وأُثبت ببركة صدقه في دفاتر أهل الصدق المقربين.

ومنهم من قهر نفسه في كل أحواله، وخالفها في كل آمالها، ووقف رقيبًا عليها، محاسبًا لها على كل نَفَس، فارتقى بذلك إلى المقام الأنفس.

ومنهم من طاب بالذكر، واستنار بالفكر، فقلبه بالذكر هائم، وعقله بالفكر مستنير، يأخذ قلبه بركة الذكر فيضيء، ويجتذب عقله آثار صحة الفكر فيطيب، وله من الطريقين نصيب حسن وأي نصيب.

ومنهم من صحّ حاله، واعوجّ مقاله، فلسانه لسان العوام، وحاله حال الخواص، أوقاته مع ربه معمورة، وخلواته وجلواته بصحيح الحال مباركة ومبرورة.

ومنهم من علا قاله، وانحط عنه حاله، فهو في منزلة السير إن لحق حاله قاله أكمل حينئذٍ الكريم حاله، وإلا فهو من صفوف الباب وإلى الله المآب.

ومنهم من جمع بين علوّ المقام وسموّ الحال، ومثل هذا يعربد ويشطح، وإن التذ بقاله وطاب بحاله ادعى وتبجح، فهو وإن كان قبل انخراطه في وهدة الشطح وليًا، غير أنه في حالة الشطح يسقط من مرتبته، كسقوط النائم عن مرتبة اليقظة إلى أن يستيقظ، وذلك الرجل كذلك يسقط بسبب شطحه وعربدته، وهناك يعود إلى منزلة ولايته، ومن ثمّ قال قائلهم: الشطاح لا يكون وليًا عند الله حالة الشطح.

ومنهم من يصفو له الحال، ويعذب منه المقال، فهو وإن لم يكن رب مقال غير أنه لصفو الحال لا يتجاوز حد التحدث بالنعمة في المقال.

ومنهم أميّ لسانٍ عالم قلب، اتخذه ربه وليًا فعلمه وهذبه وأكرمه بسبك معاني علوم الخواص، في كلمات أطراف العوام، يعرف مثل ذلك الرجل من صفا قلبه، وصح من القوم أدبه، وحسن نظره، وطاب مخبره وخبره، وإلا فمن كان مغشوش القلب سيىء الأدب والنظر يتبع كل ناعق يقف مع عينه، تستحسن الشيء تارة وتستقبحه أخرى، بالكلمة يعتقد، وبأختها ينتقد، فهذا لا يمكنه الانتفاع بمثل ذلك الأمي المحمدي الحال، العلوي المقال، وبين فهمه ومرتبة الرجل أهوال.

ومنهم مصطلم غلبه حاله فغاب، ولذّ له الشراب، وتجرد لحبيبه عن الكل، وانسلخ عن النفس والأهل، أخذه شهوده إلى مشهوده لم يعرف غيره، ولم يطرب بغير ذكره، نَفَسُه لنفسه خاص، وينفع الله به من أراد من عباده أُولي اليقين الحسن والإخلاص.

ومنهم ذو هيبة جليلة، وسكرة جزيلة، هاب فخلعت عليه خلعة الهيبة، فهو نسيج وحده، لا يأنس بشيء، ولا يقف مع شيء، أنسه بربه، وبما آل إليه، ذهل بهيبته حتى عن قالبه، فوقف برونق الروح بين يديه، وكذا حاله يعرض عليه.

ومنهم من أخذ الخفا ديدنًا، والانطماس عن الناس منهجًا حسنًا، كل أحواله بينه وبين ربه، يظهر للناس بحال، وله مع ربه أحوال.

ومنهم من تبرز منه آثار تعاب، وينتقد إلا عند أُولي الألباب، ستر بتلك الآثار أسراره، فدأبه التستر والكتمان، والتخافي عن عين الزمان، على حد قول قائلهم:

تسترت عن دهري بظل جنابه ... فصرت أرى دهري وليس يراني
فإن تسأل الأيام عني ما درت ... وأين مكاني ما عرفن مكاني

ومنهم من أهل هذا المقام أهل ظهور، وارتفاع منزلة فوق مواقع البدور، ومع ذلك ففي ظهوره مستتر عن أعين الجاهلين، ومُختَفٍ عن ألحاظ الجاحدين والحاسدين.

ومنهم من أهل هذا المقام أعني مقام الخفاء في ظهور من نهضت به العناية، ولحظته النفحات الربانية بأعين الوقاية والرعاية، فهو في منزلته مصون، وفي مقامه مأمون، وعلى رأسه لواء ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يُونس: الآية ٦٢].

ومنهم الجامع للمراتب، الراقي لمنصات جميع تلك المناصب، طُلْسِمت بمعدنية ذاته الشؤون المحمدية، ونُسجت في قلبه وقالبه لطائف البراهين المصطفوية، فظهوره في خفاء، وخفاؤه في ظهور، علمه فياض، وأعماله منزهة عن الأغراض، ينصر الله بالله لله، وغيرته وغارته لوجه الله، يوالي لله، ويعادي لله، وهمه الله، ينفع الخلق لأجل الحق، بقاله وحاله وماله، وهو كالغيث النافع بركته، في كل أحواله وأفعاله وأقواله، وهذا لا بد وأن يكون من البيت المحمدي لاستجماعه الكثير من الخلال المحمدية، والسمات النبوية، والخصال المصطفوية، ولا بد أن يكون

محسودًا، يُكذب عليه، وينسب ما لم يكن منه إليه، ولن يبتلى بحسد مثل ذلك الرجل إلا من ساءت ولادته، أو خبثت معدنيته، أو اسودت بالأغراض السيئة نيته، أو صُدَّ بيد القدر عن طريق الصواب، ونبح لأجل الدنيا بلسان حقده نبح الكلاب، وذلك المحسود مؤيد الحال، مصون المآل، مبارك في أطواره كلها، ولا يضره هجوم الحاسدين، ولا زور الجاحدين، بل هو بعين الله، تحت راية عناية رسول الله ﷺ، وكل حال يطرأ عليه من أحوال الجمال أو الجلال فهو خير له، وبركة وسعادة، بأي طرز ظهر، وبأي شكل تعين له أثر، يعرف ذلك المحققون من الصديقين، والحمد لله ربّ العالمين.

باب في تعريف الاختصاص الذي يفاض لبعض الخواص رضي الله تعالى عنهم

الاختصاص رحمة من الله تعالى للعبد، لا بسعي، ولا بعمل، ولا برأي، ولا بحيل، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: الآية ١٠٥] هو عطاء رباني، ومنح صمداني، وفضل أُسبغ في القِدَم، قبل أن تتعين النسم، والعناية قسم، فأهل الاختصاص جذبتهم يد المشيئة الربانية، بمحض الفضل والعناية الصمدانية، إلى أقصى المراتب العلية، وهذا المنح الباهر، والفضل الوافر، هو اليوم حصتي، ومنصته منصتي، أقامني الله في هذه المنزلة إمامًا، واختارني لرتبة هذه الخصوصية ختامًا، وكشف لي مخبئات الغيب باطلاع من كرمه، وجليل نعمه، ففهمت أسرار الرموز الفرقانية، وسبرت خفايا دقائق البطون القرآنية، ولم تبرح تترقى همتي بكشف تلك الحجب اللطيفة، وبشق ديباجات هاتيك المحاضر الشريفة، فأنا اليوم ولربي الحمد والشكر، وله الإحسان والبِر، كنز الفيوضات الطاهرة المحمدية، وسجل العلوم المقدسة النبوية، وهذه النوبة نوبتي، تتقلب في ورّاث منزلتي، وخدام قدمي إلى ما شاء الله، بهذا بُشرت من صاحب الوعد الصادق، وقرأته في صحف الرموزات العلوية التي طفحت بدقائق الحقائق، سينشر علم ظهور حالي بعد هذا الخفاء في الأكوان، ويبرز بروز الشمس من بطن ليل الطمس للعيان، وتعكف على بابي القلوب والأرواح، ويسري سر إرشادي في الجبال والأودية والبطاح، ولم يمسس شأن نهجي المبارك غبار دنيوي، ولم يرجع منه حرف إلى قصد نفساني، بل كله لله، على منهاج رسول الله، عليه صلوات الله، لا يعبأ معناه بحال من أحوال هذه الدنيا الدنية، ولا يلتفت قائد حاله إلى مظاهرها الزائلة المطوية، وقد تُفرغ رجال وراثتي حال النبي في الأمة، وتقوم بأطوار السادة القادة الأئمة، ومن رجالي وجه مولاي علي

أمير المؤمنين، صهر النبي الأمين، الأسد البطين، ليث العرين، ولي هذا الخط الذي سيبرز، وكأني أراه على يد عبد يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، من البيت الفاطمي، والفرع الأحمدي، خزامي الفصيلة، خالدي القبيلة، يجدد المجد العلوي، ويرفع قواعد البيت الرفاعي، ويمهد فخار العنصر الصيادي، ينبلج شارق طالعه قرب متكين، فيقوم وكما أنا حيرة للمفتونين، وجاذبة للموفقين، ويترعرع مجده في ساحة الظهور، فيرتقي إلى الشهباء، ثم إلى فروق، وبها تظهره لوامع بروق، وفي بحبوحة تلك الترقيات، وسمو هاتيك المنصات، فالمفتون قادح، والمأمون مادح، ونور الله ساطع، وفي فضاء الوجودات لامع، وما النصر إلا من عند الله، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله، ويقبل عليه من ارتضيناه وأعناه، وأسعفناه بمدد الله واجتذبناه، ولا يزال الأمر منبلج المظهر، ولذكر الله أكبرَ، وجمال ظهورنا يلمع في سماء المعونة، وقد تأتي المعونة على قدر المؤونة، وفي سماء سطوع الجمال حرف جاء لمعنى، وإن شئت قلت: سلمان منا، وقد يؤيد الله نائبي بعلم وسيع، وعقل منيع، فهما جناحان له في الزمان، بل هما نظام الحشمة لكل إنسان.

العلم والعقل يعطيان عزًّا وقدرًا سامي المباني
وإن هما ينقصان يومًا فالعز والقدر ينقصان

هذا خفائي مطلسم بظهور، وهذا سمك كياني مندمج تحت ردائه المعتم باهر نور.

قيل لي أنت في خفاء صميم وبما قلت حاكيًا عن ظهور
قلت هذا الخفاء معنى غمام تحته يملأ الجوانب نوري

ما شاء الله كان. جمالنا الذي تثور به إلى حضرة الفخار جِمَالُنا يطير بهمتنا من وكر مهده، إلى منصة سعده، فيكون لمظهر ساطعتنا يدًا معينة، وخزانة ثمينة، وقد يستفيض نور الله الطالع بطالعنا، فيملأ الأطراف والأكناف بإذن الله، ولا حجر على فضل الله، جاءت لي بذلك البشرى المحمدية الصحيحة، والعناية النبوية الصريحة، بواسطة روح سلطان الأولياء وزعيمهم، وسيد منصتهم وكريمهم، مولانا السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنه وعنا به.

أبو العلمين ابن الفواطم سيد على كل سادات الرجال له اليد
تواضع أقطاب البرية كلها إذا قام في دست الولاية أحمد

كأني ببغداد وقد ازدهت بطالع مجدنا، وأشرقت سماوات فخارها بلامعة سعدنا، إذ يقوم لمظهر جدنا الأعلى شأن إلٰهي لا بعلّ ولا بِلَيْت، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت، يبني مرقدي، ويلمع فَرقدي، وتطير كلمة إرشادي حتى تضرب لها أكباد الإبل من الأنحاء القصية، وفي تلك المعامع فكل ينشر له من نشر عبيري بنسبة ما انطوى فيه من صادق الهمة وصحيح النية، وكذلك سينشر الله تعالى لطريقي عَلَمًا في المشرق يراه أهل المغرب، وعَلَمًا في المغرب يراه أهل المشرق، وتطوف كلمة إرشادي في جميع الأنحاء الإسلامية، عربها وعجمها، لم يكن في طريقي من الغبار الدنيوي ولا الذرة، إنما هو إفراغ أخلاق النبي ﷺ في الأمة، وتهذيبها بالطور الرفاعي والمشرب المبارك الأحمدي، وكل ذلك لله، لا لعلو، ولا لغلو، ولا لإرادة فساد في الأرض، إنما هو تجديد لأمر الدين، وإحياءٌ لمناهج الصالحين، والله المعين.

سيقوم بإذن الله تعالى لإعلاء كلمة طريقتي رجال من آل سيدنا الحسن السبط الأعظم رضي الله عنه وعنا به مغربيون أفريقيون قصيون وقريبون، كأني أراهم يجاهدون في الله لله، بتهذيب النفوس، وتطهير القلوب، منهم العلماء والعرفاء، ومنهم أولو الأحوال وصحيح المقال، يبث فيهم سر الله تعالى نائب نوبتي، ووارث حفلتي، فيسري ذلك السر في الواحد منهم بعد الواحد، حتى يقوم لنا منهم أربعة ويا لهم من أربعة، تهيم قلوبهم بي، وتضيء بمشربي، وتطيب بحبي، يتسابقون في تكثير سواد أهل الحق، وكلهم من أهل الحق، ولهم مني اللحظة الطيبة، والنظرة المسعفة، والمدد من الله، والعناية بعناية الله من رسول الله، والهمة الروحية من لباب سر الإمام الرفاعي رضي الله عنه، وقد يسبق بعقد اليد سابق منهم، يمتاز عنهم، ولا بدع ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝﴾ [الواقعة: الآيتان ١٠ - ١١] ما شاء الله كان. عزّ بعد ذلّ، وغنى بعد فقر، وظهور بعد خمول، وكثرة بعد وحدة، وقلوب تشتغل على يده بالله، ولا بغية بها إلا الله، فارتقب سر ذلك المضمون، وانتظر فتح الكنز المكنون فسيكون، وحاذر أن تقول متى يكون، فإن الله لا يخلف الميعاد، وإليه المرجع في المبدأ والمعاد، وأمره بين الكاف والنون، وفي كل طي ونشر ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝﴾ [يونس: الآية ٦٢] والحمد لله ربّ العالمين.

لطيفة تناسب هذه الجُمَل الشريفة:

ذهب الطبيعيون إلى أن مادة الكون الأولى مادة كثيفة قامت بذاتها، ثم تخمرت وانفجرت عنها الأشياء، وقام منها النوع البشري، حتى جعل بعضهم النوع مجزءًا عن القردة، ثم لطف شيئًا فشيئًا، حتى جاء إلى ما هو عليه، وهذا غاية الحمق، ونهاية البله، على أن الطبائع المكونة كثائف، ولا بد للكثيف من مركب، وهو المكون حينئذٍ لها، فإذا تسلسلت الطبائع ورجعت إلى غاية منها، فالأولى كثيفة لا بد لها من صانع مركب لها، وقيامها بذاتها ينافيه ما فيها من الكثافة، ولما أراد اللطيف الخبير، الواحد القدير ـ جل وعلا ـ هدم صومعة خيال الطبيعيين، أبرز من نور إشراقات لطفه اللطائف، وأقامها في الذرات تبرز في جلوتها، فتكون دليلًا للعقل، وبرهانًا للعاقل، على أن اللطيف الحق سبحانه، قامت ذاته بذاته، فهي للطفها وقدسها غنية عن مركب، ومكون، بل هو الله سبحانه المركب للإنسان، والمكون للأكوان، وكذا يا أيها الإنسان قال لك: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفِطار: الآية ٨] فانظر في عقلك كيف برز فيك بلطفه، وفي خيالك، وحافظتك، ومفكرتك، ووهمك، وخاطرك الذي يسامرك، والسانحات التي تهبط وهلة إلى فكرك وعقلك، وتتنزل إلى قلبك وقبضك وبسطك حيث ينشق عنها سجف السر بلا سبب، وطوالع تدبيرك وعزمك وجزمك، وما يماثل ذلك من اللطائف كلها تبرز بلا فاعل متعين، ويقوم عنها أثر في المواد لا يجحده عاقل. فعل ذلك سبحانه وأقام سره في الإنسان ليقيم عليه البرهان، بأن ذات قدسه المنزهة عن الكيف التي هي اللطف المحض قامت بذاتها، وهي الغنية عن العالمين، وبهذا قهر العقل ـ سبحانه وتعالى ـ في حيرته لم يصل إلى كنه، ولا إلى مادة، ولم يقدر على الجحد، وإن أعمل كله بكل وجه ووسيلة، وتمت كلمة الله، ولا تبديل لكلمات الله، ولو صح ما قاله أهل المادة للزم تغيير المادة الإنسانية بصغر أو كبر، حتى تنقلب عينيته المشهودة، وكذلك الطبائع كلها، ولاختلّ النظام العام، والحال أن كل ذلك لم يكن، ولم تشهد الأعين إلا ما نصت عليه الكتب السماوية، وعلى مضمونها قامت الآثار الكيانية، وفي لطف الروح التي قام نفس الإنسان والحيوان ذي الروح دليلًا على ملازمة الوجود، وفقدان النفس دليلًا على انفكاكه عن الوجود، معنى عجيب فيه من جلالة اللطف الإلٰهي ما تقف عنده غايات العقول كلها، إلا من علمه الله واصطفاه، وذلك لأن الروح من الأمر الإلٰهي لا غير، وقد أقامها بذوات الأرواح برهانًا على لطفه الأعظم وهو يتوفى الأنفس فيعيدها إليه، فالوجود الآدمي والحيواني

أيضًا من كثيف التراب، ومن الماء الشفاف، طبع فيه نور الأمر فأقامه، وقد انطوى فيه طي ماء الضياء بالعين إشراقًا، فإذا أراد فكه عن الجسم أوقع في الجسم ما يوقع فيه فساد مركبه، فينفك عن نور الأمر، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤] وفي كل كثيفة ولطيفة له تعالى آية تدل على وحدانيته وتفرده، فكل كثيفة هي مركبة وكل مركبة لا بد لها من مركب، فإن كان المركب حادثًا كان أيضًا محتاجًا لمحدث يركبه، وعند الغاية فالمركب الأول المحدث للمصنوعات هو الله تعالى، وفي كل لطيفة سر له سبحانه يشير إليه، ويدل عليه، فالكثائف تدل عليه بحركاتها، واللطائف بذواتها، على أن اللطائف لا بد وأن تلصق بشيء آخر ليبدو حكم لطفها، وهو غني عن كل شيء، لا تحتاج ذاته إلى معين، في لطف قدسها، فهي الفعالة في الكثائف واللطائف، والمصنوعات العلوية والسفلية. كان الله وهو الآن على ما عليه كان. فحِر به أيها العاقل حيرة تعظيم، وإياك وحيرة الشك فهي من نزغ الشيطان الرجيم، ووحّد توفق والسلام.

وهنا لأهل المادة دليل أيضًا منقوض، وذلك أنهم يزعمون لما يصادفون رُؤيته من جماجم بعض المتقدمين وكبرها، وجسامة الوجود، والأعضاء ومشابهتها لجماجم نوع من أنواع القردة، أن الإنسان من ذلك النوع وقد كان جسيم الهيكل وصغر. بلهٌ في البله. فإن الله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: الآية ١] ولا نزال نرى الزيادة في بعض الناس من النساء والرجال، وآباؤهم وأمهاتهم لم يكونوا على نسقهم، والجماجم التي يجدها بعض الماديين هي من الأفراد النادرة، ومثلها في كل عهد يمكن بروزها في عالم الكيان، ويمكن أن تكون من جماجم القردة القريبة المشابهة للنوع الإنساني، والمشابهة لا تكون دليلًا على اتحاد النوع، فإن المماثلة في الكثير من الأعضاء واقعة مع الكثير من صنوف البهائم والحيوانات غير الناطقة، وأما احتجاجهم بقدم القرون عما وردت به بعض الأخبار عن الصفي آدم عليه السلام وهبوطه إلى الأرض، فهذا لا يفيدهم شيئًا، على أن الله خلق الأرض وبث فيها من كل دابة وذلك قبل هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض فما كان من بقايا أعضاء تلك الدواب التي بثها في الأرض وأهلكها لا يصح أن يكون وجوده دليلًا على نفي التسلسل الآدمي، وأين هذا من ذاك.

وقد جاء في الأخبار وجود خلق على تركيب الخلق الآدمي قبل آدم عليه السلام، ولكن الله أهلكهم ولم يبق لهم باقية، وفي رواية عن الأمير الكرار سيدنا عليّ

رضوان الله عليه: (خلق الله تعالى سبعين ألف آدم قبل آدم أبي البشر عليه السلام). فمن هذا النص الشريف علمنا أن أبا البشر آدم عليه السلام والبشر هو النوع العاقل المتكلم المدبر المكرم بالعلم والخلال الحميدة يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسرَاء: الآية ٧٠] فأنواع الآدميين من السالفين لم تكن لهم هذه التكرمة، فإنهم لم تبعث لهم الرسل، ولم يقم عليهم قائم الإنذار والتبشير، وهم من صنوف الحيوانات، وإن اتسقوا بنسق خاص يقرب من الآدمية البشرية، وكلهم طواهم الله تعالى بشاهد قوله سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ [ق: الآية ٣٦] فشهد الكتاب العزيز للأمم التي طويت من قبل بشدة البطش لما قام في هيكلهم من ضخامة الأعضاء والقوة، ولم يشهد لهم بالعقل والعلم وينص على تكرمتهم فليتدبر.

وكل هذا من الدلالة الواضحة على الواحدية، وعلى جلال الفردانية، وعظمة الأحدية، وفي هذا البيان ما فيه بلاغ لقوم يعقلون، وكفى بالله وليًا وله الحكم وإليه ترجعون.

وفي هذه الفكاهة معنى لطيف، وأسلوب ظريف، أردنا به تشحيذ أذهان قوم أحبوا العلم، وما ارتقوا فيه إلى غاية كافية، ورتبة شافية، ولتفرح منا الأسرار ببراهين التوحيد العالية، وتطرب بآياتها الباقية، ولتطمئن بوعد الله، موقنة بكل ما جاء عن رسول الله ـ عليه صلوات الله ـ مرتبطة اللب بأهل الله، رضي الله عنهم أجمعين.

وهناك تفهم حكم التنزلات الإلهية وأحكام الوحي والإلهام، للأنبياء ثم الأولياء أُولي الهمم العرشية، والقوة القدسية، وإلى الله تصير الأمور.

إشارة اختصاصية:

الجوهر الفرد الغير المركب الذي أبرزته يد الإنشاء في حيطة الإفراد فقام كما هو، وطوت فيه قوة المزاج فكان فردًا في النشأة مركّبًا في المظهر، صور كذلك ليفرغ من حكم فرديته في الذرات التي تقبل الامتزاج معه من المركبات، فتحسن ويقوم فيها منه معنى لا يقوم فيها من غيره، ومن هذا السر الأقدس إنشاؤنا في عوالم الكيان أفرادًا تفيض إلى مركبات الذوات من إنسان وحيوان ونبات، ولنا في محاضر الوجودات حضرات تكون هي مع أرواحنا جهات المحاضرات، ولكل معنى دقيق، مشهد رقيق، وأنموذج عن المطلق مقيد أنيق، فمن السر المطلق الاتجاه في مقام

العبادة إلى الكعبة المشرفة حرسها الله تعالى وزادها شرفًا وتعظيمًا، ولم تكن إلا جهة لا يعول في قصد العبادة عليها، ولا يسجد إليها، بل يقول العبد: وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين. فهذا حكم الإطلاق.

وأما حكم القيد فانعطاف الهمم إلى حضرات أهل الحق التي نصوا عليها، ولفتوا بالأذان القدسي القلوب إليها، لتحاضر أرواحهم ولتأخذ جميع الشؤون ببركة الاستفاضة منهم.

ولله خواص في الأمكنة والأزمنة والأشخاص، ومن الأمكنة الطاهرة التي اختصها الله برحمته ونسج فيها وشي عنايته فأضافها إلينا، وأفاض من كرمه لأرواحنا فيوض القدرة لإغاثة من عول بها علينا (الحضرة) التي سميت في الحضرة العليا و(الروضة) التي نعتت في المقام الأعلى، أضيفت الأولى إلى الجد المكين مولانا السيد عز الدين أحمد الصياد، فنسبت إليه فقيل لها الحضرة الصيادية وأضيفت الثانية إلى نائبنا ورئيس قوافل حبائبنا شيخ كتيبة أهل الحق من أرباب المشرب المهدوي الرفاعي الأنزه الأقدس (محمد أبي الهدى بن أبي البركات وادي المكارم حسن آل خزام) لا زال ملحوظًا بنظر حنان المصطفى عليه الصلاة والسلام، فقيل لها (الروضة الهدائية) ستنبت الأولى والثانية بإذن الله نباتًا حسنًا، وتفيض إلى أهل الصدق منًّا، من أخلص بها فاز، والتحق إلى لبّ الحقيقة المحمدية وروضة للعبادة حتى يتحقق فيها قول المؤلف رضي الله عنه:

تنجلي في طرزها حتى يُرى عندها راكعكم والساجد

وانتصر حزب الله ألا إن حزب الله هم الغالبون.

وإذا سخر الإله أناسًا لسعيد فإنهم سعداء

وهي الآن أعني الروضة على ما هي عليه من الكمال الحسي والمعنوي وليس بالإمكان أن أصفها بأتم وأكمل مما وصفها المؤلف والمبشر بها قبل وجودها ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ ولله دره حيث قال:

إذا القوم أهل الله بشّر بعضهم بشيءٍ ترقب يا بنيّ ظهوره

فأخبارهم من نور حضرة ربهم ولا بد أن الله يكمل نوره

من ظاهر المجاز، ومن خدم في الرحبين وكلاهما رحب واحد ولو كنس التراب، لوحظ بعين الكرم المحمدي بالعناية في الأمور الصعاب رحب تطوف به الأقطاب والأنجاب، وتقف على دركات أبوابه أعيان الأولياء أولي الألباب، يتململ صدور أهل المحافل الغيبية منه في الأعتاب، يعدون زيارته سلوكًا موصلًا، والنظر إليه بالإجلال بابًا قريبًا، وكل من لاذ به في مهمة زالت هذا إذا أخلص النية، وحاضرنا محاضرة أهل الصدق من أولي الهمم المرضية، ومَن استمدّ فيه أُمدّ، ومن ربض به بالانكسار زالت شقوته بإذن الله وسعد، إن مرّ به الغوث تواضع وخشع، وإن لحظته عيون الأقطاب تأدب ناظرهم وخضع، لله قوم يخدم خادمهم في ذلك الرحاب المبرور والبيت المعمور، من وقف منهم للقيام بحقوق الخدمة، وانتهض إليها بعلو الهمة طاب، وأتته فيوض القبول من كل باب، وكتب وهو على فراشه بصدور أنجاب الأحباب، ونفحته عين المدد المحمدي بجاه لا يخذل، وحبل لا يفصل وكان في المقام المأمون، من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وسيقاد إلى الجنة فيه قوم بالسلاسل، وينادي خطيب المدد انتفع يا غافل وتعلم يا جاهل، هنا حضرة الحضور، وروضة الحبور، هنا حضرة الإفاضة الكبرى، وروضة العناية العظمى، هنا حضرة المحاضرة مع الختم الأكبر، وروضة السعادة التي تجري بماء الكوثر، عطّر شمّك بترابها، وعفّر خدك ببابها، ولا تمل عن رحابها، فإنها الباب القريب من جناب الحبيب، هي والله وصّالة للمقبولين، قطاعة للمنافقين، مدنية حال منشقة ديباجتها من المدينة المنورة الطاهرة، التي هي كالكير تنفي الخبث، فقف صادقًا واعمل بالحق ودع العبث، وطب بحضرتها فهي روضة المدد العظيم، ومحل سلطان ولاية محمدية قام سليمان الظهور يقرأ لكل محقق كتاب الإفاضة بنص ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ [النمل: الآية ٣٠]:

حضرة القرب لديها روضة هي في الحكم المثنى الواحد
حضرة في روضة أو روضة أثبتت حكمًا فشأن شاهد
تنجلي في طرزها حتى يرى عندها راكعكم والساجد
خارقات عن جناب المصطفى برزت والنص فيها واحد
قال أهل الله طرًّا أنها حضرة يجمع فيها الشاهد
كل مَن وافى لها معتقدًا فعليه برد سعد عاقد
والذي عارض مجلى مجدها حسدًا قل مات فيها الحاسد
هي دار الفيض والسر الذي عاجز عند سناها الجاحد

قد يضج الكون في مظهرها ويرى شمس علاها الواجد
وبها اختص لعمري واحد في نظام الغيب بدر واقد
ثم عنه سيجيء واحد أنا أي والله ذاك الواحد

إشارة:

وقد يفيض الله عنايته لأناس بعدوا ثم قربوا وانحرفوا ثم أنصفوا، وجرفوا ثم التحفوا، تضمهم خؤولة لي بعيدة قريبة، وأسرار القدرة عجيبة، وقد أوضحت بهذا الأسلوب، شأنًا مفصحًا عن المطلوب، أشرت إليه، ونبهت عليه، في منظومات لي كثيرة، منها قصيدة سميتها اللمعة النورانية، في حكم منصة الفردانية، تائية صدرتها بقولي:

قرأنا في صحاف الحادثات سطور الباقيات الصالحات
ونزهنا جلال الله عما يجانس ما سواه من الصفات
وآمنا بما قد جاء عنه مع التفويض في المتشابهات

والقصيدة طويلة دمجتها في رسالة أكثرها المنظوم سميتها (فرحة أهل الحضرة في أخبار الروضة والحضرة) وختمت خاتمتها المباركة بذكر ما سيحدثه الله تعالى وله المنة والفضل في مرقدي، ويعلي به في سماوات الظهور فرقدي، على يد كل من الولدين النجيبين الملحوظين بنظر حنان ثاني اثنين، عليه صلوات الله وسلامه في كل طرفة عين، فالأول المكين، والثاني المعين، وناهيك بهدى ساطع كوكبه وضاح، وجمال يتألق في مظهر فالق الإصباح، فالمكين أخو حزم، والمعين مع النية وطهارة الطوية يمسه حينًا فتور في العزم، وإنه إن شاء الله لمن المقبولين الملحوظين المعانين، فإن نوره يمحق فتوره، وتصلح طهارة نيّته أموره، وقد أشرت إليه في قصيدة لي رقمتها في خاتمة الفرحة صدرتها بقولي:

لي من الغيب أُفرغت كلمات كلها في طرازها آيات
دمدم السرّ عن فنون طواها بمعان آياتها محكمات

والقصيدة طويلة أيضًا، وفيها من براهين أسرار الله العجائب، وأقول لنائبي المكين بعون المعين:

تسلق لرحب القلب منا وطب بنا ولا تأخذ الألفاظ وارضَ المعانيا
فإنك معنانا ونقطة سرنا تشيع هدانا ثم تحيي النواحيا

أذكره بالله، وأسوقه إلى طريق الله، من المنهج الذي يرضي الله فأقول له كان الله لي وله:

إياك من طيش السموّ والدين صنه عن الغلوّ
وإذا تقوى الطور منـ ـك اجعل بتقواك التقوي
وانهج بنهج المصطفى في كل معتمة وضو
واثبت على ذاك الطريـ ـق ودع مخامرة التلوي
واذكر وخل الغافليـ ـن أولي البطالة والسلو
فقلوب أصحاب القلو ب مطارها في كل جو
تعلو لبارئها بأجـ ـنحة التواضع لا العلو
سلمت وصان جنابها خلاقها من كل لو
ومضت قلوب الغافلين تذوب من لذع التكوي
وعيون أرباب الهيام هطولة مع كل نو
فاجبر بكسر النفس كسـ ـرك وامح ثائرة السمو

هذا حال أهل الاختصاص ومقام أهله يقومون بالعون الإلهي، وينظرون بالنور الرباني، ويستمدون الفيض من المعدن الروحي المحمدي، وها أنا والحمد لله خلاصة صفهم اليوم، وصاحب هذه المائدة التي زمزمت لأجلها في القديم والحديث ركبان القوم، ولم أنقش من أقوالي حرفًا إلا بإذن خاص من سيدي ونظام روحي رسول الله ﷺ والحمد لله رب العالمين.

باب في شيء من رقائق الحكم
«جعلته الخاتمة لهذه الدرة البيضاء وحسبي الله»

قد دمجنا في الدرة البيضاء باهرات من واردات السماء
فاتخذها يا صاحبي لك وردًا فهي من فيض سيد الأنبياء
طب بها وابتهج ورح بأمان كل آن من صادمات القضاء
وتوكل على المهيمن واربض بحمى قلب أكرم الشعفاء
فهو قلب حوى صنوف المعاني قبل تنسيق عالم الأسماء

طب بالله أيها الولد المبارك إن شاء الله، وخذ ما أفيض إليك وكن من الشاكرين.

● لا تقف موقفًا يقول لك فيه لسان الحق ما أنا معك.

● إذا سمعت في أحد قولًا فتبيَّن، وإذا تبينت فلا تمل مع الغرض، ولا تستعمل مريض غرض.

● إذا عملت عملًا لله فنزه عملك عن إسقاطه لعيون الناس.

● اجعل صديقك من يراك فوق غرضه، وإلا فيسقطك غرضه وتندم.

● خذ بمعيشتك الطريقة الوسطى، وهناك لا يعيبك كريم، ولا يشمت بك لئيم.

● إذا تكلمت فلتكن الحجة روح كلامك، والحكمة جسمه، وأنت الغالب.

● صدر المجلس عالمه أين جلس.

● رُبَّ مال مع الجهل فقر ووبال، ورُبَّ فقر مع العلم غنى وجمال.

● ليس العلم أن يشقشق المرء بفن يطيعه فيه لسانه، ويكذِّبه بضرر الناس فعله، إنما العلم ما رفع صاحبه بنفع الخلق على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، وإلا فهو سلاح السارقين وقطاع الطريق.

● ليست المرأة للشهوة المجردة، بل هي رفيقة عُمْر، تحفظ في الغيبة، وتسر في الحضرة، وتعين الرفيق على الزمان، وإلا فهي وعاء شهوة.

● العلم يرفع بصاحبه عن قبول المنزلة، ولذلك فقد يسبق العلماء الجهال.

● الدين والعقل رفيقان، والبغي والنجاح ضدان، والعدل والعمران أخوان.

● العاقل يجعل أعماله هدفًا لأنظار العقلاء، ويقبل انتقاد المُحق، ولا يعبأ بتحريف المبطل ولا ينام على حصير استبداده، الرجل الكامل في الحق كقلب الرحى تدور حوله الشؤون وهو مكانه.

● المبطل رفيق من وافقه، وصديق من لايمه، ولا صديق له.

● الكاذب يستهزىء بنفسه.

● المبذر ناقص الرأي، والبخيل ناقص العقل، والعاقل في المنصة الوسطى، لا يبذر ولا يبخل.

● كلمة تحمل حكمة، خير من سيف يثلم ثلمة.

- لا تمد نظرك أو يدك إلى ما يصعب عليك، مَدُّ نظر غيرك فيه إليك.

- احترف ولا تهمل حكم المروءة، ولا تتجمل بالمروءة وأنت بطال، فإن المروءة ضد البطالة، والكسل موت المجد.

- لا تجعل رميم عظام قومك تجارة بطنك، ارفعهم عن هذه الوهدة، واحيهم بإحياء سيرتهم إن كانوا من الصالحين، ولا تتبع غير سبيل أهل الحق، فإن الآدمية جمالها الوقوف مع الحق.

- يسود الضعيف المحق، ويُستعبَد القوي المبطل.

- رافق المحق ولو صعب عليك الطريق.

- لا تصاحب من تجول على صفحات وجهه علامات الوقاحة، وتندلع على لسانه جمَل الفجور.

- ناقص الأصل يأكل ويكفر، وكريم الأصل إن لم يأكل يشكر، لأن الأصيل يعوّد لسانه الجميل.

- اجعل العلم والصناعة والأعمال العالية للمجد رونقًا، وفي الكل اجعل الحق محورًا، والمروءة نظامًا، والنفع العام أساسًا.

- جالس الحكماء، وصاحب العلماء، وخذ من كل مشهود ومسموع حكمة ترفع الهمة، ولا تعظ وتبقى غير متعظ، فتكون كالمنخل يلقي لغيره الدقيق، ويبقى له النخالة.

- لا تكن في ورعك فظًا، ولا في إطلاقك سفيهًا، ولا في مهابتك مكروهًا، ولا في بشرك مستخفًا، ولا تنس أنك من الأمة الوسط.

- لا تلفت عنان همتك إلى ما يأخذ بطبعك للتطبع بالدنايا، فإن الطبع سراق، الفت عنان همتك إلى معالي الأمور، فإن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها.

- مُت كريمًا والأجل هو هو والسلام.

تتمة لهذه الخاتمة المباركة

لا تقنط من رحمة الله، واجعل ميزان أعمالك بيدك، أكثر من الحسنات، واقلل ما أمكنك من السيئات، وإنك وإن لم تكن معصومًا فاجهد أن لا تسيء، فإن السيئات

قواطع عن الحضرة، وافرح بالله أن وُفِّقت للحسنة، وابك عليك إن وقعت بالسيئة، واستغفر الله كثيرًا فهو غفار الذنوب، وستار العيوب، وكشاف الكروب، ومفيض النور من الغيوب إلى القلوب، واجعل وسيلتك إليه نبيك الأعظم ﷺ وروِّض قلبك بالصلاة والسلام عليه، أكثر من ذلك في خلواتك وجلواتك، وذكِّر جلّاسك بذلك، وطيِّب سرك بالصلاة عليه - أرواحنا لجنابه العالي الفداء - بهذه الصيغة فقد رأيت لها في الحضرة العظيمة المحمدية قبولًا، ورأيت منها للمعالي دليلًا وهي:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

اللّهم صلِّ صلاة ترضاها ذاتك على سيد أحبابك روح جسمي الأزل والأبد الذي مددته بمددك، وأيدته بروحك، وحققته بمحبتك وأعطيته حتى رضي، فهو عنك راضٍ، وعندك مرضي.

اللّهم بحنين روحه الطاهرة إليك، وبطيران قلبه المبارك عليك، وبوقوف سره الرحموتي في خلوة الجمال بين يديك.

اللّهم بجمالك بجلالك بقدسك بقدرتك بعظمتك بجبروتك برحموتك بسلطانك بعظيم شأنك تول أمري. يسّر أمري. احلل عسري. اشرح صدري. أيّد رغم أعدائي بيد معونتك عزي وقدري، انظرني بعين الرحمة التي تجليت بها على عبدك ونبيك سيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين، وعبادك الصالحين. الغارة الغارة، الوحا الوحا، يا الله يا الله يا الله، يا هو يا هو يا هو، يا مجير المستجيرين، يا أرحم الراحمين، يا حاضر يا ناظر، يا معين يا قادر يا علي يا عظيم أغثني بفضل بسم الله الرحمٰن الرحيم والحمد لله رب العالمين.

ولتكن هذه الصيغة الشريفة المباركة غاية التتمة، وخاتمة الخاتمة، والله المسؤول أن يمن علينا وعلى المسلمين أجمعين بحسن الخواتيم، إنه هو البر الرحيم، المعين الكريم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

صَوتُ النهزار

وَزَيْقُ العذار

تأليف

قطب العارفين السيد محمد أبي الهدى الصيادي الرفاعي

المتوفى ١٣٢٨هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على سيّدنا وسندنا، وشفيعنا ونبيّنا، محمد سيد سادات المُرسَلين، وتاج النبيّين المكرمين، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه المرضيين.

أما بعد:

فيقول العبد الفقير إلى رحمة الربّ القدير، محمد أبو الهدى، ابن المرحوم السيد الشيخ حسن وادي أفندي المكنّى بأبي البركات الصيادي الرفاعي الخالدي، شيخ المقام العامر الصيادي، والدركاه العلية الرفاعية، ونقيب أشراف حلب، أوصله الله إلى حضرة قبوله بكل سبب، آمين، وغفر له ولوالديه وللمسلمين أجمعين. هذه رسالة ظريفة، وقلادة درٍّ لطيفة، كأنها لحُسْن فصولها، روضة بديعة أزهارها، ولذلك سمّيتها: (صوت الهزار وزيق العذار) جعلتها تسلية للخاطر الفاتر، وقد تسكن الخواطر، بمطالعة ما في الدفاتر، وقد صارت مع صغر فيها مجموعًا جامعًا، وعقدًا ساطعًا، كأنما فيه قول القائل:

ومجموع كعقد الدرّ لطفًا ... على تفضيله الإجماع يعقد
يطابق كل معنى فيه حُسْنًا ... فمجموعًا تراه وهو مفرد

وهذا إبان الشروع، بنسج وشي هذا المجموع، وعلى سبيل التحدّث بنعمة الله تعالى أقول: لم أستعر فيما نسقته في هذه الجمل، قول زيد، ولم أدمج في سدوتها أفكار عبيد، بل هي من المبتكرات الأحمدية، والسنوحات التنزلية، وقد يوجد فيها من الاستدلالات، أو العبارات العلميات، من كلام السالفين، والأئمة الماضين، ما لا بد منه، ولا محيد عنه، فهو من ملتقطات الدّرر التي تنظم بسلكها، وتمزج بحبكها، والله المعين. من المعلوم عند أُولي العلوم أن الإيمان بالله، والوقوف عند حدود الله، والتمسك بما شرع الله، أجلّ ما يُقتنَى، وأشرف

ما يُدَّخر للآخرة والأولى، وبعد هذا. فالقناعة كنز لا يفنى، وقد قال بعض الحكماء:

اقنع هديت من الدنيا بأيسرها ... لتستريح من الأهوال والكرب
فكم فقير بها قلّت متاعبه ... وكم غنيٍّ بها في غاية التعب

والقناعة ليست بالبطالة، كما يفهم ذلك أخو الجهالة، وإنما القناعة التخلي في جميع المساعي، عن الحرص والطمع، ودناءة الهمّة وارتكاب المحارم في السعي، لاستجلاب الرزق، وما أقبح حال من تحلى بحلة الزهد ظاهرًا، وكان كاذبًا في حاله باطنًا، فلفته الدرهم والدينار، عن مراضي الملك الجبار، فخبط الحلال بالحرام، وقعد على بساط غرضه وقام، ونسي أن الدنيا أضغاث أحلام، وظن بالزائل الدوام، فمثل هذا الرجل بعيد عن ساحة العرفان، قريب من وهدة النقصان، وبمثله يقال، ويصدق من قال:

عجبت من عمرو ومن زهده ... وذكره النار وأهوالها
يأنف أن يشرب في فضة ... ويشرب الفضة إن نالها

ومن أشرف خلال الرجال، التواضع عن رفعة، وفي الخبر عن النبي الطاهر الأبر ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله».

تحفـة:

قال الإمام شيخ الإسلام، السيد سراج الدين الرفاعي، ثم المخزومي رضي الله عنه، يذكر تواضع الإمام الكبير، السيد أحمد الرفاعي الحسيني، أبي العَلَمين، المشتهر الذكر في المشرقين والمغربين رضي الله عنه:

تواضع كالهلال أقام رسمًا ... بلوح الماء من قمم القباب
خضوع جاء عن عز منيع ... كذلك طور آل أبي تراب

والتواضع لا يكون إلا عن شرف في النفس، وأدب في الطبع وتهذيب متمكن من الطور، وعلم فارق بين الحسن والقبح، والكبر لا يكون إلا عن خسة مضمرة في النفس، وسوء أدب في الطبع، وخشونة أصلية في الطور وجهل لا يميز صاحبه بين القبيح والحسن ويعجبني قول حكيم، الناس ثلاثة: رجل فوقك فتكبرك عليه حمق، ورجل مثلك فتكبرك عليه ظلم، ورجل دونك فتكبرك عليه لؤم، ومن كرم المرء حفظه الود. كيف لا وقد قال صاحب الخلق العظيم عليه أفضل الصلاة والتحية

والتسليم: «إن الله يحب حفظ الود القديم»(١) وقد قلت:

يكلف كل ذي مجد صميم بحفظ العهد والودّ القديم
ولم يحفظ قديم الودّ إلّا كريم قد تنسل من كريم

ولي من فكاهات الغرام وهزات الكرام كلمات نظيمات وكم درر نظيمة في كلمات:

حفظت هواك عن ود قديم وما أدراك ما الود القديم
وليس سواك أرمقه بعيني ولا لسواك أقعد أو أقوم
كأن لمقلتي ولعين قلبي صراط نحو وجهك مستقيم
فلا تجهل ضخامة مجد مثلي فقلبي في الهوى القلب السليم
إذا ما قستني بسواي طيشًا ظلمت فإنني الخِلّ الكريم

وقالت العرب: حفظ الود القديم من المروءة، وقد جاء في الخبر أن أولى الناس بالمروءة من له بنوة النبوة. ومن كلام بعض عظماء البادية من كرام الأعراب حفظ الوداد كحفظ الحياة عزيز، وأشرف من كل لذة استرضاء كريم وأشد من كل بلية مداراة لئيم. وأغلظ مرة الحسن بن أبي الهيجاء على أخيه سيف الدولة على أنه أكبر منه فكتب له سيف الدولة وقد أجاد:

لست أجفو وإن جفوت ولا أترك حقًّا علي في كل حال
إنما أنت والد والأب الجا في يجازي بالصبر والاحتمال

أخذ قوله إنما أنت والد من حكم الحديث الشريف: «الأخ الأكبر أبٌ» ولا بدع فقد قلت الأصدقاء وكادت تمحى آثار صدق الإخاء وندر الكرام والنادر لا حكم له وصارت شيمة المروءة مع ما فيها من الحسن مشكلة وأي مشكلة ولكون النادر كالمعدوم قال بعض أعاظم أولي الفهوم:

دع الناس طرًّا واصرف الود عنهم إذا كنت في أخلاقهم لا تسامح
ولا تبغ من دهر تظاهر زيفه صفاء بنيه فالطباع جوامح
وشيئان معدومان في الأرض درهم حلال وخل في الحقيقة ناصح

(١) رواه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٤/ ١٩٠)، وأورده المناوي في فيض القدير (٢/ ٢٩١).

وقد قلت من قصيدة طويلة ذات معانٍ جميلة:

مضت وانقضت واحسرتي حفل الوفا فلا الماء سيال ولا الربع مزهر
على الظن قد يجفو الصديق وأين من إذا أذنب الإخوان يعفو ويغفر

قال ابن عباس رضي الله عنه: لما ذرأ الله الخلق صفهم بقدرته ثلاث صفوف فجاء وجه لوجه ووجه لظهر وظهر لظهر فبعد أن جاؤوا إلى الدنيا صار من جاء وجهه لوجه الآخر محبًا له بلا سبب، والذي جاء وجهه لظهر الآخر صار الأول محبًا والثاني معرضًا، والذي جاء ظهره لظهر الآخر صار كل منهما معرضًا عن الآخر، ويؤيد هذا ما روته السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وعن أبيها مرفوعًا عن النبي ﷺ: «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

قلت: قد برز في عالم العيان سر ما أضمر في بطن الكيان وأنتج التعارف الأول الائتلاف والتناكر الاختلاف وحسن قوله من قال لحبيب له:

بيني وبينك في المحبة نسبة مخفية عن كل هذا العالم
نحن اللذان تعارفت أرواحنا من قبل خلق الله طينة آدم

وفي سر التعارف معانٍ رشيقة ولطائف رقيقة لا يحجبها حجاب الوجود وكثائفه ولا يمنع بارق نسيجه ستر الكيان البارز وسجائفه، فإن الروح إذا اتجه سرها لحقيقة كشفها ولو هي غامضة، والأدلة الصحيحة في هذا قائمة لا تقبل المعارضة وكريم الولادة إذا صافى ما خان وإذا أعز في قلبه ما أهان، وقبيح الولادة كالحرباء أو كالماء يتلون بلون الإناء هو مع الزمان لا مع الخلان والإخوان، والحال أن أمير المؤمنين أسد الله الكرار الأعظم سيدنا علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه يُروَى عنه أنه قال:

صديقك الذي بأمريك معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صرعك شتت شمل نفسه ليجمعك

وقال سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه:

اصحب من الإخوان من قلبه أصفى من الياقوت والجوهر
ومن إذا سرك أودعته لم يظهر السر إلى المحشر
ومن إذا أذنبت ذنبًا أتى معتذرًا عنك كمستغفر
ومن إذا ما غبت عن عينه أزعجه الشوق ولم يصبر

لطيفة:

كان الإمام الجنيد رضي الله عنه يتكلم على الناس فقال:

الحب لا يصبر عن حبه أكثر من يوم ويومين
وقد صبرنا عنكم برهة ما هكذا حال المحبين

فقام له شاب من أطراف المجلس وقال له: ما أجفاك يا شيخ أما أنا فأقول:

الحب لا يصبر عن حبه أكثر من طرفة العين
وقد صبرنا عنكم ساعة ما هكذا حال المحبين

فبكى الإمام الجنيد واستلطف قول الشاب وصار في المجلس حال عظيم، والحق يقال شرط المحبة دوام ملاحظة المحبوب والفتوة الصفح عن عثرات الإخوان ورحم الله القائل:

خير الجليسين من أغضى لصاحبه ولو أراد انتصارًا منه ما انتصرا

ولطيف أيضًا قول من قال:

وكنت إذا الصديق أراد غيظي وأشرقني على حنق بريقي
غفرت ذنوبه وصفحت عنه مخافة أن أعيش بلا صديق

سُئل بعض الأعراب عن الخليل الذي يصادق فقال للسائل: لا تستنعته فإنك لا تجده، قال: انعته لي لأتمناه، وإن كنت لا ألقاه قال: اتخذ من ينظر بعينك، ويسمع بأذنك، ويبطش بيدك، ويمشي بقدمك، ويخطر في هواك، ولا يرى سواك. اتخذ من إن نطق، فعن قلبك يستملي، وإن هجع فبخيالك يحلم، وإن انتبه ففيك يلتذ، وإن احتجب كفاك، وإن غبت عنه ابتداك. يستر فقره عنك لئلا تغتم له، ويبدي بشره لك لئلا تنقبض عنه. قلت: وما أقل مثل هذا الصديق، وعندي أن الصديق من يعرف شيمك، ويصون وجهك، ويحفظ غيبتك، ويرعى ودك، ولا يكتم حقك، وينهض بك في مهماتك ورحم الله ابن أبي الصقر الشافعي فإنه كتب لبعض أحبابه وقد صار قريبًا من ملك زمانه فلم يحفظ له العهد ولم يرع له الودّ.

من قال لي جاه ولي مكنة ولي قبول عند مولانا
ولم يعد هذا بنفع على خلانه لا كان من كانا

وهنا نكتة عجيبة، ونقطة في صحيفة الشؤون غريبة، وذلك أن دنيء الطبع لا يرضى له خلّاً إلّا كل دنيء يوالي اللئام، ويعادي الكرام، يجنح إلى اللئيم وإن عاداه، ويجرح قلب الكريم ولو والاه، فمثل هذا لا يوالى، ولا يطلب منه أن يوالي بل يترك وشأنه لحبالى الليالي ولا يكون عتاب الشهم إلّا على رجل عظم شممه وزكت شيمه وتمكن في سدرة مكارم الأخلاق قدمه. ومثل ذلك الكريم الشيم الرصين القدم، يعذب لديه العتب، ويعد نفسه تجاه أحبابه مذنبًا، وإن لم يكن له ذنب، وهو الرجل الذي تعبق بالمسك خصائله وتعشق شمائله. إن هفا ندم فغسل شائبة الهفوة بوابل الإحسان والصفا، وجلى حندس العثرة بضوء شمس الإخلاص والوفا، وإن أساءه الصديق قَبِل عذره قبل أن يعتذر له وصفح وعفا، ولعمري هذا هو الذي إن حضر يعزّ ويوقر، وإن غاب بلسان التعظيم يذكر، تحنُّ الروح إليه، وتهمل العين عليه، على رأي الوزير المهلبي رحمه الله في قوله:

قال لي من أحب والبين قد جد   وفي مهجتي لهيب الحريق
ما الذي في الطريق تصنع بعدي   قلت أبكي عليك طول الطريق

كانت لعبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنه أرض مجاورة لأرض معاوية رضي الله عنه، وكان في كل أرض عبيد لعمارتها، فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله واغتصبوا منها قطعة فكتب عبد الله إلى معاوية وهو يومئذٍ الخليفة في الشام: أما بعد يا معاوية فإن عبيدك قد اغتصبوا أرضي فمرهم بالكف عنها وإلّا كان لي ولكم شأن. فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه لولده يزيد فلما قرأه قال له معاوية: ما تقول يا يزيد؟ قال: ابعث له جيشًا يكون أوله عنده وآخره عندك يأتوك برأسه وتستريح منه، فضحك معاوية وقال: عندي غير ذلك ثم دعا بدواة وقرطاس وورق وكتب له: أما بعد وقفت على كتابك يا ابن حواريّ رسول الله ﷺ وساءني والله ما ساءك، والدنيا وما فيها هينة في جنب رضاك وقد كتبت على نفسي مسطورًا وأشهدت الله تعالى فيه مع جماعة ممن حضرني أن الأرض والعبيد الذين فيها ملكك دوني فضم الأرض إلى أرضك والعبيد إلى عبيدك والسلام. فلما وصل الكتاب إلى عبد الله وقرأه كتب عليه: وقفت على كتابك يا أمير المؤمنين لا أعدمني الله بقاءك ولا أعدمك هذا الرأي الذي رأيته وأحللته هذا المحل والسلام. فلما وقف معاوية على هذا الكلام دفع الكتاب إلى ولده يزيد فلما قرأه تهلل وجهه فرحًا فقال معاوية: يا بنيّ إذا بليت بشيءٍ مثل هذا فداوه بمثل هذا الدواء، وإنا قوم لا نرى في الحلم إلا خيرًا وهنا جمل لطيفة: (تذكر

شيئًا من أسرار الأخلاق، والحكم للخلّاق)، فهو الذي طبع الطباع ووضع فيها الأسرار وقسم بحكمة عدله قومًا إلى الجنة وقومًا إلى النار، ووهب للعبد مع خلقه الإرادة الجزئية ليرى طريق الخير فينصرف إليه ويرى طريق الشر فينصرف عنه ولا يعوّل عليه، وأقام سر الإرادة في العقل وصرفه في طوري المرء في الوصل والفصل وجعل الأخلاق الكريمة بابًا للسعادة ومشعبًا للعز والسيادة، فذو الخلق الحسن عيوبه مستورة وذنوبه لدى أهل العرفان مغفورة وذو الخلق السيىء حسناته سيئات ولو أتى بجميع الصالحات والفاسق الحسن الخلق أهنأ لدى العاقل من العابد السيىء الخلق، ولا بدع فإن من امتنّ الله عليه بالخلق الحسن فقد كتب له منشور القبول عند الناس رغم أعدائه وحساده وجعله من الممتعين بنعمته سبحانه أين كان في بلاده وبين عباده. وذو الخلق السيىء مكروه عند أهله وخلانه وأقاربه وإخوانه معدود في الحجر والمدر ولو نطح القمر وكيفما علا سيىء الخلق فهو في عين الخالق وضيع وفي أنظار المخلوقين دون الجميع، ولن يغتر العاقل بسيىء خلق ضحك عليه الزمان فأنزله منازل الكرام أولي الفضل والعرفان فما كل عليٍّ قاتل مرحب، ولا كل كواكبيٍّ منسوب للكوكب وفي الحقيقة حيرة الكريم بمصاحبة اللئيم، ومن الحكمة والإنصاف أن يعرف العاقل الأشياء بمقاديرها فلا يحط قدر محبة صحيحة الأساس، ولا يعتني برفع شأن محبة كاذب مبنية على الوسواس، فإن الخب يظهر الحب وليس بمحب وتلك سمة أهل النفاق وسيرة أرباب البغي والشقاق ورحم الله أبا نواس فقد قال:

وما الناس إلا هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدوٍّ في ثياب صديق

نعم ترى الكريم يعرف الحقائق وكأنه لم يعرفها ويختطف بقوة الفكر رقائق أسرار الناس وكأنه لم يختطفها:

ليس الغبيّ بسيد في قومه ... لكن سيد قومه المتغابي

وكم في لباب هذه الشؤون من أمور يحنّ لها الجلمود ويشيب لها المولود، فقد تنقلب الحقائق ولا يدرك ما تحتها من الرقائق فيرى الكريم لئيمًا واللئيم كريمًا والصدوق كذوبًا والبعيد قريبًا وما أحسن قول الأمير أسامة بن منقذ:

وما أشكو تلوّن أهل ودّي ... ولو أجدت شكيتهم شكوت
مللت عتابهم ويئست منهم ... فما أرجوهمُ فيمن رجوت

إذا أدمت قواصمهم فؤادي كظمت على هواهم وانطويت
وجئت إليهمو طلق المحيا كأني ما سمعت ولا رأيت
تجنوا لي ذنوبًا ما جنتها يداي ولا أمرت ولا نهيت
ولا والله ما أضمرت غدرًا كما قد أضمروه ولا نويت
ويوم الحشر موعدنا وتبدو صحيفة ما جنوه وما جنيت
سيحكم بينهم ربي وبيني فويل للخصوم إذا ادعيت

لطيفة:

كنت في ديارنا الحلبية في قرية كل أهلها ينتمون للطريق الأحمدي لسيدي الوالد الماجد قدّس سرّه ففي أثناء الكلام أنشدت بالمناسبة قول القائل:

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديـ ـق فكان أعلم بالمضرة

فالتفت إليّ رجل قروي هناك وقال لي: يا ابن شيخي نحن رضينا بقول الصديق حين ينقلب بشرط أن لا يكذب. فما ألطف هذا المعنى وهذا زمان فسدت فيه الأخلاق وصار لسوق الكذب نفاق وأي نفاق، والحال أن النبي الأعظم ابن عبد المطلب ﷺ قال: «كل خَلة يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب»[1]. ومن حكم السياق الأول ما رواه سيدنا وملاذنا سلطان الأولياء عقد قلادة الحكماء مولانا الإمام الرفاعي رضي الله عنه وعنا به في كتابه البرهان المؤيد متمثلًا:

وكنت أظن أن جبال رضوى تزول وإن ودك لا يزول
ولكن القلوب لها انقلاب وحالات ابن آدم تستحيل

قلت: لا ريب أن القلب تأخذه شؤون والعقل تلعب به من تقلبات الأيام فنون ولا يثبت بين هزات تلك الشؤون والفنون إلا الكرام المتمكنون (وهنا رقيقة عجيبة، فيها دقيقة غريبة) وتلك إني والحمد لله من أفلاذ آل رسول الله ﷺ، وسيأتي لهذا بحث نسبي رقيق يخجل أزهار الروض الأنيق، وإني أحب الله تعالى ورسوله ﷺ وأسمح بروحي لأجل غبار نعال النبي الكريم عليه من الله العظيم أفضل الصلاة

(١) رواه الضياء المقدسي في المختارة (٣/٢٥٨)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/١٢١)، والقضاعي في الشهاب (١/٣٤٥)، وأبو يعلى في مسنده (٢/٦٧)، وفي فيض القدير (٥/١٩).

والتسليم. وقد جردت نفسي لفعل الخير وإسداء المعروف للقريب والغريب والكبير والصغير بل ولكل فرد من أفراد الآدميين على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم حسب الإمكان، كما أمر بذلك سيدنا حبيب الرحمٰن عليه صلوات الملك الديان ما لمع القمران واختلف الملوان وكر الجديدان، وقد أرى من البعض بغضًا لي من غير سبب وقد ناوأني أيضًا الكثير ممن أسديت لهم المعروف بالعداوات، ونصبوا لي حبال الأذيات، فكما أني صرت من نكتة هذا السر في تعب، فكذلك من كيفية بروزاته في غاية العجب. نعم قال سيد أهل المناقب عليه صلوات الله ملء المشارق والمغارب: «من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب» وقد نقل عن أحد رجال حلقة الإمام الحسن البصري رضي الله عنه أنه تفكر ليلة وهو في البصرة أكثر ليله في حكمة هذا الحديث الشريف فلم يظهر له سر الحكمة، وكان يمشي على السطح فذهل وهو يمشي فسقط من أعلا السطح إلى الأسفل فانكسرت رجله فازداد تعجبًا، فما كان بعد ثلاثة أيام إلا ونادى منادي الوالي على كل من يقدر على المشي أن يلتحق بجيش ابن زياد لقتال سيدنا الإمام الحسين الشهيد رضي الله عنه وسلام الله عليه، فلما رأوا الرجل على هذه الحالة تركوه في بيته، ثم وقعت واقعة كربلاء التي أذلت رقاب المسلمين وأحزنت قلوب المؤمنين إلى يوم الدين، فلما انكشف للرجل هذا السر حمد الله تعالى وأثنى عليه إذ لم يكن محاربًا لسبط رسول الله ﷺ مع أعداء الله. وقال: صدق رسول الله عليه أجلّ صلوات الله وتسليمات الله. وعلى هذا فلا أشك في أن بعد من أبعدهم الله عني وسلط ألسنتهم بالسوءِ عليّ هو أمر تأتي غايته بمحض الخير والبركة إليّ فإنهم يخوضون في الزور والبهتان، ويتجرؤُون عليّ ببحت الظلم والعدوان فتزداد عليهم سيئاتهم وتجيءُ إليّ حسناتهم ويكون النصير عليهم لي الله وحسبنا الله وكفى بالله وليًا ولا إلٰه إلا الله.

حكمة شريفة:

يجب على العاقل العارف إذا طلسم عليه أمر فما فقه معناه وما فهم فحواه أن يصبر حتى ينتهي إلى أوانه ويرجع إلى إبانه، فتنحل عروة القدر بالقدر وتظهر أسراره للبشر، وتبدو أحكام المعاني بشكل الصور، وإذا وقف مع القدر وجعل العقل درعًا والتدبير سلاحًا، وكان معهما في صف والأمل في صف وعارك الأمل بالعقل والتدبير وبقي منتظرًا سر التقدير معتقدًا مع سعيه وإعمال عقله، وبذل تدبيره حكم العقل والتأثير للواحد القدير، حتى إذا انجلى له سر القدر وقف معه وترك عقله وتدبيره ورضي بحكم الله وتقديره. فذلك العاقل البصير واللوذعي النحرير. وبهذا يضحك على بعض خبلة

الفلاسفة وأرباب الزيغ والمخالفة الذين يقولون بعدم القضاء والقدر ويجحدون النص والخبر، (وما عليّ إذا لم تفهم البقر). هذا وقد قامت الدلائل الواضحة وأفصحت البراهين الراجحة وبرزت الدلالات الصالحة على شرف الأدب الديني والعلم المبارك المحمدي، وفيه مصالح الدنيا والآخرة ومنافع الأمور الباطنة والظاهرة، ولا عبرة بذي زيغ ضل وأضل وانقطع عن الله وبالأغيار اتصل، والعلم ما أثبت للمرء في قلبه نورًا وفي حاله ظهورًا وإن كان في طي الخفاء مستورًا. وقد قال قائلهم:

كن عالمًا وارض بصف النعال ... لا تطلب الصدر بغير الكمال
فإن تصدرت بلا آلة ... يكون ذاك الصدر صف النعال

وقد ابتلينا اليوم بأناس لا يفرقون بين الفن والعلم ولا بين الحُلم والحِلم، يتعلم أحدهم لغة أجنبية ولم يقف على غوامضها بالكلية ويطلع على مادة فنية فيعدو لجهله على النظريات وينقلب عن المناهج الدينيات فيسير في طريق ظلمة أوهامه لبعده عن العلم بالدين وأحكامه، فيا ليته لو سأل أهل الذكر الذين كشفوا من رقائق العلوم غوامض السر وسمع منهم وتلقى عنهم، وهنالك يقف فلا يمزج النظريات بالفنيات والصناعيات على أن الفن والصناعة وما ينتج عنهما من مادة أو أسلوب إداري ملكي أو تجاري كلها من لوازم العقل، وطريق العقل واحد لا فرق فيه بين المسلم وغيره ولا بين الشرقي والغربي، بل غاية ما يقال أمة اشتغلت فحصلت وأخرى كسلت فحرمت وأهملت، وقد حثنا الدين على ترك البطالة، وعلمنا سيدنا صاحب الرسالة، شملته نوافح الصلوات وآله ورجاله ومقاله بعد كلام الله أصدق المقال بنص قوله الشريف: «إن الله لا يحب العبد البطال»[1]. وقال تعالى وفي ذلك عبرة لمن وعى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: الآية ٣٩] فعلى المسلم أن يتحقق بدينه كل التحقق وأن يتخلق بأخلاق نبيه كل التخلق، وأن يتعلم الفنون اللازمة لوقاية الإخوان والأوطان وأن يحث إخوانه المسلمين على تعلم الصناعة التي يمكن بها رفاه الأمة وصيانتها من الأغيار أولي البغي والعدوان، سيما في هذه الأزمان التي هبت فيها بقلوب أعداء الأمة هبة الحرص على ابتلاعها وإسقاطها لا قدر الله عن شامخ ارتفاعها بكمال الحرص والشره والميل لذلك كل الميل والله تعالى قال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] فالقوة تشمل كل ما يقتضيه لمقاومة الحال في البراري والبحار والجبال، ومَن تبحّر في علم الشريعة يعرف ما لها

(١) لم أقف على تخريجه.

في هذا الباب من الأحكام، التي أحكمت شأن العمل كل الإحكام فإذا ألقى الجاهل عيب الباطلة على الشرع فقد نادى على نفسه بالحمق وغلظة الطبع. ولنا في هذه المباحث الشريفة كتاب سميناه «نور الإسلام» فليطالعه من يريد التوسع بعلم الحقائق الدينية والرقائق الشرعية، وعلى كل حال فالكريم لا يزيغ في المعتقدات، وإن ألقت به النفس في وهدة الشهوات، بل لا ينسى الله ولا يهمل ما آل إليه جل علاه، يعظم حكم التوحيد، ويجل شأن القرآن المجيد، ويرعد قلبه لمهابة نبيه السعيد يقول بإعظام مقادير الآل والصحابة والأنصار والقرابة والتابعين وتابعيهم والأولياء والصالحين وذراريهم ووارثيهم، يعتقد ما جاء به الشرع الشريف بلا جدل فكر وإذا اجتذبه الشيطان للجهل بحكم يقمع الشيطان ويسأل أهل الذكر عملًا بما جاء في الكتاب المكنون: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: الآية ٤٣] وإذا لم ير من يزيل له في الحكم الذي لم يفهمه جهله يصبر ليقع على العالم العارف الحكيم ويفهم بعدم الفهم عقله. قال سيدنا ومولانا الإمام الأكبر والغوث الأجل الأشهر السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه، في كتابه البرهان المؤيد كل دين لم يحط بالعقل فليس بدين، وكل عقل لم يحط بالدين فليس بعقل، يريد رضي الله عنه أن الأمر بين وحكم هذا الدين حكمته واضحة والنبي ﷺ لم يمتحنا بما تعيا العقول به، والله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٦] وقال جلت قدرته: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحَجّ: الآية ٧٨] وهنا تحفة شريفة طريق العلم بالله تعالى من وجهين: الأول طريق السمع منه وممن سمع منه فجعله سفيرًا بينه وبين خلقه، والسفراء هم الملائكة ثم الرسل عليهم الصلاة والسلام. والثاني طريق الدليل والنظر الذي يحصل من البرهان العقلي فطريق السمع يكمل به النور بالتعبد وعلى العقل تمام التسليم، والانقياد حتى يظهر له سر المعرفة بالله بدليل قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٢] ولا يقبل العمل إلا بالإخلاص والتنزه عن فساد القلب والخاطر والنية، فإن الرياء أو قصد الشهرة والسمعة وأمل اكتساب الصيت والمدح وأمثال ذلك يهدم العمل ويدخل عليه العلل والله تعالى قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزُّمَر: الآية ٣] وشرط العمل أن لا يشاب برأي، بل يؤتى به كما شرع الله لعباده على لسان نبيه ﷺ، وأن تستحكم قاعدة العمل بالاعتقاد السليم والإيمان الصحيح بكل ما نطقت به الكتب الإلـهية وأخبرت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، وكل ذلك في الكتاب العزيز أعني القرآن وفي الشريعة الزهراء التي بلغها رسول الرحمـٰن عليه

صلوات الله وتسليماته في كل آن وزمان. وطريق الدليل البرهاني والنظر العقلي تحصل ثمرته وتكمل نتيجته بالتفكر في المخلوقات والاعتبار بالمصنوعات ورد طبائع الآثار إلى غاية تقف عندها فإذا سلسلت وبلغت الغاية الأولى، رجعت إلى الصانع فيشاهد حينئذٍ العقل بذلك ما صدق به القلب ويقوى تصديق القلب بمشاهدة العقل فإذا بلغ العاقل تلك المرتبة الظاهرة البرهان الواضحة البيان، وقف عن التفكر في ذات الصانع سبحانه لأن الحادث لا يبلغ كل العلم بالقديم، والعاجز لا يصل إلى منصة الإحاطة بالقادر، وهناك يقال: «العجز عن درك الإدراك إدراك والخوض في ذات الله إشراك» ويرجع إلى طريق السمع فيؤمن بأن الله موجود قديم أول بنفسه غني عن غيره باق أبدًا واحد أحد فرد صمد لا ثاني معه ولا شيء مثله، ولا ينسب لا إلى جسم ولا إلى عرض ولا يعزى إلى جهة، حي عليم قادر على ما يشاء لا يمتنع عليه شيء، مريد لما يشاء سميع بصير آمر ناهٍ زاجر سار تصرفه وفعالة قدرته ونافذة أوامره في مخلوقاته كلها، متحركها وساكنها خفيها وجليها علويها وسفليها باطنها وظاهرها. قديم الصفات منزه عن سمات الحادثات سبحان الله عما يصفون. تجري آثار قدرته في المخلوق من حيث لا يعلم وتبرز أسرارها في حركاته وسكناته ويتكلم فيه لسان القدرة وهو كالأبكم. خواطر المرء وشؤوناته سيارة في برزخ الحكم وهو بها جاهل وعنها غافل، وليس للعاقل إلا الإيمان به والالتجاء إليه والتوكل عليه، وقد أقام شواهد وجوده الأقدس في الإنسان فأبدى فيه لطائف كثيرة يقول العقل بوجودها ويعجز عن إنكارها ولا يقدر على إثبات كيفية لها، منها الشم والذوق والسمع والبصر والحسّ والقوة المفكرة المخيلة والقوة الحافظة الذاكرة والخاطر البارز بلا سبب والكلام الخفي الناطق في السر والمسامر للعقل بلا صوت ولا حروف، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: الآية ٢١] فمن كان من ذوي النظر والاستدلال وصرف سلطان عقله في حكمة هذا المقال علم وجود الواجب الوجود بالضرورة وعجز عن الكيف والأين بالضرورة وهناك قال: آمنا بالله وبما جاء من عند الله، ومن صح إيمانه بربه سبحانه آمن بكتبه وملائكته ورسله وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، والتفت مع الإرادة الجزئية التي أحسنت في عالم خلقه إليه فوجه عزمها وعزيمتها للأفعال المرضية وطلب الحق بالحق وأصلح السريرة مع الله ومع الخلق وكف الأذى عن الناس وتخلص من ربقة الفساد ووهدة الوسواس وعظم الناس على طبقاتهم وأنزلهم منازلهم وما هضم حقوقهم. عرف للكبير إعظامه وللصغير مقامه وحنا على الفقير العديم ورحم العاجز

والغريب واليتيم وعفا عمن ظلم وتذلل لله في الظلم وأحسن لمن أساء وما نسي قدرة الله الذي يقلب النور ظلامًا والغنى فقرًا والموجود معدومًا، ويتصرف فيقلب كل حال إلى ضده، ولا سواه يتصرف في كل هذه الشؤون بل ولا في المرء لا في أخذه ولا في رده، وإذا طرقته الغفلة تذكر وإذا دهمه القدر بالذنب ندم واستغفر ورأى نفسه شيئًا صغيرًا حقيرًا في قبضة قادر كبير، ووقر الكبير ورحم الصغير وعامل الخلق بحسن الخلق وحفظ الحقوق وقام بشعائر الوفاء وترك الغلظة والجفاء وعلت همته عن الغش والخديعة وتباعد عن المكر بالناس واستعمال الوقيعة، وبذل من ماله وجاهه لله وشرقت مناهجه في محبة الله وجالس الكرام وتباعد عن اللئام وجعل الأدب طريقًا والحياء رفيقًا والرفيع الهمة الكريم النسب صديقًا، وعظم شعائر الله واحتفل بخدام شريعة رسول الله عليه أكمل صلوات الله واحترم أولياء الله فعظم شأن ذراريهم ووقر تابعيهم ومن يلوذ بهم، ونظر الناس بما أقامهم الله فيه فحفظ مقادير العقلاء والعظماء وكرم الشيوخ والعلماء وأعان ذوي المجد والكرماء وما جحد مزايا الفضلاء والبلغاء، وتحقق بالصدق والأمانة وتباعد كل التباعد عن الكذب والخيانة وخاطب الناس على قدر عقولهم وقام بالمداراة وقورًا غير مداهن وباللين صادقًا غير منافق، وإذا قيل له صدّق وإذا قال صدق وابتعد ما أمكنه عن مواطن التهم وانجمع كل الانجماع عن أهل الزيغ والزندقة ودناءة الهمم وعرف في كل الشؤون الدينية والدنيوية ما له وما عليه وقدم من الخير ما استطاع بين يديه وإذا أذنب أتى بحسنة عملا بسر ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هُود: الآية ١١٤] وصان مروءته وحفظ مجد أهله في الحركات والسكنات والقوليات والفعليات، وقدم عليه من كان أسن منه حرمة لسنه سيما إن كان من أهله وعشيرته وقومه وقبيلته وتواضع لأهل الشرف وتكبر على أهل الكبر والسرف ووقف عند حده وما قابل الجميل إلا بضده، وفرش لأقدام المنعم عليه حر خده وترفع عن مال زيد وعمرو وانتظر من كرم الله الثروة ولو كان في أشد الفقر، وطرح الحرص والشح والهوى المتبع واتبع في الأعمال وما ابتدع، وتحلى بحلية التقوى والأدب، وما أخطأ طريق العمل اعتمادًا على النسب، ورأى المدني والبدوي والوضيع والعلي بعين الحرمة ولكل منهم عنده مقام معلوم، وهجر من يسوقه إلى الفساد والعناد والطور المذموم، وسعى في جبر القلوب ما أمكنه وجعل بشر الوجه ولين الكلمة وبذل البر خلقه وديدنه، وإذا رأى عملًا يعمل لله كذكر أو فكر أو مجلس علم شارك أهله وأخلص في عمله، وعلق بالله كل أمله، وعزف قدر النعمة بأسبابها، واحتفل بشأن نبيه ﷺ

ودينه ودخل البيوت من أبوابها. فإذا عمل ذلك وتخلق به كان مسلمًا مؤمنًا شهمًا برًا كريمًا، وإن صدّ عن ذلك كان خبًا فاجرًا لئيمًا. وعلى كل حال فالأخلاق تفصح عن حقائق الرجال وفيها قيمة المرء لا محال، والله الفعال في المبدأ والمآل، ورب مفتون في دينه والعياذ بالله رأى الباطل حقًا والحق باطلًا وهدم مجد دينه بتقليد أمة غير الأمة التي نسبه الله إليها وخلقه منها فأهمل أحكام معتقداته، واستحقر ما أخذه عن آبائه من عاداته، يروم بهذه الطامة الكبرى أن يعظم بنظر الأمة الأخرى وما درى أن المرءُ لا يعظم إلا بمحافظة مجد دينه وبيته وقومه في كل زمان وآن، وإن حرف ذلك أولو البهتان، وما تفكر أن الطوائف الأجنبية في الديار الشرقية والغربية، لم تزل تعظم شأن من وقف عند حده وصان قواعد مجده وحفظ عادات أبيه وجده وجهل أن فخر الرجل الحسيب رب المجد النسيب لا يكمل إلا بالتباعد عن كل امرىء انحطت أرومته وسفلت جرثومته وكان حقير العصابة قليل الإصابة ورحم الله القائل:

من عاشر الأشراف عاش مشرفًا ومعاشر الأنذال غير مشرف
ما تنظر الجلد الحقير مقبلًا بالثغر لما صار جار المصحف

وقد يجب على كريم الولادة القيام بإجلال كبراء قومه وعشيرته واحترام من تقدم عليه بالسن منهم، ونقل كل مفخرة عنهم، والشفقة على صغيرهم، وبذل الجهد بإعظام شأن كبيرهم، علمًا بأن ذلك يوجب لفاعله الإجلال، وعكسه يسقطه من منصة الحرمة ويجعله مضغة الأنذال، ويطرحه من عيون أهل الكمال، وينصبه هدفًا للقيل والقال، ويصيره حقيرًا عند أولي العرفان والنظر، ولو نطح بالثروة وعلو المرتبة القمر، ولم يعلم أن الكريم وإن لاكته ألسن اللئام فهو كريم، والعظيم وإن زعم إحقاره كل حقير. فهو في قلب كل عظيم محترم عظيم، ولا يهدم المجد المؤثل بخزعبلات الأنذال، ولا يعلو المرء بمظاهرة الأسفال. وإن الشهم كل الشهم من يقلد قومه ولا يقلد الأغيار، فيرفع راية الفخر لرجاله وإن حاربهم الزمان بكتائب من نار، والخبل من يجعل سوء الأفكار لأغلاطه أساسًا ويصور بأوهامه لسقيم زعومه من المشهودات التي تلحق بالنظر إليه بالمستحيلات قاعدة وقياسًا يعلمه الزمان كليمات فيظنهن كليات ويسمع طنين الذباب، فيتوهم أنه رعد وسحاب، يصاحب الأدنياء ويؤمل منهم الوفاء، ويتبع كل ناعق ويصدق الكاذب ويكذب الصادق، ويهمل قدر النعم الحاضرة، ويهب لاستحصال غائبة صورت له في الخاطرة، ويرعد رعد الصقر وهو بصفة العصفور، ويجسم في مخيلة أوهامه معدومات الأمور، ويزعم مع جهله الفاضح أنه أفلاطون الحكماء، وإسكندر العظماء، ومتنبي البلغاء، ونابغة الشعراء،

وطغرائي الكتاب، وابن جعفر الأنجاب، وكبير وهو صغير، وخطير وهو حقير وحالة كونه على بساط الكناسة، يضحك على نفسه ويريد أن يقنع أنه على سرير الرئاسة. فانظر أيها اللبيب مثل هذا الرجل هل يحسب في الرجال ويعد له شأن بين أهل الكمال بحال من الأحوال. حاشا لا يكون ذلك إذ بالفضل الوسيع تكون السياسة والكياسة، وبالعقل العظيم تتم الرئاسة والفراسة، ومع هذا الفتى يصفح عن عثرات الإخوان، ولا يرى عيبًا للخلان ولقد قيل:

ما كريم مَن لا يقبل عثارا | لحبيب ويستر العوراء
إنما الحرّ مَن يجر على الزلّات | ذيلًا منه ويغضي حياءً

ولندرة الحر الذي تسكن النفس إليه في السر والجهر. قال الإمام الجنيد رضي الله تعالى عنه: لو صحت الصلاة بغير قرآن لصحت بقول الشاعر:

أتمنى على الزمان محالا | أن ترى مُقلتاي طلعة حر

نعم يجب على العاقل أن يداري الناس لقول سيدهم ﷺ «بعثت بالمداراة»، وفي حديث آخر: «بعثت نبيًا مداريًا»[١] والمداراة هي إنزال الناس منازلهم وملاءمتهم بلين الأقوال. ومخالفتهم بما لا يرضي الحق من الأعمال. ولقد قال الحبيب عليه الصلاة والسلام: «أنزلوا الناس منازلهم»[٢]. وقال: أرواحنا لغبار نعاله الفداء: «كلموا الناس على قدر عقولهم»[٣] وإذا ابتلى اللبيب بالخب الجاهل أعرض عنه، وقمع بحكمة الإعراض ما يمكن أن يحدث من سوء الخلال منه. ولن يستخف العاقل إقبال الدنيا على ذي خلق دنيء نتيجة عنصر غير زكي ويقول بعضهم:

إلى الدنيء أرى الدنيا الدنية لا | تزال تدنو وتقصي كل ذي شرف
وطبعها كان هذا في شبيبتها | فكيف وهي غدت تعزى إلى الخرف

وقد قال بعض العارفين: من أراد عزًا كعزّ الملوك وهو في أمراط الفقراء فليتق الله، وليشفق على خلق الله، وليتمسك بسنن الشرع المبين وليعرض عن الجاهلين.

---

(١) لم أقف عليه، وروى أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ١٨٤)، عن مكحول قال: من مات مداريًا مات شهيدًا.

(٢) رواه مسلم (١/ ٦) عن السيدة عائشة بلفظ: «أمرنا أن ننزل الناس منازلهم».

(٣) رواه الحارث بن أبي أسامة في المسند (٢/ ٨٠٤) ورواه الهيثمي، بنحوه. والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٢٥، ٢٢٦).

والحكيم إذا أعيته الحيلة بإصلاح امرئ تركه وهجره، وإذا نابته عضة زمانية آب إلى الله فذكره واستغفره، وغاب عن معضلات ما نسجه الناس من العوائق، واعتاض عن المخلوق بالخالق. وقد كتب سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه وعنا به لحاسد:

ولست أبالي من زماني بريبة إذا كنت عند الله غير مريب
إذا كان سرّي عند ربي منزّهًا فما ضرّني واشٍ أتى بعجيب

وله أيضًا رضي الله عنه وعنا به بيت مفرد وقد ألحقه شيخنا القطب الفرد الكبير السيد محمد بهاء الدين مهدي الصيادي الرواس طاب مرقده ببيت ثان قال نفعنا الله بعلومه:

لكل شيء إذا فارقته عوض وليس لله إن فارقت من عوض
يقال للغير أتباع وطقطقة ما الغير إلّا خيال قام بالعرض

ومن عرف الله، أرجع إليه أمله ومبتغاه، ووقف مع الحق في جميع الشؤون وقال بلسان الأدب: إنا لله وإنا إليه راجعون. وما أعجب حال امرىء رضيت نفسه الحرية التي هي عبارة عن الإطلاق في الأفعال، والخروج عن حيطة الأدب والكمال، وظن أن الوقوف في ساحة الأدب المرضية، والرجوع إلى القواعد الشرعية، هو قيد ثقيل يصعب على العقلاء ويعظم على أرباب الفهوم من الأدباء. وإن هذا الإطلاق الذي هو علة المفاسد للأخلاق، هو الأمر الذي تطيب به قلوب أهل الفضل، وتسكن إليه نفوس أرباب المروءة والعقل، وإن هذا الزعم لخطأ عظيم، وخرق جسيم، ومن الغفلة المدلهمة، المُقعِدة للهمّة، نتيجة فكر سمعته من بعض متعقلي الزمان الذين تزببوا قبل أن يتحصرموا، وذلك أنه زعم الحرية وقال لها أنموذج جميل يبصر ولا ينكر، وهو حال مصر الحاضر، وتبجح بشرح ذلك بكلمات تغير بسماعها الخواطر. فقلت له بعد أن أتم كلامه، وأوضح مرامه: على رسلك أيها الغلام إن مصر على قول بعض المفسرين دار الفاسقين، وإن أنكر ذلك الجلال السيوطي رحمه الله في بعض تقريراته، وردّ ذلك القول بجمل من تحريراته، غير أنها اليوم دار حرية فجور، وموضع فسق غير مستور، ومقر فضائح تضيق لها الصدور، تساوى بها الشريف والمشروف، وضاع بها الأليف والمألوف. وقد يتجرأ الخادم فيها على المخدوم، ويهدم فيها المجد المؤثل بشرارة غرض موهوم، زعم الجهال من ذوي الأفكار السقيمة أن ما فيها من إرخاء العنان للمعاصي والفضائح، والتجاهر بالمثالب والقبائح، هو الحرية. وقد جهلوا حكم الحرية بالكلية، وظنوا أن تسلط الإطلاق على

الحيثيات، والوجدانيات والمعتقدات، هو الإطلاق المطلوب لدفع بلاء الظلم، وما عرفوا أن القيد ازداد في الحكم. فإن المسلم الوطني مهما عظم كالحجر والمدر، والأجنبي كرب الدار والمستقر. وهناك تفاصيل تقشعر لها الجلود، ويذوب لها الحجر الجلمود، من هتك شيم الكرام، وانفلات زمر الطغام، وعجز الوالد الكريم، عن قبض زمام ولده اللئيم، وجعل المرء موثوقًا بسلسلة حاله، عن تأديب أهله وعياله، والتجاهر من الأوباش بما يهدم الحياء من الفعال المذمومة والكلمات المسمومة، والطمأنينة من ذوي الجهل والغفلة المحضة بهذه الحرية الكاذبة الموهومة، وجهلوا أن ما أعطي لهم من الإطلاق، هو تجاه الأخلاق والخلاق، وإلا ففي ما يؤول إلى مجد الوطني في دينه وأهله، وحقوقه الوجدانية والمادية. فالكل منهم في قيد ثقيل، وخطب جزيل، ولكن ما يقال وأكثر السواد لا يميز بين اللحم والعجين، ولا بين اللبن والطين، ويزعم بعد هذا الجهل القاتل أنه على شيء، كلا لو كان على شيء، لفرق بين هذه الرقائق، ولعرف مضامين تلك الحقائق. وكيف لا تقبح تلك الحرية وقد انسلخت قدرة الوطنيين من المسلمين في شؤون أعراضهم، ودمائهم ومقاديرهم، وغاية الأمر أنه قيل بلسان الحال، للأسافل والأنذال: اسكروا وارقصوا وزمّروا وطبّلوا وافعلوا من هذه الشنائع ما تريدون وليفجر المهان الحقير على العزيز الخطير. وليقل كل خب ما شاء في عرض كل تقي وأمير. وليجرأ كل كلب عنيف، على كل شريف غطريف. فوقع عند أولي الغفلة بأحكام الزمان، هذا الشأن موقع الاستحسان. وحسبوا أن هذا هو الأمان، من شبة نار الظلم والعدوان، الذي ابتلوا به من العائلة التي حكمتهم منذ برهة من الزمان، والحال أن هذه الغفلة نشأت عن رأي معكوس، لصيرورة الأذناب هناك كالرؤوس، إذ لا كبير ولا صغير ولا عزيز ولا حقير امتزج هذا بهذا امتزاج الماء بالطين، ولا عدوان إلا على الظالمين. بلى إن هذا جزاء عائلة جهلت قدر النعمة الربانية، وأهملت شرائف الأحكام الواجبة الشرعية، فوقفت موقف الطغاة، وانتهضت انتهاض البغاة، فعصت أمر وليّ الأمر، ونسيت سر الله واطمأنت لزيد وعمرو، بل هذا جزاء أهل قطر رضوا ببغي عائلة مثل تلك العائلة على حقوق الإمامة وأعانوها على هضم ما لصاحب السيادة الشرعية من الكرامة، فجاء السر الإلٰهي بحكم هذا القصاص الخفي، على هذا الوجه الجلي، هذه الحرية التي عناها زالق القدم، ورآها بزعمه الفاسد، وعقله الكاسد غنيمة تغتنم، هذه جملة مرت على الخاطر، فكشفت عن هذه النكتة الرقيقة كثائف الستائر، ليعلم سرها العالمون، ويعرف حكمها العارفون، ولا كلام مع طغام العوام فإنهم كالهوام، غير أنهم لهم

علينا حق التعليم والتهذيب الذي يرفع الوضيع إلى منزلة الرفيع. وقد أمرت الأمة بأخذ الحكمة من معادنها أين وجدت وعلى أي حائط كتبت. ومن لسان أي شخص صدرت، وفي أي مظهر برزت. فعلى العلماءِ والحكماءِ بذل ما وجب، وعلى الأمة صدق الطلب.

فائدة:

لا يخفى أن الوفاءَ من الدين، وأن مزية الوفاء من أعظم مزايا التمكين ولا يقطع حبل الوفاءِ عن صديق أذنب ثم اعترف ورجع فتحبب، وانظر كيف قال سيد أهل الوفاءِ روح الأنبياء عليه صلوات الله ملء الأرض والسماءِ.

لا هم أن تغفر تغفر جمًا وأي عبد لك لا ألما

أي ما أتى باللمم من الذنوب وتلطخ حسب البشرية بشيء من العيوب غير أن المرء ينظر بشأن المرء فإن زادت محاسنه على مساويه ألزم العقل العاقل أن يواليه على نسق قول القائل:

كفى المرء نبلاً أن تُعَدّ معايبه

سيما إن كانت المعايب راجعة للعبد فيما يؤول لربه فهناك لا مجال نعم يقاطع الخائن الكذاب ويباعد الذي يبغض الكرام ويألف الأخباب.

وقد رأينا من هذا النوع أناسًا ملئوا وسواسًا وقد عرفت واحدًا منهم ترك خيرًا عظيمًا موجودًا بواهمة حصول شيء معدوم، واختار لنفسه بعد عزة الشرف كل ذلة من كل طور مذموم، وترك شأنه عرضة للخوّاضين ورضي بمباعدة الطيبين الطاهرين، وبمجانسة المارقين الضالين، وانطلق بباعثة أوهامه الخائبة فإست في الماء، ورأس في السماء. وأطلق فيه لسوء حظه ولسواد قلبه ألسن الأخلاء والأعداء وجانب الكرام ورضي ألفة اللئام، واختار لهذه الدنيا الدنية ديار الأشرار، ومالت نفسه الخسيسة لمحض الحرية التي نوعها الإطلاق في ساحة الشهوات الرديئة فهرع إليها وطار وأمل بهذا الطور اللعين أن يذهب فقره ويصلح بالغنى أمره. كلا، فإن هذا الأمر على فرض المحال لو حصل أو تم ما أراد بهذا السير ذلك الزعم الباطل واكتمل، فعاقبته عند الله وعند الناس عاقبة مذمومة، ولقمته لقمة قاتلة مسمومة، وإن العز كل العز بالله وإن كفر الكافر وفجر الفاجر والفخر كل الفخر بسلوك طريق الأدب الصالح والمنهاج الناجح، وإن كابر بضده المكابر. أجل وحسن الخلق معتبر في كل ملة محترم في كل

قبيلة ودولة. وسوء الخلق في كل أرض مذموم، وسيىء الخلق في كل أمة محتقر ملوم، ولا يكون سيىء الخلق إلا عديم الوفاء ومن يكون عديم الوفاء فلا شك يكون عديم الحياء ولا خير فيمن لا حياء فيه. وما هو إلا كمن ينتمي لغير مواليه، ولا بدع، فمثل ذلك معدود من عصابة الفجور والخنا، وداخل في عداد أولاد الزنا. ولا ينفع مثل ذلك الرجل ولو كان نسيبًا نسبه، ولا يأتي له بخير حسبه، وما أحسن قول القائل:

كن ابن من شئت واكتسب أدبًا   يغنيك مضمونه عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنا ذا   ليس الفتى من يقول كان أبي

ورحم الله الجبرتي فإنه كتب لرجل يزعم الشرف وقد تجاوز حدود الله وأسرف:

قل للشريف بزعمه مع أنه   بفعاله من عنصر الأعلاج
أتصح نسبتك التي قد أوضحت   عذر اليزيد وحجة الحجاج

وقال الحلى لذي شرف ظاهره صحيح، وباطنه بدلالة خيانته وظلمه كذب قبيح:

قال النبيّ مقال صدق لم يزل   يتلى على الأسماع بالأفواه
إن غبت عن أصل الفتى بفعله   تهدى لغاية أصله المتناهي
ونراك في بحر المعائب غارقًا   وعن الديانة بالخيانة لاهي
وتقول إني من سلالة أحمد   أفأنت تصدق أم رسول الله

بل الصادق المصدوق هو النبي العربي الهاشمي الأمين عليه صلوات ربّ العالمين وقد جاء عنه وكل الفضل والحكمة والعرفان منه: (دليل أصل المرء فعله) وأين يصح حبل اتصال نسبة صاحبها مندمج في الزيغ والشر هدمت الزندقة ركن دينه لمحض جهله بالنفع والضرّ، كافر الإحسان والنعمة جحود لكل عناية تحصل له من ذي همة بل ربما جازى على الإحسان بأنواع السيئات، وعلى البر بأصناف المضرات، وعلى كل، فمثل هذا اللئيم هو وقيع حفرته وذبيح شفرته والله غيور وإلى الله ترجع الأمور. كتب سيدنا الإمام السيد سراج الدين الرفاعي المخزومي رضي الله عنه لبعض السادات، الذين خرجوا عن قانون آداب السيادة في الأخلاق

والعادات:

ورثـتـم يـا لـئـام كـرام قـوم أسـأتـم فـي ديـارهـم الـصـنـيـعـا
إذا الـنـسـب الـشـريـف تـورثـتـه طـغـام الـقـوم يـوشـك أن يـضـيـعـا

وقد جاء في الخبر، عن السيد الأطهر ﷺ: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه». قلت: ومع هذا فشرف النسبة للجناب الرفيع المحمدي، عليه صلوات المعيد المبدي، لا يقابل بشرف آخر بل هو بعد الإيمان من أعظم المنن الربانية، ومن أجلّ العنايات الصمدانية، غير أن النسب الطاهر يجب أن يصان بعمل كريم، ومنهاج قويم، وأخلاق شريفة، وفعال منيفة، وهنالك يعلو نظامه، ويكمل انتظامه، ولقد طاب لي أخذ كلمات من حكميات سيدنا ومولانا الإمام الأكبر والغوث الأشهر سلطان الأولياء، مقبل يد جدّه سيّد الأنبياء، عليه صلوات ذي الآلاء، ألا وهو الإمام الهمام الرفيع الهمم والمساعي، سيدنا وسندنا السيد محيي الدين أحمد الكبير الحسيني الرفاعي رضي الله عنه وعنّا به، كونه من أعاظم أئمة الآل، ومن أفاخم سادات الرجال، رجعت إليه قوافل القلوب، وتعلقت به هِمَم أهل الحق كتعلق المحب للمحبوب فهو حكيم الأولياء، وولي الحكماء وكلماته المقدسة نظام الأمرين الديني والدنيوي، وعصام الشأنين المادي والمعنوي، ولذلك شرّفنا هذه الرسالة بشيءٍ من كلماته، ورصّعناها ببعض عقود من حكمياته.

قال لا عدمنا منح نواله السيال: من شرفت أعراقه حسنت أخلاقه، ومن عظم في أبراج السيادة طالعه، صح لله وللخلق تواضعه، ومن علا نسبه، شرف أدبه، والدنيا والآخرة بين كلمتين عقل ودين، ليس عند الله على شيء من رأى نفسه، رب علم ثمرته جهل، لا تظن أن صبغك يستر شيبك لا بل غيره وما ستره، أكذب الناس على الله والخلق، مَن رأى نفسه خيرًا من الخلق. كل الظلم التعالي على الناس. من مات محبًا مات شهيدًا ومن عاش مخلصًا عاش شهيدًا. من أخذ برأيه ضل. إذا أودعت معروفًا فلا تكفره فإنه ثقيل عند الله. لا دواء للحمق، ولا دافع للحق، ولا صحبة للمغرور، ولا عهد للغادر، ولا نور للغافل، ولا إيمان لمن لا عهد له. كتب على كل نفس خبيثة أن تسيء للمحسن وأن تمكر بالمجمل والعون الإلٰهي محيط بالعبد المخلص. مشكك لا يفلح ودساس لا يصل وبخيل لا يسود وحسود لا ينصر وكلب الدنيا لا يستولي على لحم جيفتها. العلم نور. والتواضع سرور. صحبة الأشرار والحمقاء وأهل الحسد ظلمة سوادءُ. اترك الفضول وانقطع عن العمل بالرأي

وإذا رأيت الناس كذا فاعتزلهم، قال عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوًى متبعًا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخويصة نفسك»[١] التواضع يورث المحبة والقناعة تورث الراحة. تواضع واقنع تصر محبوبًا مستريحًا، وتغافل تكن كيسًا. دع الحسود فهمه بك فوق همك به، خلّ جانب الأحمق فكدرك به هو كدره بنفسه. خذ بقوة عقلك العبرة من كل مأخذ واصرف نظرك عن محلها. من كان له عليك حق فداره وكن مع الخلق بالأدب فإنه أدب مع الخالق. العاقل المحمدي يعمل لخدمة الأمة فيما يصون دينهم ويجمع شعثهم. فيحميهم من غلبة أعداء الله ورسوله عمل من يظن أنه لا يموت ويعمل فيما يؤول لنفسه عمل من يترقب في كل طرفة الموت. قلت: وقد فسر هذه الجملة الشريفة سيدنا الغوث الخطير، والعلّامة الشهير، أستاذنا وتاج رأسنا بهاء الدين السيد محمد مهدي الصيادي الرفاعي، آل خزام المشتهر بالرواس رضي الله عنه. فقال: ما أقبح فهم من ظن أن القوم أهل الله العارفين بالله يحثون بهذا الفقه الكريم على تخريب الدنيا والانقطاع عن مصالحها، ويزين لهم الشيطان أن القوم إنما هم قطاع لطريق عمارة الدنيا ليبعده الشيطان بخديعته عنهم لما في نفس ذلك القبيح الفهم من حب الدنيا، والميل عن الآخرة، والبعد عن الله تعالى. إن طريق السلف من عهد النبي ﷺ وتابعيه وآله وأصحابه ومن تبعهم عليهم رضوان الله أجمعين، إنما هو خروج المرء بنفسه عن الميل إلى الدنيا بصدق اليقين بالله وصحيح التوكل عليه والعمل بأوامره، والاجتناب لما نهى عنه، وكل هذا مقرون بالسعي الكامل والاهتمام الشامل بجميع ما تصله قدرة المرء لنفع الناس وإعمار شأن الدين والمسلمين. والغارة كل الغارة لإعلاءِ كلمة الله، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وبذل الخير للفقراءِ والمساكين، وإفاضة البر للمستحقين، وصون الطرقات وردع الظالمين، ونصر المظلومين، وإحياءِ معالم الدين. وهل يقوم كل ذلك إلا بقوة الشكيمة، وكامل العزيمة، والأسباب الصالحة لإقامة تلك الدعائم وإثبات هاتيك الحقائق العظائم. وحينئذٍ فلا يكون زهد المرءُ في نفسه كاملًا إلا إذا استكمل الحقائق الدينية، وعمل بلوازمها المعنية، التي نبهنا عليها، وأشرنا إليها. هنالك خسيء الوقح السقيم الفهم الذي اتهم طريق القوم بالبطالة، ونسب القوم بمحض ما لديه من الجهالة

---

(١) رواه الترمذي (٥/٢٥٧)، وأبو داود (٤/١٢٣)، وابن ماجه (٢/١٣٣٠)، والحاكم في المستدرك (٤/٣٥٨)، وابن حبان (٢/١٠٩)، والبيهقي في الكبرى (١٠/٩١)، والطبراني في الكبير (٢٢/٢٢٠)، وفي مسند الشاميين (١/٤٢٨)، بنحوه.

إلى العطالة والكسالة، ويقال:

وكم من عائب قولًا صحيحًا وآفته من الفهم السقيم

إلا أن مشرب القوم هو حال رسول الله ﷺ وطد المجد للدين وأعز عصابة المسلمين وسارت مواكب عزمه في العالمين، ونصر بالرعب مسافة شهر، وضجت الأكوان باسمه، ورجفت له فرائص ملوك الأرض في عهده، بل وإلى الآن، وفي كل زمان ومكان. وقد مات ولم يشبع من خبز الشعير. على أنه أُعطي ما بين لابتيها غنمًا، وملأ رداء عمه العباس رضي الله عنه ذهبًا، وأعطى عطاء من لا يخاف الفقر، وتبعه الصديق الأكبر رضي الله عنه على هذا المنوال. وشرب منه صلوات الله عليه ذلك المشرب ورد أهل الردة على أعقابهم، ومات على قطيفة لم يكن عنده سواها فأمر بها فأعيدت إلى بيت المال. وكذلك الفاروق الأعظم رضي الله عنه فتح الأقطار، ومصر الأمصار، وعزم به الدين واستنار، وأزال الدول، وقطع ووصل، وخطب عام وفاته وعليه ثوب فيه أربعون رقعة، أحدها من أدم. وهكذا ذو النورين، والأمير والد السبطين العظيمين، بل وكل من له من نورهم قبس، ومن حال النبي نفس، فهو على هذا المنوال، رفيق تلك الخلال، والقوم أهل الولاية والإرشاد، لهذا المنهج القويم، والصراط المستقيم، دلوا المسلمين على مشرب نبيهم، وجليل حاله وليس لهم رضي الله عنهم سوى منصب الدلالة على الله. والموفق الهادي هو الله. انتهى.

وفي كلام سيدنا الإمام الأعظم، الرفاعي الأكبر رضي الله عنه، يرافق المؤمن، ولو اشتمل على كل خلة سوى الخيانة والكذب. قلت: الخيانة أساسها أن يخون الله في دينه، أو أن يخون النبي ﷺ في شريعته. أي يتجرأ بعقله الكاسد، وفهمه الفاسد، على سوء الكلام، في حكم من الأحكام. أو أن يستخف بالشرع الطاهر، ويفعل فعل الفاجر المتجاهر، أو أن يرافق أهل الزيغ الذين طمس الله على قلوبهم، فاختلفت مشاهدهم وفسدت عقائدهم. أو أن يخون خليفة النبي في العصر أعني الإمام الذي يوليه الله أمر المسلمين، في كل زمن وهذا المنصب الشريف اليوم، منصب مولانا السلطان الأعظم، سيد ملوك العرب والعجم، الخاقان الأفخم والملك المعظم، خليفة المسلمين، وإمام الدين، وأمير المؤمنين، المنصور المؤيد المعان، مولانا وسيدنا السلطان الغازي عبد الحميد خان، نصره الرحمٰن، وأقامه على سرير سلطنته حاميًا للشريعة الغراء، ناصرًا للسنة المحمدية السمحاء، حصنًا للدين والمسلمين، كهفًا لعباد الله أجمعين آمين. أو أن يخون الرجل المسلمين في دينهم أو دمائهم أو أموالهم، أو

أن يمكر بأحد منهم، إلا أن يدافع عن نفسه، فلا يفرط ولا يتجاوز في المدافعة الحد، والباغي خصمه الله. ويجب أن لا يخون المرء والديه، وذوي عصبته وأرحامه، ومن رباه وأحسن إليه. فقد جاء في الحديث الشريف: «الآباءُ ثلاثة: أب ولدك، وأب أدّبك، وأب ربّاك» ولا يخون من علّمه شيئًا من علوم الدين، أو من فنون الدنيا المرضية، ولا من أعانه بلقمة زاد، أو شربة ماءٍ، فإنه يجب عليه أن يحفظ له حقه بذلك ولا يخونه، وأن لا يخون أحدًا من المخلوقين، على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومذاهبهم ومشاربهم. وأن يجعل نفسه نفعًا عامًا، مهما أمكنه حتى يكون كما قال سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه كالغيث أين وقع نفع. ويجب أن يرعى الذمام للكرام، وأن يجانب اللئام، فإن اللئيم عدوّ في صداقته، مبغض في محبته، مضر حيث يريد أن ينفع، وذلك لخسة في طبعه، وحطة في طوره، ومثله من خبث أصله، وانحطت أعراقه، وفسدت في قانون الشرع أخلاقه. على أن مثل أولئك الطغام الأشرار اللئام، هم عبيد الوقت أحباب الآمال، أسارى أغراضهم في كل حال، أصدقاءُ الزمان الحاضر، وأعداءُ الزمان الحاضر، ولا يعتمد على مثلهم إلا من خف عقله، وثقل جهله. فإنهم آلة الخراب للأمة، وألد الأعداء للنجباء وأرباب الأصالة، وأهل الشيم العالية، ولهذا السر فترى أن الإمام الأعظم أمير المؤمنين الكرّار الأنزع أسد الله سيدنا عليًا المرتضى كرم الله وجهه، ورضي عنه، وأكرمه بسلامه وتحياته، قد منع أن يعلم أبناءُ السفلة العلم حتى لا يصل أحدهم بشرف العلم إلى معاشرة ذوي المجد والأصالة، فيبث فيهم أخلاق أهل الدناءة والسفالة، بلسان العلم وهنالك تسري في الأشراف، أخلاق الأطراف، وتنحط همتهم عن النخوة، والفتوّة والمرحمة والمروءة، بل تنزع منهم مكارم الأخلاق ومعاليها، ويبدو فيهم سفسافها، ولا خير حينئذٍ في أمة تخلق أشرافها بأخلاق أطرافها. ولا يغرنك أيها اللبيب حال بعض الممالك الغربية، والديار الإفرنجية، فإن العمران الذي تراه في بلادهم هو عمران صناعة، لأنهم أمم عمل وتجارة. وجلد ترق له الحجارة، وإلا فإن جفوة الأخلاق، وعدم الرحمة، وغلظة النفس، وقلة الألفة، ووحشية الطبع، ضمن دائرة المدنية الصناعية، قد قامت في أطوار الكثير من قومهم على الغالب، وذلك لأنه لا تهذيب لهم روحي يجذبهم لأخلاق عاصمة لهم، تأخذ الكبير إلى الرحمة للصغير، وتجلب الغني لإغاثة الفقير، وتوقف طبقات الناس منهم بالطبع لا بالصدع عند الحدود، في كل شأن خفي أو مشهود. وقد أنتجت فيهم المدنية الصناعية والمشغلة التجارية، والطريقة الاكتسابية، نتيجة صارت هي القاعدة المرعية عندهم، وهي الإطلاق لكل

واحد في صناعته وعمله الذي يؤول إلى ذاته. فهو إن كان من أحد مللهم تراه بين قومه وفي ملته، مطلق العنان في تجارته، منزوع القيود في كل ما يفعله من فعل قبيح أو حسن، خالف الأدب والدين أو طابقهما، بشرط انحصاره بنفسه من دون أن يتعدى ذلك الفعل إلى منفعة غيره. وعلى هذا فإن أثرى غير منظور، وإن افتقر غير منظور. فلو اليوم زين نفسه بأنواع الجواهر، وركب دهم الخيول، وأكل طعام الملوك، ولم يتعد فعله لنفع غيره لم يسأل عنه من أين اكتسب وفيما أنفق، وفي عصر اليوم نفسه إذا باع ثيابه ودوابه ووقف موقف السألة كذلك فإنه لا يسأل عنه وتعاون الأمم فيهم هو لحفظ النفع التجاري والطريق الكسبي الذي يقوم به الأمر الصناعي ويدوم به شأن العيشة العامة على النظام الذي ذكرناه، وعلى الوجه الذي بيناه، وقد سرت بلية عدم الرحمة بسبب هذا الشره على أمر المعيشة من أسافلهم إلى كثير من أعاظمهم على الغالب، فإن العادة العامة سراقة وذلك لأنهم مزجوا أخلاقهم بأخلاقهم ومرت على ذلك الأعصار والأدوار وإلا فذوو الأصالة القديمة والبيوت العريقة هم ضخام الأخلاق عظامها في كل ملة، ولا ينحط عن معالي الأخلاق إلا من سفل عرقه وانحط أصله أو عاشر من هو كذلك البتة وقد قيل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

لطيفة:

المحبة تمنع المحب عن النظر في معائب المحبوب بل ربما جعلته يرى محاسنه ولا يرى مساويه ولو كانت ظاهرة للعيان، يراها كل إنسان. وقد يرى المحب إذا غلبته آثار المحبة مساوي المحبوب محاسنًا نعم شأن المحبة شأن ذو بال، فإن المحبة تكون لمن يرعى الوداد، ويجانب الزور والفساد، يحفظ للمحب قدره وسره ولا يهمل أمره وحسن قول القائل:

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفًا فدعه ولا تكثر عليه تأسفا
ففي الناس إبدال وفي الترك راحة وفي القلب صبر عن حبيب يرى الجفا
فلا كل من تهواه يهواك قلبه ولا كل من أنصفته لك أنصفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها صديق صدوق صادق الرد ذو وفا

ولا يكون المحبوب عند ذوي المروءات محبوبًا إلا إذا كان صينًا دينًا طبعه الوفاء وطرزه الحياء:

إذا كان الحبيب بلا حياء ولم يعرق بذلك وجنتيه

ولم يصن الجمال بحكم دين يصون جنابه في مشهديه
فدعه يموت محقورًا ذليلًا ويقبر غير مأسوف عليه

وما أحسن قول القائل:

ولم ينفع الشبان حسن وجوههم إذا كانت الأخلاق غير حسان
فما كل مخضوب البنان بثينة وما كل مصقول الحديد يماني

ومن رقائق الخيال أبيات سنح بها البال فجاءت وكأنها السحر الحلال تفيد بعد تشتت الأغراض والوفاق والأعراض ترك الوجود والرجوع بصدق النية وصحيح العزيمة إلى المعبود وها هي فتدبر:

بأية حجة منع الوصالا حبيب صد عن كبر وصالا
وريم قد كساه الله حسنًا وأفرغ في شمائله الجمالا
أميل له وكم قد مال عني ولا عجب إذا ما الغصن مالا
أقول له بذل الوجد صلني يقول ترفعًا بالعجب لالا
يؤجج بالتباعد نار قلبي ويجعله له للفتك خالا
أطالبه الوفاء وقد أراني طلبت بما أحاوله المحالا
ترقرق فيه ماءُ الحسن حتى تقاطر من شمائله وسالا
وتاه على محبيه علوًا وقد مزج الملاحة والدلالا
ومن أجفانه قد سل بيضًا وعلم قده السمر اعتدالا
وأبرز من خلال الجفن سحرًا يفسر شأنه السحر الحلالا
وأبدع بالمقال فلست أدري أخمرًا كان ذلك أم مقالا
مشى فظننت أن البدر يمشي وطل فخلت طلعته الهلالا
وماس مع الدلال فهز رمحًا وراش بلطف رمشته نبالا
تبسم فانجلى بالثغر در ببارقة المحاسن قد تلالا
وفاجأ عاشقيه بسهم طرف كفاهم بعد غزوته القتالا
تفكر فيه يا هذا لتلقى بطرز الآدميين الغزالا
وتشهد بالذوائب منه ليلًا وفي الخدين للشمس المثالا
رعاه الله من ظبي غرير على الليث الهصور قد استطالا

لقد رقت حواشيه ولكن قسا قلبًا فأكسبني انتحالا
حفظت له عهود الحب حتى منعت لغير طلعته الخيالا
فزاد بعيد ذا هجرًا وتيهًا وأورثني التلهف والملالا
كذا الغزلان تنفر لا لقصد ولا سبب نؤوا ولا انذهالا
أعاتبه فلم يفقه عتابًا وأسأله فلم يجب السؤالا
ولما إن أطال وتاه ظلمًا وعدوانًا ووعد القرب طالا
نظمت به الوجود وعن صفاء تركت الكل للباري تعالى

حكمة:

قال إمام الرجال، وقبلة أهل الحال، علم الله المنشور، ولي الله المذكور، مولانا السيد أحمد الرفاعي، رضي الله عنه، من أراد صديقًا بلا حيف، بقي زمانه بلا صديق. ومن هذا الأسلوب، قول العارف أبي عبد الله الواسطي، طاب مرقده:

عاشر أخاك على ما كان من خلق واحفظ مودته بالغيب ما وصلا
فأطول الناس غمًّا من يريد أخًا ذا خلة لا يرى في رده خللا

قلت: ومن حق الصحبة أن لا يبش المرءُ بوجه من نم له على صديقه وأدخل بينه وبينه ظلمة الوحشة، وأن لا يقرب منه من استغابه ومزق بالغيبة أثوابه ومتى صافى من كان على هذه الطريقة، فقد آذى صديقه. يعرف سر هذه النكتة العقلاء، ويفهم فحواها الأولياء. وقد كنت كتبت في كتاب من مؤلفاتي سميته: (حديقة الإنس) شيئًا في حقوق الصحبة وأحكام المحبة وهو كتاب لم تكتحل عيون أُولي الظرف بثانيه، لحسن مضامينه ولطافة معانيه. وقد قلت فيه كما هو المنقول، عن أولي الفضائل والعقول، مع أشياء لطيفة رمقتها، وحكم حررتها. قلت مختصرًا ومن حق الصحبة، النفع حسب الإمكان في الشدة، وفي هذا دليل على صدق المودة. ولذا قال القائل:

إذا لم تكن لي نافعًا عند شدتي فما أنت لي يوم القيامة تشفع
حياتك يا هذا وموتك واحد وعود خلال منك في البيت أنفع

ومن حق الصحبة أن لا يقاطع المحب، من أحب على الوهم، فإن ذلك يدل على سوء القلب. قال بعضهم:

إذا ساء قلب المرءِ ساءت ظنونه وصدّق ما يبدو له من توهم
وعادى محبيه بقول عدوه وأصبح في شك من الأمر مبهم

ومن حق الصحبة أن يغار الصديق على صديقه، والصاحب على صاحبه والمحب على محبوبه، ومتى فقدت الغيرة فقدت المروءة. ومن حقوق الصحبة إسقاط مراسم الآداب، إلا في محافل الأغيار، وإلا ففي خلوة الأصدقاء ينبغي محو التكلف. وقيل إذا صحت الألفة، سقطت الكلفة. ومن حق الصحبة كتمان السر، ولا يقدر على ذلك إلا الحر، وقد قيل صدور الأحرار قبور الأسرار. ومن حق الصحبة ستر المعايب، وإظهار المحاسن والمناقب قال رسول الله ﷺ: «من ستر عورة أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة». ومن حق الصحبة عدم هجر الصاحب، إلا لأمر واجب، وإذا كان فعلى الكريم الأصل الطاهر الأرومة الطيب الجرثومة، أن يعفو ويصفح، فهو أحسن وأصلح. ومن حق الصحبة الزيارة، فإن فيها على صدق الود أظهر إشارة، ومن حق الصحبة حفظ الحرمة للمحب. قال الإمام جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما: مودة يوم صلة، ومودة شهر قرابة، ومودة سنة رحم، من قطعها قطعه الله عز وجل. ومن حق الصحبة الإنصاف من النفس إذا وقع موجب. قال رسول الله ﷺ: «أشرف الأعمال ذكر الله، وإنصاف المؤمن من نفسه، ومواساة الأخ من ماله» ومن حق الصحبة الصبر في الصحبة وإسقاط التمتمة، بعد صحة الأخوة في المحبة. قال الإمام الروزبادي رضي الله عنه:

إذا أنت صاحبت الكرام فكن فتى كـأنـك مـمـلوك لـكـل رفـيـق
وكن مثل طعم الماءِ عذبًا وباردًا على الكبد الحرا لكل صديق

ومن حق الصحبة أن لا يسمع بعد وثوق الصحبة في صاحبه قول راشٍ بل يردع الواشي ويعرض عنه. قال بعض الأولياء رضي الله عنهم لمن نقل له غيبة عن صديق له: يا هذا أنا من صحبة صديقي ووده على يقين، ومن كلامك على ظن، ولا يترك اليقين لأجل الظن، والله تعالى سماك فاسقًا قال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحُجرَات: الآية ٦] ومن حق الصحبة مشاركة الصاحب في المحبوب والمكروه لا يتحول ولا يتململ. ومن حق الصحبة الإغضاء عن معايب الصديق، والصبر على ما لم يلائمه من أطواره وأحواله، والصفح عن زلاته. وقد مدح بعض الحكماء بعض الظرفاء فقال:

صفوح عن الإجرام حتى كأنه من العفو لم يعرف من الناس مجرمًا

وقال آخر وقد أحسن وأجاد:

ما كنت مذ كنت إلا طوع إخواني ليست مناكدة الأحباب من شاني
يجنى عليّ فأحنو دائمًا أبدًا لا شيء أحسن من حانٍ على جاني
إذا خليليَ لم أغفر إساءته فأين موضع إحساني وغفراني

ومن حق الصحبة عدم تكليف المحب ما لا يطيق، فإنك إن فعلت ذلك انقطع في الطريق. ومن حق الصحبة عدم خلف الوعد للصديق، فإن الوفاء بالوعد من المؤيدات لتحكيم الود. ومن حق الصحبة سلامة الصدر للصديق، بل ولجميع المخلوقين، وهذه ثمرة حسن الأخلاق. ومن حق الصحبة حسن المعاشرة والملاءمة، وكف الأذى وصحيح الوفا، وترك اللوم والجفا، وقطع هذه الأوقات الفانية بالود السليم والصفا، وحسبنا الله وكفى. وحسن ما سيذكر وهو:

شر الأحبة صاحب الأغراض والمكثر التعنيف والإعراض
والسيىء الأخلاق طورًا والذي تلقاه كيف صنعت ليس براض

وقال العم المرحوم الفاضل الهمام السيد كاظم أفندي آل خزام الصيادي الرفاعي الخالدي طاب ثراه:

لا ترى المكثر الغوائل حبًا لا ولا الخب صاحبًا وعشيرا
بئس من يحفظ القباح لحين قبله كان مادحًا وشكورا

ومن الشيم العالية القيام مهما أمكن بشؤون الكرام من الأصدقاء، فما كل صديق كريم الشأن، ولا كل من صدر كتابه بالبسملة سليمان. وينبغي للعالي الجناب من الأحباب، إذا سعى بشأن الصديق، أن يقدم شريف عمله للصديق، بين يديه، ولا يمن بما أسداه عليه. وما أجمل قول القائل:

والفتى إن أراد نفع صديق هو يدري بشأنه كيف يسعى

وقد نص أهل الفضل على أن كرم الولادة إن صح ينتج في الذرية شِيَمًا كريمة، وأخلاقًا حميدة، فترى كريم الأبوين، طاهر العنصرين، ثابت القدم في الصداقة، واقفًا على قدم الفتوة حسب الطاقة. كما ورد في الخبر الشريف «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» وقد تقدم في صدر هذه الرسالة الإشارة إلى بحث في النسب، يلذ مضمونه لأولي العرفان والأدب، كيف لا وعلم النسب لب علم الأدب، وهو ديوان العرب،

ومادة أخبارهم، وتمييز أشرارهم من أخيارهم. وقد اعتبر رجال الجاهلية في العرب، ولد البنت من غير النسب، فلا يعد من بطن أمه أبدًا وقال قائلهم:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناءُ الرجال الأباعد

ولذلك قال الحبيب الأعظم: قاتل الله شاعرهم (ابن أخت القوم منهم) وقد كره العرب البنات غير أن الأمة لما أعلا الله منارها، وأيد فخارها، بسيد المرسلين، عليه أفضل صلوات المعين، وأزال عليه الصلاة والسلام أحكام الضلالة، وأيد قواعد الرسالة، وطوى في مناشير القلوب مكارم الأخلاق. وأحكم فيها خوف الخلاق، نظر هنالك الصدر الأول، للولد الصالح، ولم يفرقوا بين الذكر والأنثى، إلا فيما لا بد منه، ولا غنى عنه. عير بعضهم أعرابيًا ببنت ولدت له فقال:

ماذا عليّ إن ولدت جاريه تمشط رأسي وتكون فاليه
خير من ابن عاره علانيه يجر في كل أوانٍ داهيه

وقال قتادة رضي الله عنه: رب جارية خير من غلام، ورب غلام كان هلاك أهل بيته على يديه. وذكر عن بعض التابعين رضي الله عنهم أنه قال: رب جارية محمودة الأخلاق، طاهرة الثياب، سعيدة العواقب، جامعة شمل أهلها، يخلق الله تعالى منها النسل الزكي، والذرية الطيبة. ورب غلام طالعه منحوس، ومنشؤه الريب، علق لوالديه، حياته داءٌ، وموته شفاءٌ. انتهى.

استطراد مختصر لطيف:

قال سيدنا ومولانا أمير المؤمنين عليّ الكرار المرتضى، كرم الله وجهه، ورضي الله عنه: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يعظم حلمك، ويكثر علمك. ويؤيد هذا القول الفصل، الصادر عن معدن الفضل، قول سيد الكل في الكل ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن تخير الخير يعطه، ومن توق الشر يوقه». قلت: وهذا دليل قاطع على وهب الإرادة الجزئية للعبد وهي مصدر الأفعال الاختيارية، وعلى ما يصدر منها من الأفعال، يكون الثواب أو العقاب، يوم الحساب، عند القدوم على الديان القادر رب الأرباب. وقال أحد فضلاء قريش: انحطاط النسب ولو من جهة الأم يحط بالأخلاق، وترى من في نسبه حطة، لا بد وأن يكون في أخلاقه حطة، ولذا يلزم ترفع أُولي العناصر العالية، من أي قوم كانوا عن أُولي العناصر الوضيعة ولقد رأى ضخام الأصول، أن عدم الجواب للوضيع

الساب. من أشرف الآداب. وقد قال بعض بني مخزوم:

أسمعني عبد بني مسمع فصنت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقاري له ومن يعض الكلب إن عضا

وقال رجل قرشي:

وأصعب ما يمر على كريم عداوة غير ذي حسب ودين
يبيحك منه عرضًا مستباحًا ويرتع منك في العرض المصون

وقال بعض النجباءُ:

ولو أني بليت بهاشميّ خؤُلته بنو عبد المدان
صبرت على أذى لي ولكن تعالوا وانظروا بمن ابتلاني

وقال شيخنا بركة العصر، القطب الغوث السيد بهاء الدين محمد مهدي الصيادي الرفاعي رضي الله عنه في بعض سفلة الأصول:

لسنا نواليك وإن المصطفى قد قال إياكم وخضراء الدمن
لو كنت من عرق شريف نابتًا واليتنا ولكن العذر اللبن

وقد نص الإمام الكرار أسد الله أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه على عدم محبة الدنيء الأصل للآل، فقال: لا يحبنا أهل البيت أحد ثلاث: ولد زنية، أو ولد حيضة، أو ذو الرحم المنكوسة. هو المأبون الذي يؤتى والعياذ بالله ومثله لا يجيء بخير. وكيف يكون والرجل الذي لا يصون عرضه، ولا يحفظ لنفسه حق المروءة، هل يحفظ (حق مروءة غيره) كلا لا يكون ذلك أبدًا. وقد أحرق المأبون سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه. وقد جيء له به في حيّ من أحياء العرب كان ذلك بعهد سيدنا الصديق الأكبر رضي الله عنه. وقد كتب بعضهم لصديق له يحذره من رجل ملموز العرض:

أمولاي باعد عن رحابك مقرفًا عليه من العيب القبيح رداءُ
فما فيه إيمان ولا فيه نخوة ولا فيه من سمت الرجال حياءُ
تؤمل ممن شبّ بالخسة الوفا وليس لمن حاكى النساءُ وفاءُ

ولي من أبيات:

دنيء العرق ديدنه المساوىء　　وإسناد العيوب إلى الكرام
تسح عليه أنعمهم فيطغى　　ويكفرها كذا طبع اللئام

العود أحمد: انقسم ديوان العرب إلى قسمين: قسم الشعر وآدابه وفصوله وأضرابه، وقسم النسب وفنونه وأشجاره وغصونه. فكان الأدب والنسب جناحين لهم إلى التوصل إلى المعالي السامية، والمراتب الشامخة العالية، حتى أمتن الله على الخلق بنبيه الأعظم مظهر الحق ﷺ، فوطد القسمين على نهج كريم، وصراط مستقيم، فحث بالشأنين وحضّ بالمزيتين على مكارم الأخلاق، والتعالي إلى حضرة قرب الخلاق. ولذلك فقد تصدر العرب، في دست النجابة في الجاهلية والإسلام، وكمل مجدهم بالحبيب الأعظم عليه الصلاة والسلام. وحسن ما قاله القائل:

خيرة الله من الخلق العرب　　آل إبراهيم وضاح الحسب
جمعوا بين أصول قد سمت　　وعلوم وفنون وأدب
وأتى الهادي الحبيب المجتبى　　فيه طالوا إلى أعلى الرتب
عرفوا الله به ثم اهتدوا　　لطريق الحق والباري وهب
وبنو المختار فيهم سادة　　دون عالي مجدهم كل نسب

وقال صاحب المشجر الكشاف:

قريش خيار بني آدم　　وخير قريش بنو هاشم
وخير بني هاشم كلهم　　رسول الإله إلى العالم

أما شعر العرب فهو مع اختلاف معانيه، وأصوله ومبانيه، ينقسم إلى أوصاف ونعوت، فما وصف به الإنسان نفسه أو غيره من الشجاعة والشدة والحرب، والصبر في مواطنه يسمى حماسة، ومما وصف به من حسب وكرم وطيب محتد، وقديم مجد، يسمى مدحًا وفخرًا وتقريظًا. وما أثنى على المرء بعد موته بشيءٍ من المناقب، والخصال التي ذكرناها يسمى رثاءً وتأبينًا. وما وصف به أخلاقه الممدوحة من حياء وعفة وإغضاءٍ، وأعراض عن الفحشاء، ومسامحة عن زلات الأخلاء يسمى أدبًا. وما وصف به الحسن والجمال من النساء والرجال يسمى غزلًا ونسيبًا. وما وصف به المرء من نقصان وبخل ولؤم، وسوء خلق، وقبح أصل يسمى هجاء. وما توصف به الأشياء على اختلاف أنواعها وأخبارها يسمى وصفًا وملحًا ونعتًا. وما وصف به رفض

الدنيا مع الإنابة إلى الله، وصحة الارتباط بالله، والتوكل عليه يسمى زهدًا، وقد تفننوا بهذه الأقسام، وأرقصوا جبال القلوب بذلك الكلام. وأما الكلام على أصول أنسابهم وتسلسل أحسابهم فقد بنوه على عشرة طبقات:

الطبقة الأولى: جزم النسب إما على عدنان، وإما إلى قحطان. وفيهما جماع نسب العرب. والطبقة الثانية: الجمهور وهو الاجتماع والكثرة. ومنه قولهم جماهير العرب، أي جماعتهم. والطبقة الثالثة: الشعوب أحدها شعبة وشعب ويقال بالقبيلة في الفتح وفي الجيل بالكسر الجيل الذي يجمع القبائل وتنشعب منه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: الآية ١٣] الآية. والطبقة الرابعة: القبيلة وهي التي دون الشعب وهي التي تجمع العمائر، وإنما سميت قبائل لتقابل بعضها ببعض في العدد. والطبقة الخامسة: العمائر وأحدها عمارة وهي التي تجمع البطون وهي دون القبائل. والطبقة السادسة: البطون وأحدها بطن. والطبقة السابعة: الأفخاذ وأحدها فخذ. والطبقة الثامنة: العشائر وأحدها عشيرة وهم الذين يتعاقلون إلى أربع آباء. والطبقة التاسعة: الفصائل وأحدها فصيلة، وهم أهل بيت الرجل وخاصته قال تعالى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣﴾ [المعارج: الآية ١٣]. والطبقة العاشرة: وهم رهط الرجل وأسرته والرهط دون العشرة والأسرة أكثر من ذلك.

لطيفة:

كل فاطمي في الدنيا علوي، وليس كل علوي بفاطمي. وكل علوي في الدنيا طالبي، وليس كل طالبي بعلوي. وكل طالبي في الدنيا هاشمي، وليس كل هاشمي بطالبي. وكل هاشمي في الدنيا قرشي، وليس كل قرشي هاشمي. وكل قرشي في الدنيا عربي وليس كل عربي بقرشي، ولم يوازن العرب في مجد أنسابهم غيرهم، وإلا ففي غير مجد النسب فالحجة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: الآية ١٣] ولم يوازن أحد من العرب بمجد النسب إلى فاطمة الزهراء الطاهرة عليها الرضوان والسلام وحسن ما ذهب إليها بعض أكابر المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: الآية ١٣] وذلك أن الأتقى المشار إليه بهذه الآية المختص بالأكرمية هو النبي ﷺ وآله الطاهرون فإنه منهم وهم منه، والدليل قوله ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأتقاكم» وقوله

عليه الصلاة والسلام: «حسين مني وأنا من حسين»[(١)] وقوله صلوات الله عليه: «خلقت أنا وعليّ من نور واحد»[(٢)] ولا بدع فإن آية المباهلة تدفع المجادلة وقد جاء في شرف الآل الكرام، عمهم مسك التحية والرضوان والسلام: «أهل بيتي أمان لأهل الأرض كما أن الشهب أمان لأهل السماء». وكلف الحسن بن هاني رحمه الله، أن يمدح ساداتنا الآل فقال:

قال لي قائل رأيتك تهوى — آل طه ودائمًا تجتبيهم
صار فرضًا عليك تستغرق المد — ح جميعًا فيهم وفي من يليهم
قلت ماذا أقول والكون طرًا — يستمد النوال من ناديهم
أنا لا أستطيع أمدح قومًا — كان جبريل خادمًا لأبيهم

وخصص أيضًا الإمام الأعظم قبلة أهل الباطن سيدنا عليًا الرضا ابن الإمام الأكبر أبي المكارم سيدنا موسى الكاظم فقال فيه:

قيل لي أنت أعلم الناس طرًا — بالمعاني وبالكلام النبيه
فلماذا تركت مدح بن موسى — والمعالي التي تجمعن فيه
قلت لا أستطيع مدح إمام — كان جبريل خادمًا لأبيه

وكفى الآل شرفًا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٣٣] وبالجملة فمناقب الآل لا يجهلها مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، قد فرض الله على المسلمين جميعًا مودتهم، وبين الرسول ﷺ أن محبة آله هي محبتهُ وبغضهم هو بغضه والعياذ بالله، وأن محبتهم إيمان وبغضهم نفاق وكفر، وأنبأنا كتاب الله أنهم المطهرون وأخبرنا المصطفى عليه الصلاة والسلام أنهم أمان لأهل الأرض، وأن مثلهم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق، وقرنهم بكتاب الله ليعلم أنهم المعبرون عن كتاب الله القائمون بأحكامه، وأنهم القادة السادة الذين من تمسك بهم لن يضل، وحرم عليهم الصدقة، وأحلّ لهم الهدية والمغنم، وما يفرض لهم من قبل الخليفة من بيت المال،

---

(١) رواه الترمذي (٥/٦٥٨)، وابن ماجه (١/٥١)، والحاكم في المستدرك (٣/١٩٤)، وابن حبان (١٥/٤٢٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/٣٨٠)، وأحمد في المسند (٤/١٧٢)، والطبراني في الكبير (٣/٣٢، ٣٣)، (٢٢/٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) أورده الحافظ في لسان الميزان (٢/٢٢٩)، والذهبي في الميزان (٣/٤٢٠)، بنحوه.

وأخبر أن نسبهم لا ينقطع ولا يبيد ما دام الكتاب والشريعة. ولذلك رأى بعض العارفين، وجوب معرفة علم النسب، ليعرف الرجل أنساب الآل، ويوقرهم ويعظمهم ويعرف لهم حق حرمتهم، ومحبتهم لله ولرسوله ﷺ. ويجب أن يجتنب الطعن فيهم، ويلزم الأدب معهم والتمسك بودهم، عملًا بنص: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: الآية ٢٣] وأن يتباعد عن سوء الظن بهم، والتجري بغير علم، ولا حق على غمز أنسابهم ترفعًا عن خلق الجاهلية لما قد صح عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من علم الجاهلية لا يتركهن الناس: الطعن في النسب، والنياحة على الميت والاستمطار بالأنواء». وفي خبر آخر، «ثلاث من الشرك بالله: الطعن بالأنساب، والتفاخر بالإحسان والنياحة». وقد أطبق أهل الأخبار من النسابة، على أن قبائل البادية وعشائرها يحيطون أنسابهم، ويحفظون أصولهم، وإن لم يكن ذلك مسطورًا في الدفاتر محررًا في الأسفار، فإنهم حفظة ولا يمكن أن يندلس فيهم الدعي، ولا الدخيل لصحة التسلسل فيهم، ولقيامهم حق القيام برعاية شأن أحسابهم وكثرة اعتنائهم بانتقاءِ الأمهات الطيبات الأصول لأبنائهم أكثر من أهالي القرى والمدن على الغالب. وقد يرى الجهل بالأنساب والسقوط عن رتبة انتقاء الأمهات في الحواضر أكثر من البوادي. ويرى أن التقاطع بين ذوي الأنساب في الحاضرة لجهلهم بالتحام أصولهم ببعضها أصبح كالأمر العادي، وهذا والعياذ بالله تعالى فيه خطر قطع الرحم، الذي نهانا عنه الله تعالى ورسوله ﷺ ونرى التوادد وصحيح التواصل في البادية، حتى أن القبيلة تجتمع أفرادها مع بعضها في العشرين من أجدادهم، وكلهم كأنهم آل أب واحد في الحقوق والخصوصيات السائرة، وما ذلك إلا من احترام وصلة النسب، فتدبر. وعلى هذا فالقرابة عند أولي النظر تنقسم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: القرابة الآدمية فالله تعالى قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: الآية ١] وهذه الإشارة اللطيفة الفرقانية تأمر بالتوادد والتحابب والألفة مع كل فرد من أفراد الآدميين ويفسرها ما جاء في الحديث الشريف: «الخلق كلهم عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله»[1].

---

(١) رواه الشاشي في مسنده (٤١٩/١)، وأبو يعلى (٦٥/٦، ١٠٦، ١٩٤)، وسعيد بن منصور في سننه (١٥٦٧/٤)، والطبراني في الكبير (٨٦/١٠)، والأوسط (٣٥٦/٥)، والقضاعي في الشهاب (٢٥٥/٢).

والثاني: القرابة، القريبة النسبية من طريق أب أو أم، أو من فصيلة وأسرة، أو من نسب وصهر قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: الآية ١]، ويدخل في هذا القسم قرابة القبائل والأفخاذ والعشائر.

والثالث: قرابة الولد للوالد. قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: الآيتان ٢٣، ٢٤]. وقال عليه الصلاة والسلام: «الجنة تحت أقدام الأمهات»[(١)]. وقال لرجل: «أنت ومالك لأبيك»[(٢)].

والرابع: قرابة الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: الآية ١٠]، وقال عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم»[(٣)]... الخ الحديث. فهذه الأقسام الأربعة ملزمة بالتوادد والتحابب. وكلما أدرك المرء قسمًا زائدًا منها ترتب عليه القيام بحق ذلك القسم على حدة، وهذا من أجل دقائق الشرع الشريف يعرف ذلك بتفاصيل أسراره أهل العلم حملة شريعة النبي ﷺ، ولهذا قال الفاروق الأعظم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تعلموا أنسابكم تصلوا أرحامكم، ولا تكونوا كنبط السواد يسأل أحدهم ممن أنت فيقول أنا من قرية كذا، والسر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: الآية ١٣] إنما هو ذكر القرابة أولًا والإلزام بالتعارف ثانيًا والتعارف ينتج الإلفة، والتناكر ينتج المخالفة. وقد مر هذا في معنى قول النبي ﷺ: «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف. وما تناكر منها اختلف»[(٤)] وقد شبه النوع الإنساني بالجسد الواحد ولذلك قيل لما تفرع منه شعب وبطن وفخذ، وللأصل المؤثل مخ ورأس. كل هذا لإثبات حكم السر الذي يرجع إليه نظم النوع وصحة ائتلافه، ولا يكون ذلك إلا بالتعارف. وقد قال أصحاب النظر أن من أسباب التعارف أولًا النسق الآدمي، وثانيًا الموافقة فيما يلائم النفس. ولا يشق انطباقها أو يحرك ساكنها، ويوطد ذلك معرفة لغة الرجل فإنها

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٠٢)، وأورده العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٠١).

(٢) رواه ابن ماجه (٢/ ٧٦٩)، والشافعي في المسند (١/ ٢٠٢)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤٨٠، ٤٨١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ٥١٦، ٥١٧)، وابن حبان (٢/ ١٤٢)، وانظر: بر الوالدين للطرطوشي ـ بتحقيقنا ـ طبع دار المكتبة العلمية.

(٣) رواه البخاري (٢/ ٨٦٢)، (٦/ ٢٥٤٩)، ومسلم (٤/ ١٩٨٦، ١٦٩٦)، والحاكم (٢/ ١٠)، (٤/ ٣٣٣).

(٤) رواه البخاري (٣/ ١٢١٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٣١).

الأسلوب الكلّي لحكم التعارف الأصلي. وهناك رقائق فليتدبر. ولما كان القصد التبرك بذكر نسبنا الطاهر، المتصل بسيد الأوائل والأواخر ﷺ، أردت أن أقدم نبذة في ذكر أصول آل سيدتنا فاطمة عليها الرضوان والسلام، من ذرية الحسنين الأحسنين السبطين العظيمين رضي الله عنهما، وسلام الله عليهما. وكلهم أهل مجد واحد، وعقود سمط واحد، وأقمار سمك واحد، وأشبال غاب واحد، لا يجحد ذلك إلا الجاهل المعاند:

متناسبون فواضلًا وفضائلًا ... متشابهون ضراغمًا وشبولا
فالسيد البهلول خلف منهم ... للناسبين السيد البهلولا
قد أثبتوا غرس السماح وذللوا ... للطالبين قطوفهُ تذليلا
اشدد يديك بحبلهم مستعصمًا ... تلقاه حبلًا بالهدى موصولا

أما سيدتنا الطاهرة العصماء، فاطمة الزهراء، رضي الله تعالى عنها فهي أجل الخلق نسبًا، وأفضل رسل الله تعالى أبًا، أم الآل الطاهرين تاج هامات المتقين، بضعة سيد النبيين، نور أبصار الصالحين، خزانة أسرار النبي الأمين. ولدت قبل المبعث بخمس سنين، وزوَّجها المصطفى ﷺ بإذن الله تعالى بابن عمه الرضي الوفي، التقي النقي الشريف الغطريف، أسد الله، قائد أئمة أولياء الله، مظهر العجائب، معدن المناقب، سيدنا أمير المؤمنين، الإمام عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه وأتحفه بالرضا والسلام، في اليوم السادس من ذي الحجة السنة الأولى من الهجرة، فولدت له الإمام الحسن والإمام الحسين والسيدة زينب الكبرى، والسيدة أم كلثوم، عليهم جميعًا رضوان الله وسلامه. وينتهي النسب إليها من الإمامين العظيمين الحسيبين النسيبين الشهيدين السعيدين سبطي رسول الثقلين الحسن والحسين، توفيت سلام الله عليها بعد أبيها عليه أفضل صلوات الله وتسليماته بستة أشهر، وقد أسرها أنها أول أهله لحوقًا به فسرت لذلك سرورًا عظيمًا. فكل فاطمي محمدي وكل حسني أو حسيني فاطمي وعلوي، ومن لم يرجع إلى الإمام الحسن أو الحسين فليس بفاطمي الوصلة محمدي النسبة، وقد أوجب النبي الأعظم ﷺ محبتها وهي أعني محبتها حب آلها وذريتها وتعظيمهم وإكرامهم والإحسان إلى محسنهم والعفو عن مسيئهم، وأن لا يطغى المسلم بشأن من شؤون الدنيا وبه يهمل حقوقهم ويهضم منازلهم، وما أحسن قول شيخنا القطب الغوث الفرد السيد بهاء الدين محمد مهدي آل خزام الصيادي

الرفاعي الشهير بالرواس رضي الله عنه وهو:

إياك إن أعظم الغنى من غفلة   هي للمروءة في الشريعة صادمه
وإذا رأيت فتى يؤول لفاطم   فاضممه واحفظ فيه ذمة فاطمة

وحسن قول شيخنا رضي الله عنه في آل البتول الزهراء أعز الله مقاديرهم:

يا بني الزهراء والبيت الذي   نوره ظلمة ليل الشك يمحو
كل فخر لم يكن عن بيتكم   فيه مهما صح شيء لا يصح

وقال فيهم رضي الله عنهم أجمعين:

يا بني الزهراء يا زهر الحمى   قد طوينا السر عن منشوركم
أظلمت يا قومنا قيعاننا   انظرونا نقتبس من نوركم

وأما ألطف قوله: يا قومنا وتلك الاستحكام حكمة الاقتباس ودفع شبهة الالتباس. فيما يؤول لحكم النزول يعرف ذلك أهل المنطوق والمفهوم وقد تشبثت بأذياله الكريمة فقلت في بني الزهراء: لا زالت تعمنا منهم سحائب الآل:

يا آل فاطمة وآل محمد   وفصيلة الأسد القبور المرتضى
أنا لائذ برحابكم ونزيلكم   يعطى الرضاءُ ولا يصارعه القضا

وقلت فيهم لا عدمت في الدارين أياديهم:

توسل بأبناء البتول فإنهم   أمان لأهل الأرض من ظلمة العما
فهم في بطاح الأرض نور فجاجها   وتمثالهم بالنص كالشهب في السما

وأما الإمام الأعظم والهزبر المقدم، ابن عم النبي ﷺ محبوب العرب والعجم شيخ الآل فحل الرجال الأزهد الأورع المقدام الأروع أسد الله، وصي رسول الله، رابع الخلفاء، تاج الأولياء، زوج البتول، خزانة المنقول والمعقول، لسان أهل الوجدان، ناطقة أرباب الأحوال والعرفان، روح العارفين أبو الأئمة المهديين، عين أولي الفضل واليقين، يعسوب نحل المؤمنين أبو الحسنين علم الله الخفّاق في الحضرتين الذي هامت به القلوب، وانكشفت بتحقيقاته خفايا الغيوب، باب مدينة العلم الذي قام على العلم المصطفوي أمينًا والذي قال لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا فياض المواهب كنز الخوارق والعجائب، سيدنا وتاج رؤوسنا وحياة نفوسنا وضياءُ عيوننا ومولانا الإمام علي المرتضى الكرار الأنزع ابن أبي طالب كرم الله وجهه وأتحفه

بسلامه ورضوانه وأعلا في الدارين دعامة مجده وبرهانه آمين. وهو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب الحكيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وقد ثبت أن المصطفى عليه الصلاة والسلام كان إذا وصل في نسبه الشريف إلى عدنان. يقول إلى هنا، وكذب النسابون. وفي هذا المقام بحث طويل غير أن نسبه عليه الصلاة والسلام ينتهي بلا شك ولا ريب لسيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ثابت ذلك بنص القرآن وبصريح الحديث وبالتواتر القطعي، وعليه إجماع نسابة العرب في الجاهلية والإسلام وسيدنا علي ابن عم المصطفى الأعظم ﷺ، فالحبيب العظيم أرواحنا لجنابه الفداءُ وهو سيدنا وسيد خلق الله محمد رسول الله ﷺ ابن عبد الله بن عبد المطلب وتقدم النسب إلى عدنان وقد علا ذكر عدنان بحبيب الرحمٰن وبقول الشاعر:

كم من أب قد علا بابن أخي شرف ... كما قد علا برسول الله عدنان

ولد سيدنا أمير المؤمنين علي الكرار رضي الله عنه وكرم الله وجهه بمكة في البيت الحرام، وقد أشار إلى ذلك الفاضل الشهير عبد الباقي الفاروقي العمري الموصلي رحمه الله تعالى في القصيدة العينية التي امتدح بها الحضرة المعظمة العلوية فقال:

أنت العليُّ الذي فوق العلا رفعا ... ببطن مكة وسط البيت إذ وضعا

وقال منها أيضًا لا يزال يحسو من كوثره فيضًا:

وأنت حيدرة الغاب الذي أسد الـ ... ـبرج السماوي عنه خاسيًا رجعا
وأنت نقطة باءٍ مع توحدها ... بها جميع الذي في الذكر قد جمعا

وكانت ولادة الأمير رضوان الله وسلامه عليه يوم الجمعة الثالث عشر من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل، وبعد وفاة أبيه وهو صغير أضافه المصطفى ﷺ إليه ورباه وفي ذلك يقول الفاضل الفاروقي رحمه الله تعالى:

ربيب طٰه حبيب الله أنت ومن ... كان المربي له طه فقد برعا

لقبه الشريف حيدرة كما نطق بذلك شعره العالي بقوله:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة ... عبل الذراعين شديد القسورة

وكنيته أبو الحسن وأبو تراب كناه بذلك رسول الله ﷺ، وقد ولي الخلافة بعد ذي النورين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد حصل له مع معاوية رضي الله عنه منازعات وأجمع المسلمون على أنه محق وأن معاوية مخطىء وكفّوا عن النزاع فقالوا: للمعيب باجتهاده ثوابان وللمخطىء ثواب واحد وقالوا:

وما جرى بين الصحاب نسكت ... عنه وأجر الاجتهاد ثبت

وبعد أن جاهد في الله حق جهاده، وبذل في الله كل سعيه واجتهاده قضى نحبه سعيدًا شهيدًا ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان المبارك وكانت ليلة الجمعة سنة أربعين من الهجرة بغدر عبد الرحمٰن بن ملجم المارق لعنه الله، قتله بالسيف في مسجد الكوفة وقت صلاة الصبح وقد ضربه على أم رأسه فمكث سلام الله عليه بعد الضربة تسعة عشر ليلة وفي ليلة العشرين ويومها ثقل، وفي ليلة إحدى وعشرين إلى نحو الثلث الأول من الليل قضى نحبه ولقي مظلومًا ربه، وتولى غسله وتكفينه السبطان الجليلان ولداه الحسن والحسين سلام الله ورضوانه عليهما وكان ذلك بأمره وحملاه إلى القرى من نجف الكوفة، فدفناه هناك على الصحيح وعفيا موضع قبره وأخفياه، وأعلما به خواص أهل البيت، وكان ذلك أيضًا بوصية منه إليهما لما يعلمه من عداوة بني أمية وما ينتهون إليه من قبيح المقال ،ولم يزل مخفيًا حتى دل عليه الإمام جعفر الصادق رضوان الله عليه وعلى آبائه، وذلك في الدولة العباسية، وزاره حين ورد العراق وهو في الحيرة فعرفه شيعة الآل، واستداموا على زيارته، وتوفي وعمره ثلاث وستون عامًا، وقد بنى عليه الرشيد هارون الخليفة قبة وأخذ الناس يزورونه ويدفنون موتاهم عنده للبركة، إلى أن جاء عضد الدولة خسرو بن بويه الديلمي، فأجرى في المقام العلوي عمارة عظيمة وخرج على ذلك أموالًا جزيلة، وعين له أوقافًا جسيمة وزين قبته الشريفة بخشب الساج المنقوش بالذهب بطرز لم يبصر مثله وبقي كل ذلك إلى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، فاحترقت تلك الآثار وجددت عمارة المشهد على ما هي عليه الآن، وحول المشهد قبور آل بويه معروفة تزار فإنها لم تحترق. أعقب الإمام الكرار سلام الله عليه ثمانية وعشرين ولدًا ذكرًا وأنثى، وقيل: له خمسة وثلاثون ولدًا فهم ثمانية عشر ذكور. وقال آخرون: تسعة عشر وهؤلاء عدوا المحسن منهم وقالوا: إنه ولد ميتًا. مات منهم في حياته ستة، وورثه منهم ثلاثة عشر، وقتل منهم بالطف مع أخيهم الإمام الحسين ستة.

والمعقبون من ولده خمسة بلا خلاف الحسن والحسين وهما سبطا النبي ﷺ، ومحمد الأكبر ويعرف بابن الحنفية وأمه خولة بنت قيس والسيد العباس شهيد الطف وأمه أم البنين بنت حرام بن خالد بن ربيعة وعمر الأصغر ويسمى الأطرف وأمه الصهباء أم حبيب بنت ابن مجير بن العبد بن علقمة، اشتراها الإمام الكرار من سبي سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه من عين التمر وعرف حسبها فأعتقها وتزوجها. فإلى هذه الخمسة تنتهي أصول آل علي سلام الله عليه. فالفاطميون منهم يؤولون منهم كلهم كما تقدم للسبطين الإمامين الحسن والحسين سلام الله عليهما. أما أصول الإمام الحسن السبط رضوان الله وسلامه عليه فسنذكرهم مجملًا فنقول: أعقب الإمام الحسن تسعة عشر ولدًا، منهم سبعة عشر ذكور إلا أن عقبه من رجلين زيد والحسن المثنى، فعقب زيد من ولد واحد وهو الحسن ولا عقب لزيد من غيره، أعقب الحسن من سبعة رجال وهم القاسم أبو محمد، وعلي الشديد، وإسماعيل وإسحٰق الأعور الكوكبي، وأبو طاهر زيد، وعبد الله وإبراهيم، ولهم ذرية في العراق والحجاز. وقيل: إن منهم في المغرب، وإلى الله المصير. وأما عقب الحسن المثنى فمن خمسة وهم: عبد الله المحض: وإبراهيم الغمر والحسن المثلث وداود، وجعفر، وإلى الحسن المثنى رضي الله عنه يرجع نسب أشراف مكة وأمرائها وآل إدريس ملوك المغرب، وأمراء صنعاء والفاتكيون والمحضيون جماعة الديلم وآل المكفوف، وهو بدوي وله عقب ببادية دمشق والحجاز وآل طباطبا في العراق وفارس وآل الحرار وآل الرضى النقيب وهو غير الشريف الرضي، فإن ذاك من آل الحسين وسيأتي ذكره فيهم، والسيلقيون ومن مشاهير الأولياء القطب الجليل الغوث الأصيل السيد الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه. ولنا والحمد لله نسب إليه من طريق الأمومة والقطب قضيب البان الموصلي، والعارف الشهير السيد الشيخ أبي الحسن الشاذلي والسيد الشيخ عبد السلام بن مشيش والسيد صفي الدين أحمد بن علوان صاحب يفرس في اليمن وآل وفا بمصر وغير واحد من الأكابر رضي الله عنهم أجمعين. وأما أصول آل سيدنا الإمام الحسين السبط الشهيد رضوان الله وسلامه عليه فقد كان للإمام الحسين ستة أولاد: علي الأكبر، وعلي الأصغر، وجعفر، وهذا توفي في حياة أبيه ولا بقية له، وعبد الله وقد قتل مع أبيه صغيرًا جاءه سهم وهو في حجر أبيه، وسكينة وفاطمة ولا عقب للإمام الحسين إلّا من سيدنا الإمام زين العابدين علي رضي الله عنهما.

فائدة[١]:

ولد الإمام الحسين سنة أربع من الهجرة ولقي الله شهيدًا في كربلاء في مُلك اليزيد بن معاوية سنة إحدى وستين لعشر مضين من محرم يوم السبت، وقيل يوم الاثنين عند الزوال تولى قتاله والعياذ بالله عمر بن سعد فكان أمير جيش اليزيد من قبل عبيد الله بن زياد. وكان ابن زياد يومئذٍ واليًا على العراق قاتل الله أولئك الأمراء وقبح الله ذلك الجيش:

أترجو أمة قتلت حسينًا شفاعة جده يوم الحساب

ولا غرو فإن مصيبة قَتل الإمام الحسين سلام الله ورضوانه عليه مذلة لحقت المسلمين إلى يوم الدين ويقول القائل:

وإن شهيد الطف من آل هاشم أذل رقاب المسلمين فذلت

ولينظر لسر الله تعالى فإن الله استأصل ذلك الجيش ولم يحل عليه الحول إلّا وكلهم قتيل، وزالت دولة اليزيد ومات منغصًا ومقهورًا ولحق ذلك الشؤم آله فأزال الله عصبتهم، ومزق دولتهم وأذلهم وأهانهم، وقهر من أعانهم وترى الآن،أن قبر اليزيد يرجم كما يرجم الشيطان، ويبال عليه وتساق اللعنات إليه ومشهد الإمام الحسين سلام الله ورضوانه عليه طافح بالنور، كامل العز والمهابة والحبور، يقصد من أطراف الدنيا، وفي موسم شهادته تغص تلك القيعان بالزوار، فكأنه حج ثان ونشر الله ذريته الطاهرة في بقاع الأرض، وجعل منهم الأئمة سادات الأمة، وجاء منهم الأمراء والأولياء والعلماء والعظماء، وأكابر الدين وبعد ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: الآية ٤٥].

عجيبة:

استدام الأمويون على التجرؤ على لعن الإمام المرتضى سلام الله عليه، إلى عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فأزال سنتهم السيئة الملعونة، وأحدث محل السّبّ على المنابر، تلاوة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: الآية ٩٠] الآية، وقد تجرأ مروان على لعن الأمير المعظم الكرار رضوان الله وسلامه عليه، في محضر السيدة سكينة بنتُ سيدنا الإمام الحسين فلعنته

---

(١) انظر: التحبير في المعجم الكبير (١/ ١٢٨)، وصفوة الصفوة (١/ ٧٦٢)، والذرية الطاهرة للدولابي (ص ٨٤)، وتاريخ الطبري (٣/ ٤٣٣).

وأباه وأبا أبيه بوجهه، ودخلت على هشام الأموي مرة في قواعد نساء قريش فسلبته منطقته، ومطرفه وعمامته، فدعا هشام بثياب غيرها فلبسها، ولم يتكلم إجلالًا لشأنها.

قلت: ولما أصلح عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، شأنه مع الله بمحبة آل بيت رسول الله ﷺ، والإحسان إليهم وتعظيمهم ووقايتهم، أعزه الله وألقى محبته في قلوب الخلق، وعظمته طبقة بعد طبقة حيًا ميتًا، ولما مات رثاه كثير، الشاعر الشهير. فقال:

عمت صنائعه فعم مصابه ... فالناس فيه كلهم مأجور
ردت مناقبه عليه حياته ... فكأنه من نشرها منشور
والناس مأتمهم عليه واحد ... في كل دار أنة وزفير

وفي شأن يزيد وعمر بن عبد العزيز عبرة فليتدبر. وأما أصول آل الحسين فهم كما ذكرنا، يؤولون إلى الإمام السجاد، عين العباد والزهاد، تاج المقربين، نور أعين العارفين، ذي الشرف الباهر الجلي، سيدنا الإمام زين العابدين علي، رضوان الله وسلامه عليه. وهو أعقب خمسة عشر ولدًا وعقبه منهم في ستة: سيدنا محمد الباقر، وعبد الله الباهر، وزيد الشهيد، وعمر الأشرف، والحسين الأصغر، وعلي الأصغر. شهد الإمام السجاد واقعة كربلاء وكان في خدمة أبيه في كربلاء، وكان رأى القوم قتله، وقطع الشجرة الحسينية من أصلها فحماه الله منهم.

تحفة:

رأى بعض الصالحين الإمام المرتضى الكرار عليه الرضوان والسلام، فقال يا سيدي كم ملكتم فعفوتم وهؤلاءِ آل أمية، انظر كيف فعلوا بآلك لما ملكوا، فقال له: الجواب أبيات نظمها الحيص بيص هذه الليلة لم يرها أحد، سله عنها واقرأها ففيها جوابك. فاستيقظ متعجبًا وذهب بعد صلاة الصبح إلى الحيص بيص قبل أن يخرج من داره فسأله عن الأبيات فتعجب، وأخرج له رقعة فيها:

ملكنا فكان العفو منا سجية ... ولما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتمو قتل الأسارى وطالما ... غدونا عن الأسرى نعفو ونصفح
ويكفيكمو هذا التفاوت بيننا ... وكل إناءٍ بالذي فيه ينضح

فبكيا وذكرا آل علي بما يليق لهم رضي الله عنهم ويعجبني من هذا المقام قول القائل:

إن الكريم إذا تمكن من أذى أنسته قدرته الحقود فأقلعا

وترى اللئيم إذا غدا ذا قدرة يطغى فلا يبقي لصلح موضعا

قال صاحب الغاية في النسب اجتمع لأهل هذا البيت يعني آل علي كرم الله وجهه من كل شرف أعظمه وأجله ففضلوا على سائر الخلق ورأسوا على جماهير العرب غير مدافعين شرعًا ونظرًا. فهم البيت من آدم والصريح من ولد إبراهيم، والأمحاض من إسماعيل، والعمود من عدنان والقطب من مضر، والمخ من قريش، والصفوة من بني عبد مناف، والذروة من هاشم، والأئمة القادة والتراجمة للعرانين السادة، وكل شريف يتمنى أن يكون منهم ولا يتمنون أنهم من غيرهم.

قلت: قد أجاد بما أفاد رحمه الله رحمة واسعة. أما الأعيان من آل علي الأصغر ابن الإمام زين العابدين، فهم آل علي الجزري الذي قتله الرشيد لكونه تزوج برقية العثمانية التي كانت تحت المهدي العباسي بن المنصور، وآل جمال الدين النقيب الجرجاني، وآل الوزير أبي الحسن علي بن شرف الدين، وآل أبي الغيث، وآل رضى الدين نقباء المشهد يومئذٍ، وآل الأفطس، وآل السكران الشاعر، وآل محمد الأعرج النيسابوري، وله قصص طويلة وغير واحد من الأعاظم. وأما الأعيان، من آل الحسين الأصغر ابن الإمام زين العابدين، فهم آل الشريف الطاهر حيدرة بن ناصر، وآل محمد المدني، وآل السيلق الواسطي، وآل العقيقي، وآل أبي البشائر، وآل علي أبي الحسن المهدي ملك الديلم، وآل قوام الدين حكام سارية فارس يومئذٍ، وآل الأحوال نقباء سمنان ومنهم الإمام العارف بالله علاء الدولة السمناني، ومن أعاظم هذا البطن، آل عبيد الله الأعرج، ومنهم العظماء والحكام والوزراء والنقباء، ولسيدنا الإمام الرفاعي فيهم نسب من جدة أمه رضي الله عنهم ومن البطن المشار إليه آل العلّامة قاضي القضاة محمد بن أسعد، وقد طعن بنسبه بعض الإسماعيلية، ولا عبرة بقولهم. وأما الأعيان، من آل عمر الأشرف بن الإمام زين العابدين فآل الشجري، وآل علي العسكري الشاعر، وآل الناصر لدين الله الوزير الكبير، وآل الناصر للحق ملك الديلم، وكان زيدي المذهب حينئذٍ. وأما الأعيان، من آل عبد الله الباهر ابن الإمام زين العابدين، فآل الأرقط، وآل الحسين الطيب، وآل الكوكبي صاحب الوقائع بقزوين وغيرهم. وأما الأعيان، من آل زيد الشهيد

سلام الله على روحه الزكية، فآل أبي المكارم نقيب بغداد، وآل الحسن الزاهد، وآل أبي الغنائم النسابة، وآل قتيلة، وآل يحيئ الإمام الشهيد قتل بالكوفة، وآل عميد الدين، وآل أبي طاهر الحزاني، وآل الخطيب الحماني وخلايق. وأما الأعيان من آل الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين رضي الله عنهما، قال الإمام الصادق جعفر، ولهم فروع كثيرة، وآل الكاظم وهم منهم كماء البصر من العين، وآل إسماعيل. وآل الديباج، وآل إسحٰق، ومنهم آل زهرة نقباء حلب يومئذٍ وآل علي العريضي، ولهم ذيول في العراق وأصبهان وجرجان ومصر وغيرها. وأعيان آل الكاظم، آل الإمام إبراهيم المرتضى الأكبر، ومنهم الشريف الرضي، وأخوه الشريف المرتضى الشهيران، وآل الإمام علي الرضا، ولي عهد الخليفة المأمون العباسي وصهره على بنته، وولده الإمام محمد الجواد وولد الجواد الإمام علي الهادي، وولده الإمام الحسن العسكري وولد العسكري الإمام الحجة سيدنا المهدي المنتظر رضوان الله عليه وعليهم أجمعين. ومن عظماء فروع آل الحسين السيد الكبير تاج العارفين أبو الوفا رضي الله عنه.

والسيد الجليل عبد الرحيم القناوي، والقطب المعظم السيد أحمد البدوي، والقطب المكرم السيد إبراهيم الدسوقي والقطب الأكبر السيد بري الحسيني السلمي والقطب الأفضل السيد عبد الله الحراكي الحسيني. وفروع هذه الأصول الشريفة من أفاضل الأمراء والعلماء والأولياء والعباد والأعيان ورجال السيف والقلم لا تعد وهم أمم في المشرق والمغرب. وأعيان آل الإمام إبراهيم المرتضى آل الرفاعي حسينية المشرق وصدرهم قطب الأقطاب وإمام أئمة السادة الأنجاب، الغوث الفرد الجامع، لاثم يد النبي الطاهر الشافع، رفيع المكانة جليل المساعي، أبو العلمين محيي الدين السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه. ولهذه العصابة ينتهي نسب آل الكيال، وآل جندل، وآل شمس الدين، وآل الحريري، وآل منصور، وآل الراوي، وآل السبسبي. وهم كلهم يؤولون للسيد نجم الدين أحمد رضي الله عنه، والأعزبيون، وآل عجلان لأم، ونسبهم لأب صحيح في آل الحسين، وآل الحوراني، وآل الحلقي، وآل البلخي، وآل عز الدين الأصغر، وأعيان البيت الأحمدي، آل الإمام القطب السيد عز الدين أحمد الصياد رضي الله عنه ومنهم آل خير الله بحلب ولهم فروع، وآل الأطرش، وآل الشيوخ، وآل العاري، وكلهم لهم فروع كثيرة. ومن خواص أعيان آل الصياد آل خزام، فمنهم في البصرة وضواحيها، ومنهم القطب الأكبر والغوث الأشهر، مولانا السيد بهاء الدين محمد مهدي الصيادي دفين بغداد شيخنا الذي نستند في

الطريق إليه، ونعول بعد الله ورسوله وسلفه الطاهر عليه. ومنهم السيد الإمام حسين برهان الدين آل خزام وأخوه القطب السيد علي، وذرية هذا بادية في ديار الشام. ومن آل خزام بالقرب من الرمثة بادية مشهورون معروفون محترمون معتقدون. ومن آل خزام في الموصل الحدباء. ومنهم في عدن السيد عتيق هو من آل السيد علي دفين الصالحية وأخو الإمام السيد حسين برهان الدين الصيادي. ومن آل السيد حسين برهان الدين آل السيد محمد العجاج وإليه يؤول نسب أستاذنا الولي الكبير السيد رجب الصيادي. ومنهم آل عوفات وآل الصياد بطرابلس الشام وقد يؤول إلى الإمام السيد حسين برهان الدين آل خير الله بنو الصياد من طريق الأم، فإن أم السيد خير الله الصيادي ابن السيد أبي بكر الصيادي الشهير قدّس الله أسرارهما فهي السيدة فاطمة، بنت السيد حسين برهان الدين. ومن آل السيد حسين برهان الدين آل القطب السيد علي آل خزام دفين حيش، قرية من أعمال معرة النعمان. والسيد علي آل خزام هذا، قدّس الله سرّه وروحه، هو جدنا وعماد مجدنا. وسنذكر إن شاء الله نسبه مسلسلًا، إلى الجد الأعظم ﷺ.

فائدة:

سيدنا الإمام السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه، وعنّا به، أعقب من بنتيه الطاهرتين، السيدة فاطمة، والسيدة زينب، زوجهما بابني أخته، فزوج السيدة فاطمة، الإمام الجليل السيد سيف الدين علي بن عثمان الرفاعي الحسيني، وزوج السيدة زينب، القطب الكبير السيد عبد الرحيم بن عثمان أخو السيد علي المتقدم ذكره. ومنهما الذرية الأحمدية، غير أن الذرية المتسلسلة، هي ذرية السيدة زينب رضي الله عنها. فالسيد عثمان، والد السيدين الكبيرين علي وعبد الرحيم رضي الله عنهم أجمعين هو ابن السيد حسن ابن السيد محمد عسلة، ابن السيد الحازم الأشبيلي الرفاعي الحسيني وسيدنا الإمام شيخ مشايخ الإسلام علم الإسلام، سلطان الأولياء الكرام رحمه الله في عصره للخواص والعوام، القطب الغوث الأكبر والأسد الإلـهي الغضنفر، علم الله المنشور، ذو المشهد المغموس بالنور، المندوب في مهمات الدواعي، أبو العلمين، مولانا السيد محيي الدين أحمد الكبير الرفاعي، رضي الله عنه وعنا به. فهو ابن سلطان العارفين، مولانا السيد أبي الحسن علي دفين بغداد، ابن السيد يحيىٰ نقيب البصرة القادم من المغرب إلى العراق، ابن السيد ثابت أبي أحمد ابن السيد حازم الذي تقدم ذكره، بنسب السيد عثمان الرفاعي رضي الله عنهم أجمعين. وها نحن نتشرف بذكر نسبنا الأطهر، إلى هذا الأصل الأمجد الأزهر،

فنقول: إن مصنف هذه الرسالة وجامع شملها، هو الفقير إلى الله تعالى، محمد أبو الهدى، ابن السيد حسن وادي، المكنى بأبي البركات، قدّس الله سرّه، ابن السيد علي، ابن السيد خزام، ابن القطب السيد علي آل خزام ابن القطب العلّامة الفهامة السيد حسين برهان الدين، الذي تقدم ذكره. ألا وهو القادم من البصرة إلى دار حماة، نزيل قبيلة بني خالد الإمام الكبير ابن السيد عبد العلام، ابن السيد عبد الله شهاب الدين، ابن السيد محمود الصوفي، ابن السيد محمد برهان، ابن السيد أبي محمد حسن الغواص، دفين دمشق الشام، ابن السيد الحاج محمد شاه، ابن السيد محمد خزام دفين الموصل، ابن السيد نور الدين، ابن السيد عبد الواحد، ابن السيد محمود الأسمر، ابن السيد حسين العراقي، ابن السيد إبراهيم العربي، ابن السيد محمود، ابن السيد عبد الرحمٰن شمس الدين، ابن السيد عبد الله نجم الدين القاسم المبارك، السيد محمد خزام السليم، ابن السيد شمس الدين عبد الكريم، ابن السيد صالح عبد الرزاق، ابن السيد شمس الدين محمد، ابن السيد صدر الدين علي، ابن القطب الغوث الجواد (أبي علي السيد عز الدين أحمد الصياد) رضي الله عنه وعنهم أجمعين، ابن السيد عبد الرحيم المتقدم ذكره، ابن السيد سيف الدين عثمان، ابن السيد حسن، ابن السيد محمد عسلة، ابن السيد الحازم، ابن السيد أحمد، ابن السيد علي المكي، ابن السيد الحسن رفاعة المكي الكبير، نزيل المغرب، ابن السيد المهدي، ابن السيد أبي القاسم محمد، ابن السيد الحسن، ابن السيد الحسين، ابن السيد أحمد الأكبر، ابن السيد موسىٰ الثاني، ابن السيد الإمام إبراهيم المرتضى، ابن الإمام موسىٰ الكاظم، ابن الإمام جعفر الصادق، ابن الإمام محمد الباقر، ابن الإمام زين العابدين علي، ابن الإمام الحسين الشهيد السعيد، ابن الإمام أمير المؤمنين أبي الحسنين سيدنا علي المرتضى بن أبي طالب، رزقه من زوجه الطاهر البتول، سيدتنا فاطمة بنت رسول الله ﷺ، سيدنا وسيد المخلوقين، محمد الطاهر الأمين، صلوات الله وتسليماته عليه، وعلى جميع النبيين والمرسلين، وآل كل وصحب كل أجمعين. وهنا أقول اللهم يا عالم السر وأخفى يا رب محمد وإبراهيم وموسىٰ، نسألك بكلامك الأعلى، وبحرمة نبيك وحبيبك سيدنا محمد المصطفى، أوصلنا بنسب نبيك الهادي الأمين وحسبه وأتحفنا بشريف أخلاقه وأدبه، واحشرنا معه وتحت لوائه، وأكرمنا بالاندراج في سلك آله وأبنائه، اللّهمّ كما وصلت نسبنا الصوري بجنابه الكريم، حقق لنا النسب المعنوي بمنهاجه القويم، والتخلق بخلقه العظيم، واجعلنا ووالدينا ومن تحويه شفقة قلوبنا والمسلمين، تحت

حمايته وفي حصن ملاحظته ووقايته في الدنيا والآخرة، آمنين مطمئنين، مع آله وأصحابه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فائدة:

ولد سيدنا الإمام، السيد أحمد الرفاعي الحسيني الكبير رضي الله عنه، عام اثني عشر وخمسمائة، وتولى أروقة أهله، ومشيخة الشيوخ في البطائح بعد خاله سيدي منصور الرباني البطائحي، وله من العمر ثمان وعشرون سنة. وحج سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فمدت له في المدينة المنورة يد جده ﷺ فقبلها والناس ينظرون، وحين قابل القبر الكريم، قال: السلام عليك يا جدي فقال له عليه الصلاة والسلام: وعليك السلام يا ولدي، سمع ذلك الحاضرون أجمعون. وبالجملة فالإمام الرفاعي محبوب النبي ﷺ، ونائبه في الأرض في عهده. توفي رضي الله عنه سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، عن ست وستين سنة، وقد ملأت شهرته الأرض. وكيف لا وهو الحريّ بقول القائل:

ما عذر من ضربت به أعراقه حتى بلغن إلى النبي محمد
أن لا يمد إلى المكارم باعه ويجوز من قطع العلا والسؤدد
مترفعًا حتى ترى أذياله طول الزمان عمائمًا للفرقد

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه وعنا به لأناس لاموه بكثرة تفانيه في محبة الآل الكرام، عليهم الرضوان والسلام:

ولما رأيت الناس قد ذهبت بهم مذاهبهم في أبحر الغي والجهل
ركبت على اسم الله في سفن النجا وهم أهل بيت المصطفى خاتم الرسل
إذا كان في الإسلام سبعون فرقة ونيف على ما جاء في واضح النقل
وليس بناج منهم غير فرقة فقل لي بها يا ذا الرجاحة والعقل
أفي الفرق الهلاك آل محمد أم الفرقة اللائي نجت منهم قل لي
فإن قلت في الناجين فالقول واحد وإن قلت في الهلاك حفت عن العدل
رضيت عليًا لي إمامًا ونسله رضيت بهم لا زال في ظلهم ظلي
وأمسكت حبل الله وهو ولاؤهم كما قد أمرنا بالتمسك بالحبل

ومما قيل في الأمير الكرار، علي المرتضى، كرم الله وجهه:

كل من والى عليًا مخلصًا ليس يدهى بعظيم السيئات
حبه الإكسير لو صبّ على سيئات الخلق صارت حسنات

ولا بدع فالمرءُ مع من أحب، كذا أخبرنا النبي المنتخب ﷺ. ويحكى في أمر الحب عن الشبلي، أنه دخل على إمام الطائفة الجنيد رضي الله عنه فقال:

عودوني الوصال والوصل عذب ورموا بالصدود والصد صعب
زعموا حين عذبوا أن ذنبي فرط حبي لهم وما ذاك ذنب
لا وحق الخضوع عند التلاقي ما جزى من يحب إلا يحب

لطيفة:

المحب يريد للمحبوب الخير اللازم، الذي لا يزول، الصافي مع إرادة سكون المحبوب، وثبوته في سويداء القلب والحدقة، إن قدر على ذلك. بل ترى المحب يريد الاتحاد بالمحبوب بحيث لو قدر أن يدخله قلبه، ويكون هو هو لفعل. وهذا في الحب، مرتبة العشق المفرط. وفي كل هذا، فالمحب الضخم المجد، الثابت القدم، لا يسقط إلى منزلة التصابي، فإن السقوط إلى منزلة التصابي، يدفع بالمحب من حال شريف، إلى حال وضيع، بل ربما اجتذبه لما لا يلائم جليل مجده، ولا يشاكل شأن أبيه وجده. ولذا فالعالي الجناب، مع تفننه في المحبة، التي تنبت في قلبه سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، فهو لا يتزلزل، عن منزلة الاستقامة، ولا يمس في شأنه ما لمجد أهله من الكرامة. وإذا فعل ذلك رقت حواشيه، ولطفت معانيه، وما تصابى في غرامه، وإن ظهر حكم ذلك على أطراف كلامه. قال الأمير تميم بن المعز، وفي ذلك من المعنى المقصود، ألطف طرز.

ما بان عذري فيه حتى عذرا فمشى الدجا في خده فتحيرا
همت تقبله عقارب صدغه فاستل ناظره عليها خنجرا
والله لولا أن يقال تغيرا وصبى وإن كان التصابي أجدرا
لا عدت نقاح الخدود بنفسجًا لثمًا وكافور الترائب عنبرا

وقلت مضمنًا الشطر الأخير لبعضهم، وقد جاء في غاية الحسن، هكذا أظن.

يا من ولهت به والقلب طار له والروح تأخذها من ذكره الفكر

أصبو إليك ولم أبرح بمنزلتي من شيمتي وبكلي النار تستعر
لولا سناك الذي لاحت بوارقه ما طاب لي أن يرى في برجه القمر
وقائل قال لي كم قد خلوت به فخذ نصيبك كيما يخمد الشرر
فقلت دعني لذي اللذات عاقبة لا خير في لذة من بعدها سقر

قلت: وقد جاء في الخبر، عن الحبيب الأزهر ﷺ: «من عشق فعفّ فكتم فمات مات شهيد»[1] ولا بدع. فشهيد المحبة ملحق بشهداء المعركة. اللهم اجعلنا ممن أحب فأخلص، ورفع حبه إليك، ولم يعول إلا عليك، وحققنا بالصدق واليقين، واكتبنا في دفتر عبادك الصالحين آمين.

وهنا خاتمة هي إن شاء الله نور الروح، وباب الفتوح ومعراج القلب، إلى حضرة الرب. وتلك قصيدة نضيدة مدحت بها حضرة سر الوجود، بحر الكرم والجود، صاحب المقام المحمود، نبينا الأعظم ورسولنا الأكرم ﷺ. وها هي تميس بمرطها النفيس، وتزدري بأجنحة الطواويس.

ألا يا من به يجلا الظلام عليك صلاة ربك والسلام
جمالك أترع الأكوان نورًا ومنهجك الشريف لها نظام
ولولا نورك الآثار طمس فلا شمس ولا قمر يشام
طلعت بنبعة الشرف المعلا رسولًا جنده الرسل الكرام
وفي دست الرسالة قمت فردًا لكل الأنبياء هو الإمام
لمجدك في معاريج التداني مقام لا يدانيه مقام
وأنت أمين ربك في البرايا لظل حماك يلتجىء الأنام
قلوب العاشقين لها حنين لذكرك واضطراب واضطرام
حباك الله وحيًا من لدنه به في قلبك انتظم الكلام
فأنت لسر علم الله كنز وأنت لكل منقبة عصام
تذوب لك القلوب وليس بدعًا فمن يفنى بحبك لا يلام
تطوف ببابك الأرواح وجدًا فيسكرها التشوق والغرام

(١) رواه ابن حبان في المجروحين (١/ ٣٥٢)، وابن الجوزي في الواهيات (٢/ ٢٧١)، وانظر: المنار المنيف (ص ١٤٠)، ونقد المنقول (ص ١٣٢)، وكشف الخفاء (٢/ ٣٤٦).

وعينك إذ تنام فعن كمال ... جليل الشأن قلبك لا ينام
ولولا وجهك الوضاح كل البـ ... رايا حيثما انتظمت ظلام
جلست على منصة كل فضل ... لديك ملوك رتبتها قيام
وأدوار الوجود تمر دهرًا ... وفي سلطان قبضتك الزمام
وإنك يا ابن آمنة نبي ... نبوته هي البدر التمام
بروزك أولًا في الغيب لكن ... ظهرت وأنت للرسل الختام
بحقك يا مثير العيس ليلًا ... وساقات الحجيج لها النظام
بأبيك احتمل صبا ولوهًا ... تأجج في جوانحه اصطلام
له حين انتهاض الكرب نوح ... كما قد ناح ينتدب الحمام
دعته إلى الحجاز شؤون وجد ... فمنه الدمع يحسده الغمام
وأقعده كليل العزم حظ ... يسير به إلى ما لا يرام
كمن يبغي العراق تطير فيه ... سوام كل بيتها الشام
فواهفاه هل تصفو الليالي ... وتدنو من أخي الوله الخيام
ويهدأ بالوصال قريح طرف ... عليه النوم يا علوي حرام
وجسم للفلا أضحى سقيمًا ... يكاد عليه لم يشدد حزام
كأني كالخيال ولي دموع ... لها كالغيث سح وانسجام
ولي قلب يقلب فوق جمر ... هواه الخيف والبلد الحرام
وفي فيحاء يثرب لي حبيب ... يسيل بسر رمشته الجهام
على أعتابه في كل آن ... وجوه العالمين لها ازدحام
ومن وافا حماه ولاذ مما ... دهاه بغير ريب لا يضام
وللأملاك والأملاك قصر قد ... يحط ببابه تاج وهام
تراب رحابه للعين كحل ... وقد يبرىء بمحبته الجذام
رسول الله أضنى القلب همٌّ ... يتيه لعبائه الضرب الهمام
ولا فرس ولا ثور ولا حصان ... ولا سرج لدي ولا لجام
ولا من يدفع الأكدار عني ... سوى الباري وجاهك لي حسام
وإني يا عريض الجاه عبد ... أخو ضعف متاعبه جسام
ولم يرعى الخؤن له ذمامًا ... وهل يرعى لدى الحب الذمام

يزور حماه للأغراض معن وعن حب زيارته لمام
تركت طوائف الآمال إلا بجاهك يا محمد والسلام
فللخلّات للميثاق نقض وللأحباب عن طيش غرام
يقوم تلون الحربا فيهم كما في العيس تندلس النعام
تغيرت المعاهد جل ربي وحط الجيش وارتفع القتام
فلا تنفع نصيحة ذي سداد ولا يفد العتاب ولا الملام
ولم ترفع لغير علاك شكوى إذا صعب المسير أو المقام
أحن إليك في حولي خلوت كما من ناقتي خفت البغام
أتيتك أستجير بعرض حالي وسيف العزم متثلم كهام
وغير ندى يديك فلا وراء يطيب به الفؤاد ولا أمام
بنات الدهر تطرقني لعلمي وأتعب هذه الناس الكرام
أترضى أن أعارك متعبات وذيال المراح له جمام
طوت بي هذه الأكدار سقمًا فلا حزم لدي ولا اعتزام
وهل يبدو لجوهرة بهاء عليها وهي في الحفر الرجام
أغث يا روح جسم الكون يا من تزول بسره الكرب العظام
اغث يا ابن العواتك يا حبيبًا بنهلة ريقه تحيي العظام
فلم أند بك والأيام تبدي قطوبًا غير يعقبه ابتسام
ويطفىء لوعتي شيم عذيب فلا عطش يسيء ولا أدام
وتبرد زفرة تثبت بسهم وبالألطاف يندفع الضرام
وترفعني أكف العون حتى يجبر لذلك السر اللئام
وكم رام الحسود لي احتقارًا ومنك حمى الحماء الاحتشام
وإنك بي من الثقلين أولى بذي الدنيا وحين يرى الزحام
أغث يا صاحب الغارات إني بجاهك في الشؤون لي اعتصام
حبيب الله أدركني فعرقي له بجليل نسبتك التجام
إليك علت بسلسلة جدود ببضعتك الحسين لها انتظام
وما لي غير فضلك من مرام ولا قلبي تسامره الحطام
فلاحظني بغوثك من زمان به قد سامت الخف السنام

وأعــداء ولــو كــانــوا رجــالًا   لــلذ إلــي إذ تــرمــي الــسـهــام
ولـكـن مـن طـغـام الـنـاس رد   الجواب لـهـم يـهـون لـه الحمام
ضـحـكـت لـذي الـشـؤون كـل آن   فـأعـداء الـكـرام هـم الـطـغـام
أبـا الـزهـراء يـا شـرف الـبـرايـا   ويـا مـن شـأن دولـتـه الـدوام
بك الشرف الصميم له افتتاح   ونـظـم الـمـرسـلـين لـه اخـتـتـام
وعـنـك الـعـلـم والآيـات جـاءت   وبـالله الـتـولـه والـهـيـام
ومنك طرائف الإحسان تبدو   وعـنـك الـصـوم يـؤخـذ والـقـيـام
وكم خصمت بالمعنى خصامًا   دهـاهـم مـن جـلالـتـك انـتـقـام
وكم أغـنـيـت مـسـكـيـنًا عـديـمًا   وزال بـلـطـف نـفـحـتـك الـسـقـام
هـداك لـكـل ذي عـقـل كـمـال   ومـنـه لـكـل ذي نـقـص تـمـام
بحقك بالقبول أشمل ضراعي   لأنـشـط والـقـبـول هـو الـخـتـام

اللهم تفضّل علينا بحسن الختام واجعلنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ومن الذين دعواهم فيها سبحانك اللّهمّ وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين.

تمت هذه الرسالة المباركة تصنيفًا وكتابةً في ٢٩ شوّال سنة ١٣٢٠

حديقة المعاني

في حقيقة الرحم الإنساني

تأليف

قطب العارفين السيد محمد أبي الهدى الصيادي الرفاعي

المتوفى ١٣٢٨هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا ونبيّنا محمد وعلى جميع إخوانه النبيين والمرسلين، وآل كل وصحب كل أجمعين.

أما بعد:

فيقول العبد المستند إلى معونة الله في جميع المقاصد والمساعي، محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي، كان الله له في الدارين، إنه وليّ الأمرين، كتابي هذا كتاب لطيف، وسفر شريف، فيه من المقاصد أسناها، ومن المباحث أحلاها، ومن الفوائد أعلاها وأغلاها، ولهذا سميته (حديقة المعاني في حقيقة الرحم الإنساني)، لا يخفى أن البشر كلهم من آدم وحواء عليهما السلام، وآدم اسم عربي، يشتق من أدمة، وهي ـ أعني الأدمة ـ سمرة اللون، وقيل سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض، ويقال لمن ينسب إليه آدمي، وقيل سمي آدم إشارة لأنه يعيش من الأدم أعني الطعام، والاشتقاق الصحيح، يكون من كلمة أدمة. علمه الله سبحانه الأسماء كلها، وتكلم بكل لغة، وولد له أربعون ولدًا في عشرين بطنًا، مات وعمره تسعمائة وثلاثون سنة، وتجاوزت ذريته الألوف الكثيرة في حياته، وتدلى النسب منه إلى سيدنا نوح، فهو العقد العاشر بالتسلسل، وأولاده ثلاثة (يافث وحام وسام) فمن يافث الترك، ويدخل في نسبهم القبجاق، ويقال لهم الفخشاخ والطفرغر، وهم التتر، ويقال لهم الططر، والخور، وهم الغز، وإليهم تنتهي السلاجقة، الملوك المعروفون، والخزلخية، والهياطلة، ويقال لهم الصغد، والعيلان والفور، والأركشي، واللات، والروس، والشركس. وقال بعض النسابة وهم غير الجراكس. غير أن الجراكس، نزلوا عليهم وتعلموا لغاتهم فعدوا فيهم وزعم بعضهم أن الجراكس من العرب. وأما حام فجميع أجناس السودان تنتهي إليه وله أربعة أولاد، مصر ويقال له مصرايم، وكنعان وكوش وقوط وإليهم تؤول بطون السودان والزنج والحبشة والهند والسند والقبط والكنعانيون. وقيل

في الكنعانيين جبابرة الشام أنهم من آل كنعان. هذا وقال بعض النسابين بل التوافق وقع في الاسم فقط وكنعان الشام من العرب. وأما سام فقد قيل بنبوته وهو أبو العرب وينتهي إليه أيضًا الروم وهم آل آدم من سوريان بن نبيط بن ماش بن آدم بن سام بن نوح عليه السلام، وسوريان هو الذي حشد بذريته وقومه وأقام في ديار سورية فنسبت إليه. وعن هذه الأصول تفرعت الفروع الآدمية في المشرق والمغرب والجنوب والشمال من جميع أجناس، العالم ولعدم الإطالة اكتفينا بذكر الأصول وهي المقصود إذ بها تعين نظم الفروع وقد خلقها الله تعالى من أب واحد وأم واحدة، وبث منهما رجالًا ونساءً آباء وأمهات وأبناء وبنات وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا وبطونًا وأفخاذًا ليتعاطفوا، وعظم الرحم كالتعظيم وأجلها في الصدور والنفوس وقرنها باسمه الكريم فقال تعالت قدرته في الكتاب العزيز: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: الآية ١] وجعلها، أعني الرحم تتعلق بالعرش وتقول: «اللّهم صل من وصلني واقطع من قطعني» وعن النبي ﷺ قال: «الرحم معلقة بالعرش تقول: ألا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله»، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: الآية ١] قال المفسرون من جماهير المحققين في هذه الآية: إلزام بالتوادد والتواصل وبيان للقرابة الآدمية وأمر صريح بالتقوى أي الخوف من الله فيما يتصل بحقوق أهل منزل المرء وفصيلته وبطنه وفخذه وقبيلته وبني جنسه وكلهم أرحام، فصلوها ولا تقطعوها. وبعد أن أمر سبحانه بالخوف من الله في صلة الأرحام أكمل الإنذار فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي حافظًا مطلعًا لا تخفى عليه منكم خافية يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. وورد أن المصطفى ﷺ رأى رحمًا معلقة بالعرش تشكو إلى الله من رحم أخرى قطعتها، فسأل جبريل عليه السلام فقال: بينهما سبعون أبًا، فإذا تحقق الإنسان بمعرفة هذه الحقيقة راعى الرحم الإنساني بل حفظ الحق لكل ذرة مخلوقة فتباعد عن إحداث الأذى لذرة من الذرات. ويقال الإنسان البر لا يؤذي الذر. ومعنى الصلة في حق الخلق هو ضد القطيعة فيصح اتصال بعضهم مع بعض حتى يكونوا شيئًا واحدًا، والقرابة على أربعة مراتب الأولى: مرتبة القرابة الآدمية المعنية بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: الآية ١] وهي ملزمة بالتحابب وحسن الألفة مع الآدميين على الوجه العرفي، يؤيد هذا حديث «الخلق كلهم عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله». والثانية: القرابة التي يلحمها النسب من أب أو أم أو من فصيلة جد وعم ونسب

وصهر وما يماثل ذلك، وهذه المعنية بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: الآية ١] وهذه القرابة ترتفع إلى أربعين وقيل إلى سبعين أبًا ومنها: قرابة القبائل والعشائر. والثالثة: قرابة الرجل لأبويه قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: الآيتان ٢٣، ٢٤] والرابعة: قرابة الإيمان قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: الآية ١٠] وفي الخبر المسلم أخو المسلم.

تنبيه:

قرابة الإيمان أرجح مراتب القرابة ميزانًا وأعظمها حقًّا، ولكن لا تمنع حقوق تلك المراتب، وانظر فإن الوالدين إن كانا على غير دين الإسلام فحقهما على الولد حسن الصحبة لهما طول الحياة، وفي النص: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: الآية ١٥] وعليه بعد المعروف إليهما وإفاضة البر عليهما أن يرشدهما إلى الإسلام بحسن الأسلوب والقول اللين، وإذا ماتا أن يواريهما فإذا ماتا انقطع حقهما عنه، بخلاف الوالدين المسلمين فإنه يجب عليه برهما في الحياة وبذل المعروف إليهما والتأدب إلى الغاية معهما وأن يؤثرهما على نفسه وزوجه وبنيه ولا يرفع صوته عليهما ولا يحدد النظر إليهما وليتطلب في كل آن رضاهما ويحسن إليهما بماله وبقوله مدة حياتهما وأن ينفعهما بدينهما ودنياهما، وإذا ماتا وجب عليه أن يدعو لهما في كل وقت ويتصدق عنهما ويفعل ما يستطيع من الخير ويرسل ثوابه إليهما ويحفظ ودهما في كل من لهما إليه مودة ومحبة رعاية لحقيهما، وأما أرباب المرتبتين من الذين سبق ذكرهم إن كانوا من غير المسلمين، فحكم الآدمية في المرتبة الأولى وحكم لحمة النسب والقرابة القريبة من المرتبة الثانية يلزمان بحسن الألفة معهم والرفق بهم والنفع لهم وكف الأذى عنهم ودعوتهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذا هو الأدب الشرعي المرعي. وأما ما جاء بنص الكتاب ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: الآية ١٢٣] هذا عند تعديهم على حقوق الدين وتجاوزهم على مصالح الأمة والغلظة التي تمنعهم عن زفرة الجهل والظلم والعدوان والضر الذي يتعدى إلى نوع الإنسان، فهي أيضًا من إسداء المعروف إليهم يفقه ذلك العاقلون ويعلمه العالمون. والمرء مطالب من قبل الله بحقوق الخلق والعدل فيهم بحيث يكون مع الناس كأسنان المشط لا يترجح واحد منها على آخر. وقد أهلك الله قوم شعيب عليه السلام، بترك العدل والقسط في حق النوع وكل أمة ظلمت حقوق النوع العام ذاقت وبال عاقبة أمرها، والتي عدلت ووقفت عند حد القسط فآتت النوع الآدمي حقه كثرت وكبرت وازداد

شأنها وعمرت وتسلسل فيها الخير ونما مالها وعظم منالها، ويظهر من حكم الحكمة الصنعية التي انتشر عنها الذر العام، اتصال الأجزاء العامة ببعضها بمقتضى الطبع، إذ الحوادث من حيث هي أخوات بعضها في نظم المخلوقية. فتدبر أيها اللبيب، ترى قيامك بالهواء والماء والشمس وديباج الليل وبالغذاء وبتجدد كل ذلك مع رمشات العين، كل شيء بما يناسبه من سر التجدد وترى احتياجك له وللأرض فهي مهدك الذي تقر عليه وتؤول إليه وكل ما يصل إليك من طعام وشراب وكساء ومشاهد ومسموع وملموس فهو متصل بك وأنت متصل به، يجب عليك لأجله الشكر والحمد لصانعك وصانعه ومعرفة حقه من كل وصف وطور فلا تهضم لشيء اتحد معك بنظم المخلوقية حقًّا، وإنك إن لم تعلم بهذا الخلق تجهل حقوق الخلق وحينئذٍ تنحط عن مرتبة الكرامة التي هي مرتبة النوع الذي أعطاه الله التكرمة على النوع المخلوق العام بكل صنوفه فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: الآية ٧٠] وشؤون الاتصال بالعوالم العلوية والسفلية بادية في كون الإنسان، فالضياء عنه الأنموذج ضياء البصر والريح المصرف في الفضاء عنه النفس والليل والمطلسم عنه غلغال الفكر وصندوق الصدر والشمس عنها العقل والقمر عنه مادة الخيال السيارة والنجوم عنها سوانح الخواطر والمطر الدمع والاخضلال الجامد الريق والأفلاك أوتاد اللطائف، أعني لطيفة القلب ولطيفة النفس ولطيفة الروح ولطيفة الخفاء ولطيفة السر ولطيفة الأخفى. هذا ما كان من نظريات العالم العلوي. وما كان من نظريات العالم السفلي فكروية الأرض أنموذجها الرأس والجبال أنموذجها الثديان والصرة والركبتان والنبات أنموذجه الشعر ومركبات ذرات الأرض أنموذجها مادة الجسد. فكله مركبات والمياه النابعة أنموذجها المخضلات التي ترشح عن البدن على اختلاف مواقعها وأنواعها والأشجار وأغصانها أنموذجها الوجود وأجزاؤه من يد ورجل وأنامل وفي الاتصال المحض الجامع بين العالمين أنموذج في الوجود لطيفه وكثيفه وأن طلسم الليل حين يولج في النهار وينسدل ستر ظلامه على الذرات يتصل بذات الوجود المفرد الآدمي والنهار حين يولج في الليل وينتشر ضياؤه على الحادثات فكذلك يتصل بوجود الآدمي اتصالًا محيطًا، وكما اتصل هذا وهذا به فقد اتصلا بكل ذرة كما بيناه والهواء كذلك وهو مستمر الاتصال فإذا دقق النظر اللبيب رأى هذا الاتصال العام الثابت حسًّا يلزم بصحيح الاتصال معنًى، ومتى صح هذا المعنى انقطعت غوائل القطيعة وصح الود وثبت الحب وهنالك فترى العارف يريد النفع المطلق لكل ذرة بارزة ومغيبة من الوجودات ويعرف حكم اتصاله بها، فإن هذا الاتصال الحسي يأمر بعدم الانقطاع المعنوي، أما ترى أن

العقل والشرع يقضيان بعدم إتلاف شيء من الأشياء قل أو كثر عظم أو حقر بلا موجب عقلي أو شرعي.

وهنا نكتة لطيفة: وتلك أن الشرع موافق للعقل في كل الأحوال غير أن العقل لما كانت مصادره عن أدمغة مختلفة، وفي الناس من يمزج رأيه العقلي بغرض نفسي فإذا جعل ذلك الرأي نظامًا تقول به العامة، ثقل على أهل العقول السليمة التي تنزهت عن أغراض النفوس فلذلك ترى أن ما يستحسنه العقل إن كان منزهًا عن الأغراض والعوائق والقلائق الطبعية والنفسية، يكون موافقًا للشرع لا محالة، وإن كان مشوبًا بالغرض معللًا بالهوى وهفوات النفوس فإنه لا يوافق الشرع، ولهذا فرقنا بين العقل والشرع لأن الشرع هو ما شرعه الله لعباده وإن الله بالناس لرؤوف رحيم، فلم يأمر إلا بما فيه نفع النوع العام ولم ينه إلا عن كل ما يضر بالنوع العام. ولذلك فإن المتشرع تكون كل حركاته وسكناته موافقة للعقول السليمة ملائمة للطباع الكريمة، ولكن الذي يقوم ويقعد بحكم العقل فإنه يصيب تارة ويخطىء تارة وتارة لانغماس الناس على الغالب بالميل النفساني والتقيد بالهوى وحكم الطبع والمغلوبية للفرض الكمين في خزانة الشهوة، ومن هو كذلك فخطؤه أكثر من صوابه البتة، ولهذا فالعقلاء من أعيان الأمة لا يعملون بآرائهم ولا يميلون مع أهوائهم بل عملهم بالشرع وأخذهم به مع كمال التجرد عن الميل النفسي والفرض بكل حال من الأحوال وعمل من الأعمال.
وحيث إن الذرات الكونية قائمة بالحياة الممدة المطلقة، وفي كل ذرة منها نشأة من نشأة الحياة، فالحياة هي السر الكمين الذي به انتظمت شؤون الذرات كليها وجزئيها ولها خمس مراتب، فالأولى: الحياة الكمينة في العلويات كالقمر والشمس والنجوم وأطلسها والأبراج والمواقع والأجرام كلها فهي حياة مشرقة وفي كل أجزاء تلك المظاهر العلوية عوالم بها قائمة ولها ملازمة، والثانية: الحياة الطيبة وهي حياة الملائكة الذين لا يفترون لحظة عن طاعة الله فهم لقدسه متوجهون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والثالثة: الحياة المدبرة وهي حياة الإنس والجن قامت بتدبيره تعالى فأفرغ حكم العقل والتدبير في النوعين وأخذ كل حظه، والرابعة: الحياة السارية وهي حياة كل من انسلخ عن التدبير والعقل من أولي الأرواح في الأرض والفضاء، والخامسة: الحياة المفاضة للذرات من جماد ونبات وحجر ومدر وسائر الأنواع المنقلبة منها المتفرعة عنها وهي قد أفيضت لها بواسطة الماء. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠] فكل شيء يقبل الاندماج بالصفة والانطباع بحال من أحوالها فقبوله ذلك قائم بحياته المائية، إذ لو تجردت عنه الحياة

المفاضة المائية لما قبل الاندماج بصفة ولا الانطباع بحال من أحوالها، وهناك يعلم أن ذلك الشيء قد مات وانقطعت عنه الحياة التي أفيضت إليه بنسبة استعداد كونيته في وقت ما من جوهر الماء الأصلي الذي خمر فيه على تلون تقلباته من حال إلى حال، ومن هذا التمهيد علمنا أن الاشتراك بنظم المخلوقية قد حصل لنا مع الذرات كلها علويها وسفليها فإن خالق الكون والمكان (قال لكل شيء كن فكان) فالكنية شاملة لأفراد أجناس العوالم والحياة الممدة أيضًا قائمة بالإطلاق المحض بكل ذرة كونية، فالاشتراك أيضًا في الحياة قد حصل لنا مع كل ذرة كونية، وبهذين السببين قام حكم الارتباط ووجب الاتصال المعنوي كالاتصال الحسي، وبذلك يصان حق الرحم العام فليتدبر. نعم إن لكل مادة لطيفة أو كثيفة معدن وللناس أيضًا من جوهريات الكيان معادن يؤيد ذلك قول المصطفى ﷺ: «الناس معادن خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام»[1] وإكمالًا لهذه الحكمة الكريمة التي هي كالدرة اليتيمة، قال أرواحنا لجنابه العالي الفداء: «انتقوا لنطفكم فإن العرق دساس» ولقائل أن يقول: لما كان الأصل واحدًا والاشتراك في الكونية والحياة الكلية حاصلًا فمن أين هذه المعدنية التي أعطت لبعض الأجزاء خيرية وحطت بعضها عن هذه الرتبة العلية. والجواب أن الجود الحادث من حيث هو مجتمع أنموذجه الكلي في الوجود الواحد الآدمي، وترى أن الوجود الواحد يشتمل على رأس والرأس على مقلتين وفم ولسان وعلى بطن والبطن على قلب وعلى رجلين ويدين ولا يجهل عاقل شرف المقلتين، والقلب واللسان على الرجل والقدم فهكذا المعدنية القائمة بالنوع العام فمن نظم في الكيان الكلي عينًا بنسبة معدنية لا يكون كمن نظم رجلًا وهكذا القياس فليتدبر، فإن أصحاب المعادن العالية الكريمة، هم أشرف أجزاء الموجود وأولئك في كل ملة وجنس وأمة موجودون وبمعالي الأخلاق معروفون. وقد يرفع التهذيب والأدب والعلم طبع الرجل الذي سفل به المعدن إلى طبع الرجل الذي علا به المعدن ويضع الجهل والفظاظة وسوء التربية الرجل الذي أعلا به معدنه إلى منزلة الرجل الذي سفل به معدنه، وهناك تنقلب معاني حقيقتي الرجلين والحقيقتان ثابتتان غير أن حكمهما يضمحل بما يطرأ عليه من

---

(١) حديث متفق عليه: رواه البخاري (٣/١٢٣٨، ١٢٨٨)، ومسلم (٤/١٩٥٨، ٢٠٣١)، والحاكم في المستدرك (٣/٢٧١)، وابن حبان (١/٢٩٤)، (١٣/٦٩)، وأحمد في المسند (٢/٢٥٧، ٢٦٠، ٣٩١، ٤٣٨)، والشافعي في مسنده (ص ٢٧٩)، والطيالسي (١/٣٢٤)، وإسحق بن راهويه (١/٢٢٦، ٤٣٦)، وأبو يعلى في مسنده (١٠/٤٥٨)، والقضاعي في الشهاب (١/١٤٥، ٣٥٤)، والبيهقي في الشعب (٢/٢٦٤)، (٧/٤٥٥).

العارضات الزمانية. ولهذا فقد صار طلب العلم فريضة وذلك للنفع العام إطلاقًا، فإن بالعلم تثبت حقيقة ذي المعدن الشريف ويصل طبعه إلى رقيقة معدنه وتصلح حقيقة ذي المعدن الوضيع فيصل طبعه إلى معنى معدنية الرجل الشريف المعدن، وفي هذا الشأن سر يجب التنبيه إليه وذلك أن الحقيقة الأصلية لما كانت فعالة في كونها ويمكن أن تقلب على التهذيب العارض فتهز الطبع بحكمها الأصلي، فلهذا منع العقل والشرع الأشراف عن مخالطة الأطراف هذا مع إرادة الخير لهم إذ أطراف الوجود منه فيجب أن لا تقطع عنه، ولتنظر فإن الضياء الممدود على ذرات الكيان الذي تعينت به الألوان يمزج به عند الإرسال النظر فتجتمع القوتان اجتماعًا مزجيًا فيرى بقوة ذلك المزج المشهودات. وكذا السمع يتلقى من الريح إفراغًا لطيفًا اندفع بقوة ممزوجة معه فيسمع المرء بقوة سامعته ما يسمع، وتفكر فإن طرق السمع إذا سدت أو ما بقيت قابلة لأخذ مادة الريح الممزوجة بالقوة المسموعة الأخرى فإن المرء لا يسمع، وكذلك طرق البصر إذا سدت منافذها ومنعت عن السير في الضوء فلم تمتزج معه فإن البصر يبطل، وهذا النفس فإن مادته أيضًا سيارة في الهواء ممتزجة معه آخذة منه، وهذا جلد الهيكل الإنساني فإن أفتاقه الدقيقة دافعة جاذبة للهواء بما يناسب الصنع جل الصانع، وهذه كلها اتصالات قائمة في الوجود حسًا تشير لوجوب رعاية الاتصال معنى وبعد هذا فحكم ذلك الاتصال يرتفع من درجة إلى درجة إلى أن يخلص من الرقائق إلى المرتبة الواضحة جدًا التي تظهر بكلها للعاقل العالم والغافل الجاهل، كاتصال الولد بأبويه وأقرب أولي الرحم بمن هو أقرب إليه ثم إلى القبيلة والبطن والنوع الخاص والنوع العام فإن الإنسان لا يأنس بالبهم ويأنس بواحد من جنسه الآدمي ولو هو أخرس، وفي ذلك من الأسرار الصنعية ما لا يخفى على درب وكلما رق فكر المرء ودق وقف على هذا السر المغلق وانصرف فيه مع الحق فأعطى كل ذرة مخلوقة حقها وما يليق لمقام المخلوقية منها، وإذا تم العدل في إعطاء كل ذرة مخلوقة حقها، فقد أتقن فاعل ذلك خدمة الارتباط المعنوي إضافة للارتباط الحسي، ومن لم يفعل ذلك أعني العدل في إعطاء الذرات حقوقها فليس من العلم بحكم البشرية وسر كونيتها وما يرتبط بها في عالم هذا الكيان على شيء، ولينظر المرء في لطائفه الخمس القائمة معه فإن الطعم والحاسة والسمع والبصر والشامة كل واحدة منها لا يدرك سرها إلا بوارد عليها من الكونيات فمتى ورد على الطعم ما يذوقه من حلو ومر عرف سر الطعم ومتى لمست الحاسة بوارد كوني آخر عرف سر اللمس ومتى قرع السمع وارد والبصر أيضًا عرف السر الكامن فيهما ومتى ورد على الشامة وارد كوني فمازجها عرف سرها.

وهذا الشأن يفيد أن الاتصال الكياني لا ينفك عن لطائف الوجود الإنساني فبالأولى أن لا ينفك عن كثائفه فإن احتياج الكثائف إلى الممازجات أكثر، وليتدبر العاقل حكم الظل والشمس وما فيهما من اللزوم للمواصلة الصريحة التي لا يستغني الوجود عنها، والنوم ومادته واليقظة ونكتتها والجوع والشبع وكل ما يلحق ذلك من المواد التي تقبل الإضافة إليها فإنها ضرورية الاتصال بالوجود الهيكلي ملازمة له في مواقيتها الموافقة للنظم الكياني، ولا يمكن للحادث التجرد عن الحادثات وفي هذا دليل على عجزه المطلق وقدرة صانعه القدرة المطلقة، فإن الكيان وأنواعه في بحبوحة الحدث وتحت شراع العجز والمكون في عظمة سلطانه وجلال قدرته له الخلق والأمر وليقوم له برهان الواحدية في دولة الأحدية ربط الحوادث ببعضها وله الفردانية سبحانه وتعالى، فمعنى الفردانية ينزه قدسه سبحانه عن وصمة المشاركة لشيء آخر في ذات أو صفات تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، وظل الفردانية العوالم الكونية المنبجسة عن سلطان الكنية ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: الآية ٨٢] فبعد انشقاق الكيان العام من حرفي كن، انبلج من اتصالهما حكم وجوب الاتصال في كل ما نشأ عنهما لأنهما لم ينفكا.

وقد قال السيد الجليل مولانا السيد محمد مهدي الصيادي الرواس رضي الله عنه: اللام ألف لما كان أدوات النفي للأغيار ووراءه الإثبات المحض بالآلية المصدرة بالألف، وقف أهل الكمال أول مع النفي لتحقق الإثبات، وفي النفي وأداته سر لاتصال الحوادث مع بعضها في مجملات الكيان ومفرداته وحسن قول بعضهم:

لما أجاب بلا طمعت بوصله إذ حرف لا حرفان معتنقان

فالنافية معتنقة الألف باللام لكون المنفي الحادث، فلا انفكاك للحوادث عن بعضها وإنما الألف الذي هو أول رمز الإثبات قام بالفردانية فلا يلتحق بحرف آخر، ومزج الألف المطلق في بعض الحروف إنما هو مزج إفاضة يرسم ولا ينطق به والهمزة ليست بالألف فإنها مادة ملحقة به من كونها إشارة له، والإشارة للألف المثبت يلزم بلفت الخواطر والقلوب إلى علام الغيوب. انتهى كلام سيدنا السيد المهدي رضي الله عنه وهو في غاية الحسن لاستجماعه المقاصد العالية التي ترد جموح أهل الوحدة المطلقة والحلول وتؤيد ما هو المقصود والمأمول، ومن نظر الوجود كله رآه قائمًا تحت لواء القسط الإلـهي أعطاه تعالى حظه من القسط وقد قال في كتابه العزيز: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ [الحجر: الآية ١٩] أي بميزان

القسط، وإن الخلق كلهم بارزهم ومطموسهم جنّهم وإنسهم استعبدوا بالعدالة ولهم مع الله رابطة من حكم نظم الخلق وتلك الرابطة تهز مارقهم وجاهلهم إلى الخالق من حيث لا يدري أحدهم سر الحكمة من تلك الهزة، فترى هذا يعبد الحجر بجهله وانعطاف حقيقته إلى القصد الواحد وهذا يعبد القمر والآخر يعبد النار والبقر والشجر والمدر وهذا يمزج وهذا يوحد، فمع اختلاف الطرق والمشاهد فالانعطاف إلى قصد واحد غير أن الذي عبد غيره أشرك والذي عبده هو وحد وذلك عبادته على جهل والموحد عبادته على علم ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزُمَر: الآية ٩] وقد أخذ كل من العدل الإلـهي حظه وسر الإنبات أنبأنا أن المنبت واحد وهذه النباتات مع اختلاف ألوانها هي تسقى من ماء واحد، وانظر سر الوضع ولطف الصنع فإنك ترى الحديقة اللطيفة زاهية أزهارها منمنمة بطلّها أورادها تحمل الوردة منها ورقًا مختلفًا من حيث النتيجة، فلون أحمر وورق أخضر وغير ذلك وقد مزجها ببعضها إشارة إلى أن اختلاف الألوان لا يمنع عن الامتزاج والطلوع في مشهد واحد، وأيضًا عين باختلاف الألوان اختلاف الحقائق فإن تمكن رب الحديقة بالصناعة أن يقلب ألوان ورد حديقته فيجعلها لونًا واحدًا فلا مانع وإن لم يتمكن فهل يساعده العقل السليم على قطع ما لم يوافق نظره من الأوراد الملونة وأن يخرب نظم الحديقة، أعني النظم الوضعي الذي قام بيد الصنع الإلـهي فإنه إن فعل ذلك لم يكن إلا أحمقًا، وعلى هذا فإن أمكن المرء أن يجذب أخاه الإنسان إلى معتقده الوجداني بالتهذيب وإفاضة النصيحة الحقة والحكمة والموعظة الحسنة فيا حبذا، وإلا فعليه أن يوفيه حق المجانسة الأصلية بالرفق واللطف وحسن المجاملة من غير غلظة ولا فظاظة ولا أذية ولا ظلم وأن يبذل له النفع حسب إمكانه، وعليه أن يدفع همته لحسن النظر في حق كل ذرة مخلوقة ليعرف رفعة قدر بشريته وما يترتب عليها من الحقوق، وما يجب لها أيضًا من الحقوق وهناك فيعد عبدًا صالحًا كيسًا سائسًا أمينًا وقد خلق الله آدم في نظم القدم غير أن هبوطه اعتبر مشهدًا لبروزه في نمط الخلق فجاء أخيرًا عن بقية الأنواع ليكون عليه الصلاة والسلام خليفة الله في الخلق، ولذريته هذا الحظ فإن سادة الناس وقادتهم وخاصة النوع أعني الأنبياء والمرسلين والملوك والسلاطين وخلفاء النبيين وعظماء الأولياء والعلماء العاملين المرشدين كلهم من ذريته عليه السلام، وتبصر فإن ابن آدم فيه من الأرض البسيطة جزء ومن الجبال جزء ومن الماء جزء ومن الهواء جزء ومن الريح العاصف جزء ومن النار جزء ومن السحاب السيال جزء ومن معاني النبات جزء وفيه من أخلاق الحيوانات جزء ومن أخلاق الشياطين جزء ومن أخلاق الملائكة جزء، ومن جميع

الموجودات جزء فمن التراب لحمه ومن الجبال عظمه ومن الماء دمه ومن الهواء نفسه ومن الريح قوته ومن النار حرارته، وطوى فيه ما يماثل الشمس في فلكها فتنشر الحرارة منه في الجسد وجعل فيه الرية لتبريد الحرارة عن باطن الجسد فكأنها من جهة مثال القمر في العالم الفلكي، وجعل فيه المعدة المشهية للطعام مثال الزهرة والمرار المهيج للغضب والحقد، وأفعالًا تحمد تارة وتذم تارة مثال المريخ والكبد المصفي للدم القائم بتعديل المزاج كالمشتري، وجعل فيه الطحال إلزام البرودة واليبوسة على مقتضى ما صرفه الله تعالى فيه من باطنه كزحل، والدماغ المستودع الأفكار المهيج لها كعطارد وجعل الله له قوى فعالة فمنها مغذ وجاذب وماسك ودافع ومصور ومعدل ومقسم للغذاء كالأفلاك المصرفة في الخدمة للعوالم، وركب فيه طبائع النبات والحيوان من الأكل والشرب والمرارة والحلاوة والخشونة والبلادة والحقد والشجاعة والجبن ليفهم المعاني كلها، لكنه كلف أن يصير بهمة العقل المذموم محمودًا والمستقبح مستحسنًا وجعل فيه الهمم العالية كالسمٰوات، والهمم الدنية كالأدراك السافلات وجعل له النفس الحاملة لجسده كعالم الكرسي الذي وسع السمٰوات والأرض وجعل له روحًا وعقلًا مثال العرش الحامل لكل الصفات المحمودة وقد انطوى فيه أخلاق مذمومة أيضًا، فالممدوح منها من صفات الملائكة وأخلاقهم والمذموم من أخلاق الشياطين، وجعل الله سبحانه له سمعًا وبصرًا وإرادة وكلامًا وحياة وعلمًا تامًا ليفهم بها صفات الله تعالى وتقدس، ولذلك قال الأمير الكرار سيدنا الإمام علي كرم الله وجهه ورضي عنه: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» ومتى عرف المخلوق نفسه وما انطوى فيها من عظيم الصنع وإبرام القدرة وجليل عظمة الخالقية استدل بالأثر المندمج فيه على المؤثر فعرفه، ومتى عرف سر مخلوقية نفسه عرف سر مخلوقية الآثار كلها عظيمها وحقيرها وفقه معنى الاشتراك مع الكل فوقف عند حد مخلوقيته وما تجاوز مقام عبديته وصحح أحكام الارتباط مع الذرات كل ذرة بما يليق لها ويناسب شأن كيانها، ولا ينكر لزوم ذلك إلا جاهل بأحكام الشرع غافل عن حقيقة الصنع مقيد بقيد الطبع، ولما كان الطبع يغلب التهذيب على الغالب إلا إذا كان المهذب ضخم جوهر العقل وكانت علائق النفوس وعوائقها كثيرة مختلفة الطرق والمآرب أتت الشرائع السماويات بالحكم الحق والقول الفصل مجبرة للناس كلهم على اختلاف مشاربهم ومآربهم وملزمة لهم بسلوك طريق الشرع لينتفع النوع العام بما قسم الله له من الحظ الشرعي الكافل لحفظ حقوقه، القائم له بصيانة شأنه فانتظم بحكم الشرع كل فرد من أفراد النوع بأمن محض وإطلاق ريض وقام في

النفوس حب الخير للخلق كلهم، كان ذلك من إشراق نور الشرع المنعكس إلى كل فرد من أفراد النوع، ثم ثارت غوائل النفوس وغلبت زفرات الطباع وقل العلماء وندر العقلاء، ودارت أدوار الأعصار وبرز بشهوة النفس وغلظة الطبع وخشونة النخوة أناس، فهدموا منار الشرائع السماوية وأخذوا ببث العادات السيئة التي تلائم أهوية النفوس وتوافق أغراض أهل الجموح، واجتذبوا لعاداتهم وسيىء مناهجهم أناسًا وافقهم حال أولئك المحرفين وطاب لنفوسهم فبدلوا دين الله وغيروا أحكام أوامره سبحانه فضلوا وأضلوا، ففي كل فترة بعث الله رأفة ورحمة بالنوع الإنساني الرسل، فكل منهم قام بهداية أهل عصره ودلهم على سواء السبيل حتى بعث الله النبي الحكيم الذي أوتي الحكمة وفصل الخطاب وقام بأمر الله بإظهار حقيقة الحق وإفاضة أنوار الحكم لأولي الألباب، صاحب الشريعة الجامعة شمس الله الوضاحة الطالعة سيدنا ونبينا ومولانا محمد ﷺ وعلى إخوانه ساداتنا النبيين والمرسلين أجمعين، فأحكم أحكام الحكمة وتمم مقتضيات البركة والنعمة وأتى بالشريعة المثلى والطريقة الوسطى ونصر الحقيقة الآدمية ووطد مهد الإطلاق للذرات البشرية وسلك بالخلق سبيل الصلاح وطريق النجاح والفلاح فشق غبار الكائنات وجدد هِمم الناس بسلوك منهاج الهداية والخيرات، فكان رحمة محضة للعالمين ونعمة عامة لصنوف المخلوقين، ساوى بشرعه العادل بين رعاة البهم وكبار الأنام وأعطى لكل فرد ما يستحقه من المقام، وقام بالقصاص لحياة النوع العام وأنام الأمم بمهد العدل فلا يمكن للشريف أن يسيء المشروف بظلم أو عدوان ولا يخاف الضعيف بأس القوي في آن أو زمان، فانتظمت تلك العقائد الطاهرة في القلوب وعقدت عليها حبات الضمائر وانطوت على مناشيرها صناديق السرائر وتحقق الكل بالرجوع إلى الله ونقش في الألباب معنى «رأس الحكمة مخافة الله» وقام بهذا الأمر المحتم الآل والأصحاب وأيده بالعزائم الخلفاء الأنجاب، فلم يبق في العوالم من كبير ولا صغير ذي عقل كريم وقلب سليم إلا واعترف بأحقية هذه الشريعة وأذعن لعدالتها المنيعة حتى كادت ترعى الذئاب والأغنام في ساحة واحدة، وأكمل الله بهذا الحبيب العظيم للنوع العام الأمن والخير والفائدة، وهذه حقيقته الزاهرة وطريقته الطاهرة فكلها أمن وإيمان وإطلاق ضمن دائرة الحق واطمئنان فلا غلظة فيها إلا على من يضر بحقوق النوع من الباغين ولا عدوان إلا على الظالمين، فالمساواة في الحقوق والحدود شاملة للكبير في هذا الشرع المحمدي وللصغير وللعظيم والحقير ولكل كما اقتضاه نسج الكيان الوجودي مقام معلوم وحكم مرسوم لا يبرز بهذا الشرع القدم موضع

الرأس ولا الكعب محل العين ولا الذراع مكان اللسان، ولا يعدو جزء على الآخر فيما يخل بحقه النوع المحفوظ المصان بل له عليه حق صلة الرحم الكياني وأنموذجه الوجود الفرد الإنساني، فإنه إن تداعى منه عضو بأذى يتداعى له الجسد كله، وكلما قربت طبقات الاتصال اشتد هذا التداعي، أي إذا كان المرء من النوع الإنساني ثم من قبيلة الرجل وعشيرته الأقربين ثم من فصيلته الذاتية ثم كان على اعتقاده في الوجدانيات فيتداعى الوجود له أكثر، ومع ذلك فإذا كان إنسانًا كاملًا وعارفًا بحق الإنسانية عاقلًا وبعدت وصلة المرء عنه في الوجدانيات ثم في الفصيلة ثم في القبيلة ولم يبق إلا جامعة الإنسانية فعليه أن يعرف لذلك الإنسان حق رحمه الإنساني ولا يقطع حبل النظم الجامع الكياني، ولما كان النبي الأمين أرواحنا لجنابه الفداء هو مظهر هذا السر الكمين وكنز هذا الحق المبين قال له ربه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧] وتدبر أيها اللبيب فإن في إيقاف كل عند حده نفع عام للنوع، هذا إذا كان من دون ظلم ولا غدر ولا أذية لفرد من أفراد النوع المتجاوزين عن حدودهم، فإن لم يكن الإيقاف لهم ممكنًا بالنصيحة كان ذلك بالقوة الفعالة إلى غاية حدها بكل وجه تحصيل الفائدة المطلوبة، وفي الكل يجب التوقي من زفرة النفس وإرادة الأذى للنوع، وتفكر قوله تعالى لنبيه الأعظم: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: الآية ٦] وقد كان الفاروق الجليل سيدنا عمر الخليفة الثاني رضي الله عنه علم العدل وسيد أهله من عهده إلى يوم الدين، ومع ذلك فإنه رأى جارية سوداء تشبهت بالحرائر فمنعها وأمرها أن تلبس زيها، وقد كان من الشفقة على أفراد النوع ومن كمال الرأفة على جانب عظيم فيه حيرة للألباب ونهضة لهمم طلاب الآداب من الأنجاب. وقد قال: «لو سقط جدي من جسر في العراق لخفت أن يسألني الله عنه» وبذلك ساس الأمم وملك العرب والعجم وقطع ووصل وأرهب الدول وكل أفعاله لله لم يكن فيها لذاته الكريمة من حظ ولا غاية لا في البداية ولا في النهاية، سلك سبيل النبي الأعظم القدم على القدم فأعز الله به الدين وأعلا مجد المسلمين ومن كمال إنصافه أن جارية زنت وظهر حملها فأمر برجمها فرآها الإمام الأعظم الكرار علي المرتضى رضي الله عنه تقاد للرجم فأعادها وقال لعمر رضي الله عنه: «هذه زنت فما ذنب جنينها»(١) فتنبه وبكى وقال: «لولا عليّ لهلك عمر»(١) وقال

(١) لم أجد من خرّجه.

في حادثة أخرى: «اللّهم إني أعوذ بك من فادحة ليس لها أبو الحسن»(١) يعني عليًا كرم الله وجهه، وكلهم على هدى غلبوا أنفسهم فاضمحلت وعلت في الله وله ذلت. وهنا سر لطيف وهو أن عواقب الناس كلهم لما كانت مجهولة من حيث حالها مع الله وجب على أهل الحق حسن الظن بعواقب المخلوقين، فإن الذي تصرف بالبداية له قدرة التصرف كما يشاء في النهاية ولذلك ترى أن أهل الحق أخوف الناس من الله تعالى لعلمهم أنه القادر المطلق يغير الحال في الحال ويفعل برمشة العين ما لا يخطر ببال. وانظر أيها اللبيب ترَ أن في الخواطر من أسرار الاتصال معنى يدق فهمه، وذلك أن الخاطر ينبيء المرء بشيء فلا يبعد حتى يراه عيانًا وهذا كثيرًا ما يقع انعكاسًا بشأن الآدميين، فإن المرء يحدثه خاطره بقدوم إنسان معلوم عليه ويرسم الخيال الشكل المفرغ في لوحة من الخاطر للقوة المذكورة فلا تمر برهة قليلة إلا ويجيء ذلك الإنسان الذي حدث المرء الخاطر به على الشكل الذي ألقاه الخاطر في لوح الخيال له فتقيم المذكرة له الأسلوب الذي مر له قبل بريهة كما هو. وذلك أن سرداب الخاطر يفتح فيتصل به معنى الانعكاس المتجه إليه بسوق العزم الآخر، فإذا اتصل به ذلك المنعكس المتجه إليه انجلت مرآة الخاطر فانطبع فيها ذلك المتصل بها انطباعًا صحيحًا، فرجع من سرداب سيره إلى كن كونيته فرفع ما انطبع فيه إلى لطيفة الخيال فرست حكمها فيه وألقتها إلى لطيفة التذكر، ومنها إلى لطيفة الحافظة، فمتى برز شكل النوع المنطبع في مرآة الخاطر بروزًا عيانيًا ألقت الحافظة وديعة ما حفظت إلى لطيفة التذكر فألقت حكمها إلى اللسان فتكلم وأفصح فترجم. وهذا دليل على اتصال الأشياء ببعضها اتصالًا لطيفًا بوسائط لطيفة، وذلك لأنها من حيث المجموع قائمة بسر حرفي كن لا سواهما، وقد تقدم ما فيه بلاغ وأن الخلاف ودوام كلمة الاختلاف وهذا الانشقاق الذي عمت ظلمته الآفاق فكله ناشيء عن سرين الأول حق لحق والثاني باطل لباطل.

وهنا نكتة لطيفة: وهي أن الحادث مقابل بضد والمخلوق مشاكل بند. وأن المنزه عن الضد والند إنما (هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد). فلما كان الأمر كذلك برز كل حق وبرز أمامه باطل وبرز النهار وبرز أمامه الليل وبرز الصيف وبرز أمامه الشتاء وبرز الدفاء وبرز أمامه البرد وبرز الظل

---

(١) لم أجد من خرّجه.

وبرز أمامه الحرور وبرز كل معنى لطيف فبرز أمامه ضده ووقف تجاهه نده. وقد ذكرنا أن سبب الاختلاف حق لحق وباطل لباطل، فالحق الذي هو للحق قيام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الأمم لإرشادهم وإصلاح فسادهم، وأخذهم إلى الطريق الذي يقوم بصالح معاشهم ومعادهم فقيامهم حق لحق فخالفهم يصائب الكفر والطغيان وفئام الظلم والعدوان، فمنهم من قاتلهم وقتل، ومنهم من قتل ومنهم من دعا الله بشأنهم وأعرض عنهم، فالأنبياء الذين جاهدوا في الله حق جهاده كان جهادهم لإعلاء كلمة الله لا لغرض من أغراض الأكوان وأن تلك الكلمة عبارة عن طاعة الله فيما أمر به من العبادة وصلاح الحال وبذل النفع للخلق على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم ومشاربهم، ومن شذ عن أمر الله فقد شذ إلى النار والعياذ بالله. وأما السبب الثاني الذي هو باطل لباطل فهو شره أبناء الدنيا على ابتلاع حطامها واستعباد الخلق تبعًا لهوى النفوس ولتفخم جنس على جنس أو نفس على نفس، فيقابل ذلك الباطل بمثله فينكشف غبار الباطلين عن انشقاق دون وفاق، وربما هاجم باطل حقًّا استضعفه فأراد محقه ومحوه فهو وإن انطمس حسب ما يظهر فترى ذلك الحق أضمر في قلوب العامة والخاصة، فهو منطمس مكنون ولا يفلح العادون. وفي كل هذه المعامع يجب على كل فرد من أفراد المخلوقين أن يعمل العقل في أعماله وأقواله، ثم ينزه رأي العقل عن غلبة الحرص والميل للغرض، وأن يجانب شره النفس وتفوقها ويخمد ثورتها حالة التدبر واستنتاج الرأي، فإن رأى أنه على ظلم تجرد منه وأقلع عنه وعامل أخاه الإنسان بالإنصاف والعدل والرفق، وإن كان مظلومًا صبر إن أمكن فعفا عمن ظلمه وأحسن إلى من أساء إليه وعمل بأخلاق النبيين والمرسلين صلوات الله تعالى عليهم أجمعين. وإن لم يتمكن من نفسه بهذا المقدار فعليه أن يعمل بسر قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٤] واتقوا الله أي وخافوا الله أن تشطح ثورة نفوسكم بالتعدي إلى درجة ما هي فوق التعدي الذي طرأ عليكم ممن اعتدى عليكم، فإن تعديتم الدرجة التي تعدى عليكم بها المتعدي فحينئذٍ كنتم من الظالمين. والله تعالى قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٠] ومن أقبح ما انصرف إليه الكثير من النوع الإنساني وذلك إنما هو إثارة الحروب بين النوع الآدمي، فترى صفين يشتملان على عسكرين لجيين كبحرين ملتطمين مركبين من مئات من الألوف فيهم الفظّ الغليظ، والرشيق الطَّبع الهيّن الليّن، والجاهل والعالِم بالنسبة إلى الجاهل، ومحب الشر والشره ومحب الخير والقناعة والأصيل والدني والمحبوب لأمه وأبيه والمنفور من فصيلته وذويه وغير ذلك، كلهم على اختلاف

مذاهبهم ومشاربهم أوقفهم في صف القتال للقتل والنكال غرض رجلين أو شره جماعة لا يزيدون عن عشرين لعبت أفكارهم بدماء أولئك الألوف وتصرفت أغراضهم بهم، فجعلتهم هدفًا لفراق الأهل والخلان ولسهام المنون والحدثان يصادمون المدافع ويدافعون المعامع يترقبون الصوت ويباركون الموت، ولم يكن لهم تحت هذه المخاطرات العظيمة والمصائب الجسيمة من غاية تعود عليهم ولا من منفعة ترجع إليهم، بل الغاية المندمجة في ذلك العمل العجيب، والفكر الذي صاغه رأي غير مصيب، إنما هي شره رجل أو طمع فئة قليلة انصرف لهضم حقوق أمة ولسلب أموالهم وشتات أحوالهم واستعبادهم ونزع الحرية المطلقة ضمن حيطة الأمر الإلـٰهي المخولة لهم من خالقهم، كما نطقت بذلك الكتب السماوية وعرفتنا ذلك الأخبار النبوية وشهدت به المادة الآدمية وقالت بمضمونه عقلاء الهيئة العامة الإنسانية، فحض ذلك الرجل الشره أو الفئة القليلة الطامعة تلك الألوف المؤلفة بوهم النخوة وسفسطة الدسيسة إلى التهجم على ألوف من إخوانهم في النوع الإنساني أمثالهم في الوضع التركيبي، أشباههم في النسق الآدمي، فتصادم الجيشان والتقى الجمعان وشب غضبًا الفريقان بثورة غلظ ولا ثورة الحيوان المفترس، فبغى هذا على هذا وقتل هذا هذا فذلك أمه باكية والآخر أخته أو زوجته ناعية والآخر داره خالية وذاك جثته في أفواه الطيور وذاك يموت ممزق الستر يحسد أصحاب القبور، ومخترع الغرض على فراشه بين نسائه وخدمه وجماعته وحشمه يأكل أنواع الألوان ويتمتع بشهواته ريض الخاطر والمكان وإخوانه في نوعه وأشباهه في شكله ووضعه، فراشهم التراب وطعامهم ممزوج بغسلين العذاب يدخلون على الموت من كل باب، كل ذلك لغرض أصله مرض. فلو عرف المخترعون لهذه الدسائس النفسية والأشراك الإبليسية حكم البشرية وما يجب بشأنها من الأعمال الحبية والمودة الرحمية لما قاموا لاستعباد الناس بهذه المخاطرات ولما شغلوا أفكارهم بهذه الآراء التي لا تنتج للنوع الآدمي إلا المضرات، وهنالك تنصرف هممهم لإدخال السرور على النوع العام بكل ما تهدأ له خواطر البشر ويحفظ عصائبها من الظلم والبغي والضرر، ولا بدع فمن دافع المتهجم عليه لا يلام ولا يرشقه سهم من سهام هذا الكلام بل هو معذور وذنبه في هذا الباب مغفور ويقال:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب ... فما حيلة المضطر إلا ركوبها

بل يجب عقلًا وشرعًا رد الصائل وإقصار يد المتطاول، وإذا رد المهجوم عليه الهاجم فصدمته تلك الردة فقتل، لم يكن من ذلك على من ذب عن نفسه أو دينه

ووطنه لا عند الله ولا عند الناس من جناح، والهاجم الصائل يسأل حالة كونه مقتولًا ويعذب عند الله عذابًا أليمًا ويلام لدى الناس لومًا طويلًا، وهنا سر لطيف ومعنى شريف وذلك أن الصائل لما هم بقطع الرحم الإنساني وتجاوز الحد الصنعي الكافل إطلاق النوع الآدمي، صار هدرًا دمه عند الشرع وشرًا حكمه عند الطبع وانطلقت فيه ألسن أهل العقول السليمة والطباع الكريمة فترجمته بسوء الخلال وقبيح الفعال وهو ذليل النعت قبيح الصفة حقير الخلة مهما طال أمره واستطال غدره، وكل أمة لا تقف عند حد البشرية وتحفظ نظام الآدمية وتعدو على أمة أخرى فتسلبها ما خولها الله من نعمة الإطلاق وتتجاوز على الوجدانيات والأخلاق، فهي وحشية وإن انتهت في مراتب الصناعة المدنية إذ المدنية أقسامها أربعة، مدنية شرعية ومدنية اصطلاحية ومدنية صناعية ومدنية نظرية، فالمدنية الشرعية إلٰهية مأخوذة بواسطة الأنبياء والملائكة عن الله تعالى شرعها لعباده، ساوى بها في الحقوق والحدود بين الناس كبارهم وصغارهم عبيدهم وساداتهم، فاطمأنت بها قلوب المؤمنين وطابت بها ألباب أولي العقل واليقين. والمدنية الاصطلاحية هي ما اصطلح عليها قوم من العادات والمعاملات كاصطلاح القبائل والعشائر في عرفهم، وعلى هذه المدنية الاصطلاحية أجمع أمم من متوحشي العرب والعجم. والمدنية الصناعية هي الترقي في الصناعات والانهماك في التجارات وأعمال الأشياء النفيسة والمخترعات الفنية العظيمة. والمدنية النظرية هي المدنية القانونية التي سيرت الأمة تحت قانون معروف نظمه أهل العقول من كبراء الأمة وعظمائها لسياسة الأمة وحفظ مصالحها الدنيوية، وإذا أمعن العاقل النظر رأى أن المدنية الشرعية أم صنوف المدنية فإنها جمعت بين حفظ المصطلحات الطبية المرضية التي لا تصادم الأحكام ولا تضر بحقوق الأنام وأمرت بالتجارة والصناعة وكفلت مصالح الأمة تحت قاعدة النظر، وما بقي إلا صحيح التمسك بها والانقياد للعمل بأحكامها والموافقة في كل الشؤون لنظامها، وهناك ترى أن الغني والفقير والمأمور والأمير على بساط واحد يرتع الكل في بحبوحة الأمن والاطمئنان مع تمام الصيانة من زفرات الظلم والعدوان وتسلط أهل البغي والطغيان وكمال الوقاية لحفظ مصالح نوع الإنسان، وهذا أشرف شؤون المدنية وفنونها وأجل ما يقصد منها وهو بغية كل غافل يعرف للنوع الآدمي حقه ويوفي للجنس الإنساني مستحقه وكم خدع باغ قومًا فساقهم إلى المهالك على غير علم منهم وتسلط بهم على أمم من جنسهم فأوقعهم في وهدة الذل والضنك وأغفلهم في أول الأمر بالملق ومنّاهم ووعدهم ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: الآية ١٢٠]. ثم لما مكنه الزمان وبلغ غاية ما ينبغي أذل عزيزهم وسلب غنيهم ووضع رفيعهم وقدم

عليهم من دونهم وكسر عصبتهم بها، وأهم من ذلك تسلط الأمم بغير طريق شرعي أو عقلي على الأمم الأخرى، فترى أمة صغيرة الجرم قليلة العدد صفا لها عيشها وطاب وقتها تأكل اللقمة وتشكر لله النعمة، رأتها أمة أخرى كثيرة عدد وعدد فعطف نظرها للأمة القليلة رجل أو جماعة قليلة شبت بهم نار الأغراض وساقتهم ثورة الشره والطمع أو قامت بهم هزة الحرص والحسد، وأقام لها البراهين المشوبة بالزور والبهتان ومهد لها شواهدًا نتجها محض الظلم والعدوان، فقامت تلك الأمة الكثيرة بخيلها ورجلها فكدرت عيش تلك الأمة وشوشت وقتها وتغلبت عليها، فاستعبدتها بعد حريتها وقيدتها بعد إطلاقها وجعلتها فقيرة المال مهضومة تحت الأحمال مبهوضة العزم والعزيمة، وكأنها لتلك الأمة نوع من الغنيمة، فهل لو عرف كل من الأمة حق البشرية وحكم الآدمية وتخلقوا بأخلاق شرعية توقفهم عند حدود الهبة تحكم وجوبها الأحكام العقلية هل كانت أفراد تلك الأمة الكثيرة تنعطف للاجتماع على كلمة رجل أو جماعة ساقهم الشره وقادهم الحرص إلى إذلال أمة قليلة من النوع الآدمي كانت في رغد العيش وظلال الأمن، فانقلب رغد عيشها ضنكًا وأمنها خوفًا وعزيزها ذليلًا ومكرمها حقيرًا؟ لا بل لو أدركت الأمة شرف ذلك الحكم وحكمة ذلك الحق لردت كلام المسؤول لها على وجهه ونبهته قائلة: هل لو كنت أنت وأهلك في مزرعة صغيرة مقيمًا وهجم عليك وعلى أهلك أهل مزرعة كبيرة تجاهك فسلبوك أمنك وانتهبوا حقوقك وشتتوا شملك وشمل الكثير من أصدقائك وعيالك فهل تكون راضيًا طيب الخاطر أم لا؟ فلا بد وأن يمنعه عقله عن المكابرة ويقول: لا أريد ذلك بل أريد أن أكون مشمولًا بالنظر الحسن العام وأترقب النفع من كل الأنام فحينئذٍ يقال له: وعلى هذا فكن أمينًا فإن الحق معك. ومن كان الحق معه لم يخذل والمتهجم وإن كان اليوم يرى نفسه قويًا فهو ضعيف الحقيقة مذموم الطريقة وفي كل آن ساقط المقام في عين البشر ولو كان ممن ينطح بالرفعة القمر، وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: الآية ٢٢٧]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: الآية ٢١] وفي الخبر «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» وكذلك الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه. فهل لك أيها الآدمي أن تنقي قلبك من المطامع الدنيوية وأن تطهر نفسك من الأغراض الدنية وتنتهض لحفظ نظام الآدمية ووقاية حقوق الإنسانية على ما صرحت به الشرائع السماوية وأطبق عليه عقلاء البرية، وحينئذٍ تكون أكملت مجد آدميتك وأعليت منار إنسانيتك ونزّهت ذاتك عن مجانسة البهم المضرّة، وجلبت بشريف أخلاقك لبني نوعك الأمن والمسرة فتبقى ممدوح الملأين

مظهر الثناء الحسن في الحضرتين حضرة الحياة وحضرة الممات مقبول الوجه عند الله وعند الخلق رغم أولي المواربات أهل الأغراض السافلات، وهذا الأمر المرضي والحكم المرعي هو صلة الرحم الآدمي كما تقرر، فليتدبر ولا ينظر للقتال الذي وقع بين الصحابة الكرام فإنه نشأ عن اجتهادات من الفريقين كل يظن أن الحق الذي يوافق الشرع وينفع النوع هو معه، فأنتج ذلك الاختلاف قتالًا على الحق لأجل الحق وتعين عند الأمة الحق وأهله غير أنه لما كان الفريق الثاني يظن أنه على الحق وأن قتاله لأجل الحق عد فطاحلة هذا الشأن المجتهد منهم وهو مصيب ممن يحرز ثوابين، والمخطىء ممن يحرز ثوابًا لأنه خطأه للحق لا للغرض ومن كان خطؤه للغرض فإنه مسؤول بين يدي الله ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ٨٨، ٨٩] وإنما الأعمال بالنيات والله الذي يعلم ما في الطويات، ومن المعلوم أن الغلبة إن أنتجت إطلاقًا شرعيًا ونفعًا عقليًا فوق الحال الذي كان قبل الغلبة وصحح أمر الغلبة منهاجًا وقوم اعوجاجًا، فتلك تعتبر بحكمها ولها شروط وتفاصيل يلزم إيضاح بعضها فإنه لا بد منه ولا غنى عنه، الشرط الأول: أن الغلبة التي تعتبر بحكمها ولا تبقى ضغينة في النفوس هي التي تكون من الأعلى أدبًا وخلقًا والأعظم وقعًا في النفوس على من هو دونه ويعقبها الغالب سياسة كريمة وأعمالًا عالية وأطوارًا شريفة وشفقة على أفراد النوع وافرة، وتهذيبًا للهيئة التي تدخل تحت الحوزة صالحًا دينيًا وعقليًا، والثاني: أن يكون مستندًا إلى نص صريح شرعي مصون من التلفيق البعيد عن الحق الملحق ببردة الغرض الفاسد، والثالث: أن يقصد الغالب بغلبته إحياء سنة من سنن النبيين عليهم وعلى حكيمهم الأمين صلوات رب العالمين، وإماتة بدعة من بدع الظالمين والمنحرفين عن الحق والدين.

وفي كل هذه الشروط فيجب أن تكون تلك القوى الغالبة محدودة الإطلاق لا تتعدى بوقت من الأوقات ولا في فرصة من الفرص إلى هضم حق ولو أنه جزئي من حقوق الإمامة الكبرى والخلافة العظمى، إن كان الغالب ممن يؤمن بالله تعالى ورسوله ﷺ، فإن حق خليفة الوقت فوق كل حق ومن لم يعرف إمام زمانه فمات فميتته ميتة جاهلية، والجاهلية ما كان عليه العرب قبل الإسلام من الأديان الباطلة والعبادة الجهلية، ويجب على كل مسلم موحد بعد أو قرب عظم أو حقر صحة الارتباط بإمامة المسلمين قيامًا بحق الرحم الإيماني والرحم الإنساني، وإن الذين نازعوا الإمامة حقوقها ممن سلف والذي ينازعها ممن خلف مبتدع فاسق، وإن جحد حقوقها والعياذ بالله فإنه مخذول مردود من قبل الشرع والشارع العظيم عليه

أفضل التحية والتسليم، وفي هذا بلاغ لقوم يوقنون. ومن هذا التمهيد يعلم أن القوة الغالبة الإسلامية على الطريقة المرضية الشرعية إن أخذت في قطر من الأقطار قومًا تحت سلطتها فيجب أن يكون صاحب تلك القوة قائمًا بأمر الله، حاكمًا بما يرضي الله نفعًا عامًّا لخلق الله لا يفرق في الحدود والحقوق بين أجناس القوم المسلم منهم وغيره، ويجب أن يرتع كل فرد من أفراد أولئك القوم في بحبوحة الأمن وراحة القلب ورياضة الخاطر وطمأنينة النفس، وفوق كل هذا يجب على ذلك الغالب الخضوع تحت لواء الخلافة ليكون تحت نظام العهد الديني والنظام الإسلامي، فلا يشذ عن السواد الأعظم في أي قطر كان من الأرض، كل ذلك لصحة صلة الرحم الذي تقدم ذكره أعني الرحم الإيماني ثم الرحم الإنساني، وليكون الإمام قادرًا على إعلاء كلمة الحق حافظًا لنظام الرحم العام الآدمي في الحق والغلبة العادلة التي تنتج خيرًا في النوع وتدفع شقاقًا وتجلب وفاقًا وتصلح أخلاقًا وتمحق الفساد وتثبت السداد أكثر مما كانت عليه الهيئة المجتمعة من النوع قبل الغلبة لا تعد غلبة بل هي جذب أمة من طريق معوّج إلى طريق مقوم، ولو كان ذلك في ظاهر الأمر حاصلًا بصرعة غالبة، ومثال كمن رأى طفلًا له يتخطى إلى البئر فخاف عليه السقوط فيه فاجتذبه بقوة وضربه فأبكاه على فعله لكيلا يألف العودة لمثل ذلك العمل مرة أخرى بعد، وإلا فإذا أنتجت الغلبة فسادًا في الأخلاق وجراءة على دين الخالق وانخراطًا بالتجرد من الحياء في بحبوحة الإطلاق مع نزع الآداب العقلية وطرح القيود الدينية، فتلك غلبة شر حكمها للنوع مضر بل هي من أعظم فصول قطع الرحم الإنساني، ومثل ذلك الغالب هو عبد شهوته وغرضه ورفيق أطماعه وشرهه وأسير قيد شره وعدو للنوع الآدمي ومنفك الرابطة منه داخل في عداد البهم المضرة لا يتبع رأيه ولا يجب الانقياد له بل يجب التحرز منه والتباعد عنه، وقد انضمت الكلمة الإسلامية إما فعلًا وإما معنى للإمامة الكبرى في جميع أنحاء الأرض، فإذا غلب غالب مسلم في أقصى الصين على فئة من الناس فيلزم أن يكون زمامه المعنوي متصلًا بالإمامة ليكون حكمه شرعيًا ومتى كان الحكم شرعيًا كان عقليًا إذ الشرع روح العقل السليم ونور الله الهادي إلى صراط مستقيم. والحاكمية اشتقاقها من الحكمة، والحكمة هي الطريقة العادلة التي تكون طلبًا لأسقام النوع الآدمي على اختلاف المشارب والمذاهب وفي الكتاب العزيز: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٩]. ولا يفقد الخير إلا من يفقد الحكمة. ولما كانت كالطب قيل لصاحبها حكيم، وإن الناس على الغالب في مناهجهم كالمرضى، ولا

يعتدل أمرهم إلا بحكيم يداوي أمراضهم بالحكمة، ولا حكمة أعم نفعًا وأقوم منهاجًا من الشريعة المؤيدة ففيها صالح المعاش والمعاد ولا عبرة بجاهل لم يفقه أحكام الشرع وحكمة تلك الأحكام النيرة، ولقصر نظره يعيب الشرع جهلًا منه وضلالًا، فإن مثال ذلك المعيب كمن يذم الغيث إذ جعل له في طريقه الطين ويجهل نفعه العام للعالمين.

وكم من عائب قولًا صحيحًا وآفته من الفهم السقيم

وليعلم أن كل قاعدة من قواعد الشرع تلزم بمحبة النوع الآدمي وإرادة الخير لكل فرد من أفراده، وكل ما ورد في الكتاب والسنة من الوعيد والذم إنما هو منحصر فيمن شذ عن تلك القاعدة فحاد من واد الله وواد من حاد الله وقام بالأذية لخلق الله يعلم ذلك العلماء ويجهله الجهلاء ويضرب صفحًا عنه من أولي العلم عصابة الغرض وإن الغرض لغليظ المرض. فإن ترى عالمًا من غير المسلمين حكيمًا بصيرًا عارفًا بأسرار الشرائع السماوية واقفًا عند حد الآدمية تجده معظمًا للشريعة الإسلامية قائلًا بعلو أحكامها وصحة نظامها وجلل مقاصدها وشرف مصادرها ومواردها، ومتى كان كذلك فهو وإن لم يقه بالإسلام فقد اتصف واعترف ولم يجنح من التعصب إلى طرف. وحيث إن شرائع من قبلنا شريعة لنا، فنحن إذا رأينا حكمًا في شريعة من شرائع النبيين والمرسلين صحيحًا لم يحرف ويبدل نعتقد صحته ونقول به، ونؤمن بكل ما أنزل على جميع ساداتنا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ونستحسن فعله من فاعله من أي مذهب كان. فإذا صدرت الأمانة من مسيحي نجل قدر الأمانة ونعرف لذلك الأمين قدره أيضًا، على أن الأمانة من الشريعة العيسوية وهي من أحكام شريعتنا أيضًا. وإذا رأينا الموسوي يحسن الذبح لذبيحته استحسنا ذلك منه وأكلنا من ذبيحته، على أن ذلك من الشريعة الموسوية وهو أيضًا من أحكام شريعتنا، وإذا رأينا الإنصاف والعدل والشفقة على خلق الله والنفع لهم من ذي كتاب عمل ذلك اتباعًا لكتابه شكرنا ذلك له وصدقنا الحكم لأنه من شريعتنا أيضًا، ولكون الأحكام الشرعية المحمدية قائمة بكل شأن من شؤونها ونص من نصوصها برعاية مقادير النوع الآدمي ومنافعه، ولم تكن بعد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إلا كافلة لجمع أشتات الآدميين، فكل ما وافق هذا النظام الصحيح ودخل في هذا الرحب الفسيح فهو من الشرع وإن زعم متقيه أنه من الطبع، فإن الحق سبحانه لم يفرط في الكتاب العزيز من شيء، أتى بالجملات التي جمعت المفصلات وأحكمت آيات الحكم وضمنت صلاح

أحوال الأمم من العرب والعجم، فلا يثقل حكم من أحكامها على طبع سليم تنزه عن عبث الشهوات النفسانية ولوث الأغراض الدنية الدنيوية مما لا ينطبق على العدالة الإلـٰهية والحرية الأصلية الممنوحة من باريء البرية للعصابة الإنسانية وحكم النوع الأصلي لما كان حكمًا واحدًا في الخلق كانت الأحكام العادلة الإلـٰهية التي له والتي عليه واحدة، ولم تنسق الأحكام إلا لاختلاف الخلق في الخلق فإن الأخلاق فيها الخلق الصالح وفيها الخلق الفاسد، والخلق الذي فسد لا بد وأن يثمر فعلًا فاسدًا، وذلك الفعل لا بد وأن يكون متعديًا أو لازمًا وأن يكون ظاهرًا أو خفيًا. فإن كان متعديًا لزم كف يد فاعله عن أذية النوع بمجازاته التي تقصر بعد وقوعها يده عن فعل ذلك السوء المضر بأبناء النوع وإن كان لازمًا ينظر فيه، فإن كان خفيًا ولم تبرز لنا صفحة الرجل به قرعناه بألفاظ تتضمن الإشارة إلى فعله ولا نتجسس حاله وتتركه إلى الله تعالى وإن كان ظاهرًا أخذناه به بما يأخذه به الشرع لا زيادة، وذلك لمخالفته أمر الله تعالى ولعمله عملًا يمكن أن يسري منه إلى طبع رجل آخر، وحينئذٍ يكون سببًا لإيقاع العيب المضر في طبع أخيه الآدمي الآخر وبهذا قد أضره فاحسم تلك المضرة وقطع مادة سريانها حق عليه الجزاء، فتدبر سر الحكمة الشرعية واعمل بها لتدخل في عداد أهل الحق إن شاء الله تعالى. وإنما السريان من الطباع إلى الطباع فهو حاصل لا محالة وهو من براهين الاتصال العام من النوع بالنوع، ولذلك أمرنا الشرع بمجالسة الحكماء ومخالطة العلماء والتباعد عن الأشرّاء والسفهاء، ففي الخبر «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» وفي كلام سيدنا علي أمير المؤمنين كرم الله وجهه يعرف المرء بقرينه، ومن شعره رضوان الله وتحياته عليه:

فلا تصحب أخا الجهل ... وإيّاك وإيّاه
فكم من جاهل أردى ... حكيمًا حين آخاه
يقاس المرء بالمرء ... إذا ما هو ماشاه
وللشيء على الشيء ... مقاييس وأشباه

وما هذا إلا التنبيه البرهاني على حكم السريان من الطباع إلى الطباع، وذلك من الاتصال المندمج في النوع اندماجًا لطيفًا يعرفه العارفون، وبنسبة قرب الرجل من الرجل من طريق المعنى أو من طريق المادة يفهم تأثير ذلك الاتصال. ولذلك أطبق الصحابة الكرام الأعلام رضي الله تعالى عنهم على أنه لا يشاك أحد من المؤمنين بشوكة إلا ويجد صاحب الرسالة سيدنا الحبيب الأعظم ﷺ ألمها في وجوده الشريف

أي حكم ارتباط المؤمن به عليه أفضل الصلاة والسلام وصحة اتصال روحه من مقامها المعنوي بجنابه يعكس للوجود الكريم معنى ذلك الألم الذي يحصل للرجل من الشوكة فيدرك معناه كما هو، وفي خطاب سيدنا الإمام الرفاعي رضي الله عنه لأصحابه: «ما أحس أحدكم بألم إلا وأحسست فيه». وقال أيضًا: «ما هبت ريح حارة في قسطنطينية العلياء إلا وجدت لها أثرًا بين جنبي». ورواها بعضهم بعبارة أخرى وهذا معناها، فهذا كله يفيد سر اتصالات العوالم الكونية يميز مراتب هذه الشؤون القرب والبعد في الطرق المعلومة، وكلما علا المرء في مرتبة العلم ورتبة الحكمة انكشف له سر هذه الاتصالات كما هو ولاختلاف الأخلاق والعقول قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هُود: الآية ١١٨] ولو حرف امتناع فإنه كذا شاء ليعظم أمر حكمته العاقلون، وليهيم به الموفقون (وأمره بين الكاف والنون). وإن من الرقائق التي تدل على الاتصالات اللطيفة إلى النوع من النوع رقيقة الصوت، فقد نرى أن حاديًا يحدو ومنشدًا يشدو فتذرف عيون وتئن أنفس وتحن ألباب وتخفق قلوب وتنهز أعضاء، وكثرة ذلك وقلته يعرف بصحة المناسبة مع السامع، فإن سقطت غنة ذلك القائل على سمع السامع واندمجت في السر هزت كوامنه وضلت في كونيته بحكم تأثيرها مقتضاها الحاصل المتمكن من طريق الاتصال، وقد نرى متكلمًا يتكلم فيأخذ السمع كلامه فتعيه أُذنه وتلقيه إلى القلب فيندمج في السر فيكون له ذلك الشأن الفعال في عالم كونية السامع، وربما أخذه ذلك الكلام منه وجرده عنه وجعله مرتبطًا به مدة عمره، وقد كان بعض العارفين قبل الانخراط بسلك السالكين ماشيًا فرأى جماعة من السكارى اجتمعوا في بستان وذلك في العشر الثاني من شعبان فقال مغنيهم:

إذا ما العشر من شعبان ولت فبادر شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار فإن الوقت ضاق على الصغار

فهز ذلك العارف المعني فبكى ومزق أطواقه وطرح دنياه واشتغل على يد العارفين، بخدمة مولاه وصار من كمل أحباب الله. وكم من قاس ألانته كلمة واجتذبته إلى الخلة من صعب الخلة، ورب جملة من كلام أذهبت علة وأحيت ملة وما ذلك إلا من تمكن حكم الاتصال النوعي وارتباط الجنس الآدمي بل العالم الكوني، فإذا علم ذلك العالم أعظم هذا الشأن وتصدر لنفع ذرات الأكوان بما يصله الإمكان وهذا أمر يترتب على كل الأفراد لا يختص بفرد دون آخر، وإن من يقعد عن هذا الحق يقعد عن رتبة الآدمية بنسبة تقاعده عن ذلك الحق فليفهم، ومثل ذلك في

محاضرات العيون وملاحظاتها وفي الوجوه وصفحاتها وفي الكلمات المكتوبة وعن الأعلام المنصوبة ولكل بارز أو مسموع أو مشهود حكم من هذا الاتصال يفعل في الطباع، فتارة يفرح وتارة يحزن وتارة يخيف وتارة يؤمن وتارة يبكي وأخرى يضحك ومرة يسوق إلى البخل والخيانة وأخرى يسوق إلى السخاء والأمانة إلى غير ذلك من رموز رقيقة وشؤون دقيقة ونكات صالحة وإشارات واضحة، كلها يدفع الأغلاط ويثبت رقائق هذا الارتباط. فعلى هذا أفضل ما يدخر المخلوق للقدوم على الله بعد وثيق الإيمان بالله إنما هو تمام الشفقة على خلق الله وصحيح النفع لخلق الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. وإن من أغلظ الناس وأشدهم فظاظة، القوم الذين تقف هممهم مع جنسيتهم ولغتهم القصيرة وتنفك رابطة نظرهم عن جنسيتهم الآدمية الطويلة العنان الملزمة لكل فرد بحفظ حقوق نوع الإنسان، فإذا رأينا العربي وقف مع العربية لم يحد عنها وانبعث بواهمة لتحقير الأجناس واللغات السائرة، فإذًا نحكم عليه بالجفا والغلظة، وكذلك التركي والفارسي والإفرنجي والصيني وكل آدمي شرقي أو غربي، وإذا تمادى على أذية الناس وهضم حقوقهم وإحقار منازلهم فنعلم أنه انفك من الربط الآدمي والتحق بجاذبة طبعه بالنوع الحيواني البهيمي، وما له في نظم الإنسانية من نصيب ولا بأس أن يحب أهله أولًا ثم جنسه وقومه وأهل بلاده أكثر من سائر الناس وأن يحب بلاده أكثر من جميع البلاد، إلا أن ذلك مشروط بحفظ حق الرحم الإنساني والتزام النفع للنوع الآدمي. وإن سبق لقومه مع قوم أو لقوم مع قومه قتال وجدال ونفرة بقيت في صدور الرجال، فعليه أن يدعو الفريقين بلسان الآدمية ويطالبهم بحقوق الإنسانية ويصرف ما ألمّ في الصدور من الألم ويخدم الجامعة البشرية بغسل خواطر العقلاء من غبار الضغينة وبتنقية خواطر الجهلاء من تلك الأغلاط الكمينة. وإذا جره العقل والطبع واقتاده إلى المقابلة للخصوم الشرع، فليكن حكيمًا برًا كريمًا وليبق للصلح موضعًا وللخروج من ضيق الخصام منزعًا، وإلا فهو لئيم ذميم ملحق بالشيطان الرجيم. وقد ذكرنا فيما تقدم أن أسباب الخلاف حق وهو إنذار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وباطل وهو شره أُولي الأغراض وتغلب ذوي المطامع، فإنذار الأنبياء لأجل النفع العام وتغلب أصحاب الأطماع لأجل النفع الخاص، وشتان ما بين المقصدين وشتان ما بين النتيجتين، ولينظر فإنه لما كان إنذار الرسل لأجل النفع العام قاتلوا لإعلاء كلمة الله تعالى حتى فتح الله بهم قلوبًا غلفًا وعلت كلمة الله وتبين الرشد من الغيّ. قال خاتمهم نبينا ﷺ بأمر الله كما في كتاب الله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٦] وحيث ظهر الحق ولمعت أنواره لعين كل

محق ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: الآية ٢٩]. ثم أخذ الذمة على أقوام وأعطاهم ذمة الإسلام فرتعوا في بحبوحة الأمن لا يخافون عدوان ولا يرون إلا أمانًا. وقتل رجل رجلًا مستأمنًا فقتله المصطفى ﷺ في مسجده الشريف.

وقال أرواحنا لجنابه العالي الفداء: «أنا أولى مَن وفَى بذمته». وقنع الشرع من أولي الذمة بما يترتب عليهم من المال المشروع وهم في جميع الحقوق كليها وجزئها لهم ما لنا وعليهم ما علينا ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٣] أي الذين يظلمون أنفسهم فيما لا يرضى الله ويظلمون بالتعدي والأذية خلق الله، ومثل هؤلاء أعني الظالمين لأنفسهم الظالمين لغيرهم فصدعهم بصادع الحق وكف يدهم عن ظلم النوع الآدمي وأذيته وسلب راحته ضربة لازب وأمر بحكم العقل والشرع واجب وفاعله يثاب وتفتح له بالخير الأبواب، وتركهم على طريق ظلمهم وغدرهم مضر بالنوع الآدمي كل الضرر ومن لم يعرف الخبر علم اليقين لم يكفه الخبر، ومن هذا التمهيد يعلم أن أصل الشرع إنما هو فيما يؤول إلى المخلوق إرادة النفع العام في كل حال لكل أحد من الناس على طبقاتهم واختلاف معتقداتهم وفيما يؤول إلى الخالق الإيمان به وبكتبه ورسله والعمل بأوامره والنهي عن نواهيه وبالإيمان بالله وبما جاء به الرسل عن الله جمع كل ما يجب، يؤيد ذلك قول الله تعالى في الكتاب العزيز: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: الآية ٧] وتدبر تجد من يغلظ على الآدميين حالة الغلبة عليهم لا بد وأن يكون إما من غير المسلمين، وإما إن كان من المسلمين فهو من الجاهلين بأحكام الدين المبين. فإن الشرع منع عن أذية الآدمي والتمثيل به وعن سوء الملكة وأمر بالرفق، فإن القوة الإسلامية لا تنصرف إلا إلى بث الخير في النوع الآدمي والنفع لأفراده في أمري الدين والدنيا، وإذا أمعن اللبيب النظر في أحكام الشريعة وعرفها معرفة عالم حكيم تحقق كل التحقق أنها روح العدل وسيف العز والبركة الشاملة لأفراد النوع، وفي كل حكم من أحكامها سر يفيد الإطلاق التام للنوع الإنساني لا ينهى عن الطيبات منها حكم ولا يسوق إلا الخير منها حكم، وأكثر ما خاض به غلاظ الفكر في فلسفتهم أمر القصاص ولو عقلوا لعلموا أنه العدل المحض، فإن الحكم الشرعي المنصوص هو النفس بالنفس والسن بالسن والعين بالعين والأنف بالأنف وهكذا، ما عدا الجروح فإن الجارح يقاصص بما أوجبته الأحكام الشرعية وتلك بنسبة الجرح. فإن كان قابل الالتئام له حكم وإلا فله أحكام أُخر ولينظر، فإن أمير المؤمنين سيدنا عمر رضي الله عنه أمر بلطم جبلة بن الأيهم حين لطم رجلًا فقيرًا في الطواف وجبلة ملك غسان الشام فقال جبلة: وهل هذا مثلي

حتى ألطم لأجل لطمته؟ فقال عمر رضي الله عنه: نعم الإسلام ساوى بينكما. فليتدبر، فإن الإسلام ساوى بين ملك وصعلوك، في الحق، وقد أمر الشرع بقطع يد السارق وذلك لأن تلك اليد أذلتها الخيانة للنوع الآدمي وحين طالت لأذية النوع أمر الشرع بإقصارها ليعتبر من في نفسه تلك الخلة السيئة فلا يمد يده لأذية فرد من أفراد النوع. وفي مثل هذه الحقائق المملوءة بالرقائق حفظ لحقوق النوع العام وسلامة عامة لجميع الأنام، وقد خاض بعض متفلسفيهم في أمر تعدد الزوجات في الإسلام فخبطوا خبط عشواء وما أصابوا المرمى، والحال أن الحكمة في تعدد الزوجات ظاهرة وتلك أن الدين الإسلامي مبني على صدق العهد والوقوف عند القول، فإن المسلم المتشرع لا يكون له قولان فالزوجة قبل عقد النكاح عليها لا يصح نكاحها إلا بالرضا والقبول وهي تعلم أن الشرع أجاز للرجل أخذ أربع زوجات، فمتى قبلت ورضيت التزوج بالرجل فقد أقرته على الحكم الشرعي وأنها راضية به، فإذا لم تقف عند قولها فقد خالفت الحكم وأخلفت الوعد وذلك خلاف الدين، وكون النساء محل عوارض بشرية بحكم الطبيعة وقد منع العقل والشرع مباشرة نوع النساء حالة طرء تلك العوارض عليهن وتلك العوارض تمر عليهن في الشهر وفي أثناء الحمل وفي وقت الرضاع، هذا إذا لم يطرأ على البعض منهن أمراض أخر يكثر وقوعها في النساء. ففي مثل تلك الأوقاف لا يصح للرجل المسلم شرعًا ولا يجوز له عقلًا أن يمد العين واليد إلى أعراض الناس ويؤذي النوع بما لا ينطبق على الشرع والعقل، إذ بذلك من المضرات الشرعية والعقلية العجب العجاب، من ذلك أن النطفة التي تسقط من الرجل حالة الزنى إن كانت في امرأة من المحصنات ونتج عن تلك النطفة ولد فالولد يرث مال غير أبيه ويكون في عائلة غير أبيه ويعد قريبًا وهو أجنبي ويطلع على عورات قوم ما هو منهم، وأمثال ذلك من المحظورات، وإن لم تنتج تلك النطفة حملًا فإنها سقطت في غير حقها الذي خولها الله إياه وألفت عيبًا على قوم من النوع الإنساني لايرضاه منه الله ولا الشرع ولا العقل، وعلى هذا فإذا تزوج بامرأتين أو ثلاثة أو أربعة فإنه يكفي عند طرء العوارض التي ذكرت على الواحدة غوائل تلك العوارض بمباشرة الأخرى التي أحلّها الله له وهي مع الزوجة الأولى تحت رضاء وقبول. وهناك لم يبق إلا العدل بين الزوجات، وقد نبه الكتاب العزيز بنص ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: الآية ٣] وأما ملك اليمين فأولئك وصية الشارع ﷺ فإن آخر كلامه في دار الدنيا «الصلاة الصلاة وما ملكت إيمانكم» ونص كلامه الأقدس بلفظ التأكيد الصلاة الصلاة يفيد التباعد عن الفحشاء والمنكر قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العَنكبوت: الآية ٤٥] فالصلاة المعرفة هي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر وإن لم تنه عن الوصفين المذكورين فليست بصلاة، وإلحاقه ﷺ الوصية بعد الصلاة التي هي أجل العبادات بما ملكت الأيمان يلزم بالعدل فيهم في أكلهم وشربهم وكسوتهم ومعاملة الإناث منهم بما يعامل به الأزواج بالعدل التام، وإلا فإذا خرج المرء في ما ملكت يمينه عن دائرة العدل فقد ظلم وأخطأ طريق الحق لمخالفته وصية الشارع الحكيم الرؤوف الرحيم ﷺ. وقد قال أرواحنا لجنابه الفداء: «مولى القوم منهم» وبهذا بلاغ فليتدبر، وقد يتبجح البعض فذكر الجهاد الذي وقع في عهد الحبيب العظيم ﷺ وخاض بفهمه السقيم، والحال أن ذلك كان في بدء الظهور المحمدي لبث روح التوحيد ونشر شمس العدل في الخلق وإيقاف جفاة الناس وأهل التجاوز منهم عند الحدود، وهذا لا يتم إلا بالقتال فلذلك كان مشروعًا وفعلًا حسنًا للنفع العام ولسلامة الأنام وجوازه كجواز الأخت للأخ في شريعة سيدنا آدم عليه السلام لبقاء النوع، ثم لما أبرز الله الذرية الآدمية نسخ سبحانه هذا الحكم، فليتدبر، ولا يذهب فكرك أيها اللبيب بالغلط إلى الزعم بأن حكم الجهاد نسخ بعد، بل الجهاد حكم لا ينسخ لكونه كافلًا وعاصمًا لدوام أحكام الدين وللذب عن حقوق المسلمين وصيانة الآدميين من أهل العدوان الباغين، وفيه الرهبة للفجار والأمن للأخيار غير أن القيام به لا يكون إلا بأسبابه المشروعة التي تؤول لصالح الناس ومصالحهم، وبهذه الدقائق الجليلة والحكم الجزيلة يعرف العارف شأن هذا الدين والعاقبة للمتقين. ولما كان لباب هذا الدين الأنور وكنه هذا الشرع الأزهر هو صيانة الحقوق للنوع الإنساني وحفظ شأن الرحم الآدمي وكانت الاتصالات قائمة بين الذرات وواجب عقلًا وشرعًا رعاية حقوق جميع الحادثات العلويات والسفليات البارزات والمغيبات، أردت خدمة للبشرية وتعظيمًا للآدمية بيان هذه الأسرار اللطيفة والأحكام الشريفة لينتفع بها النوع العام ويعم إن شاء الله سنا نورها بين الأنام، فمن أنصف عرف الحق واتبعه ورأى نور البرهان وانصرف معه، ولا عبرة إلا بأهل الإنصاف والعقل المنزه عن وصمة العناد التي تجر إلى الخلاف، والموفق هو الله وعلى كل فحسبنا الله هو مولانا ونعم النصير وإليه المرجع والمصير وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

الحمد لله الذي خلق نوع الإنسان من طين، وفضله على كثير من العالمين، وصلاة وسلامًا على أشرف أفراده المنتخب من أشرف الأصناف، سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وعلى آله البررة وصحبه المنتخبين الخيرة.

وبعـد:

فقد تم بعون المنعم الوهاب طبع كتاب (حديقة المعاني في حقيقة الرحم الإنساني) مطرز الحواشي بكتاب (خلاصة البيان في حكم نوع الإنسان) كلاهما من تصانيف من طبقت شهرته الأقطار، وظهر ظهور الشمس في رابعة النهار، صاحب السيادة والسماحة، والفضل والرجاحة، صدر الصدور العظام، وشيخ شيوخ الإسلام، السيد محمد أفندي أبي الهدى الصيادي الرفاعي بلغ الله به أعلى سلم الكمالات وأناله ما هو به جدير من العنايات. ولعمري إن شهرة سماحة السيد نفعنا الله ببركاته جديرة بأن ترفع عنا مؤونة تقريظ الكتابين الجليلين وبيان مزاياهما التي لا يدخل في الطاقة حصرها وتعدادها، أوفى الله لسماحته الجزاء ورفع مكانه الرفيع على الجوزاء آمين.

بَرْقَمَةُ البُلْبُل

تأليف

قطب العارفين محمد مهدي الصيادي الرفاعي الرواس

المتوفى سنة ١٢٨٧هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

ترجمة مختصرة للمصنّف

هو صاحب هذه الحقائق ومفيض هذه الدقائق والمتكرم بهذه الرقائق، شيخنا وسيدنا غوث الوجود وكوكب أهل الشهود سلطان أولياء العصر وقرة عين الشرف والفخر، الإمام الكبير والغيث المطير العلّامة الفهامة الرفيع الشأن القوي الأساس السيد بهاء الدين محمد مهدي آل خزام الصيادي الرفاعي الحسيني الشهير بالرواس رضي الله عنه وعنا به. وُلِد نفعنا الله بعلومه وبركاته سنة عشرين ومائتين وألف في بلدة سوق الشيوخ من أعمال البصرة، ولما بلغ الثلاثة عشر من عمره توفي أبوه وأمه في الطاعون وبقي فريدًا ليس له إلا الله فكفله خاله، وفي تلك السنة هاجر مع خاله إلى المدينة المنورة شرف الله بقاعها وكلل بالنور قاعها، وتشرف بزيارة جده سر الوجود ومعدن الكرم والجود وصاحب المقام المحمود ﷺ، ثم بعد برهة حج واعتمر ورجع إلى أعتاب سيد البشر عليه صلوات الله وتسليماته ما أعتم ليل وأشرق قمر، ثم أمر بأخذ علم الشريعة واستكماله فذهب إلى مصر ودخل الجامع الأزهر وتلقى العلوم الشرعية والفنون المرضية عن الشيخين الفاضلين الجليلين الشيخ الأمير والشيخ ثعيلب، وبرع ومهر وعظم واشتهر وماج ببحور العلوم وأحاط بالمنطوق والمفهوم. ثم بعد تلك السنين الكثيرة والأعوام الوفيرة المنيرة التي قضاها بخدمة الشريعة ونعمة الذريعة، تجرد للسياحة تاركًا الكل لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، ونزل الديار الشامية وزار جده قطب الأقطاب وغوث الأنجاب أوحد الأفراد مولانا السيد عز الدين أحمد الصياد الرفاعي الحسيني سبط الحضرة المعظمة الرفاعية في متكين بظاهر خان شيخون، ونزل ضيفًا على بني عمه آل خزام واجتمع على ابن عمه الولي النقي والجهبذ النقي السخي أبي البركات السيد حسن وادي آل خزام الصيادي الرفاعي قدّس الله سرّه وروحه، وهو إذ ذاك في خان شيخون وبقي أيامًا في زاويته ثم ذهب إلى كفر سجنا قرية بالقرب من خان شيخون هي من أعمال معرة النعمان بلدة الفيلسوف الإسلامي الشهير أبي العلاء المعري رحمه الله، وفيها اجتمع على الولي الأنجب أبي

الأحوال السيد رجب المحمدي الخزامي الصيادي الرفاعي شيخ السيد حسن وادي أبي البركات الذي مر ذكره ونفح عطره، وأقام عنده برهة يسيرة ثم تدرج إلى العراق وزار أجداده الطاهرين أئمة الآل المرضيين شموس العالمين رضي عنهم الملك المعين، وانتهى به السير إلى أن زار حضرة جده الغوث الأكبر والقمر الأزهر سلطان الأولياء والعرافين مقبل يد جده سيد المرسلين عليه صلوات رب العالمين ألا وهو شيخ الأمة المندوب في الملمة أبو العلمين مولانا وسيدنا السيد محيي الدين أحمد الكبير الرفاعي الحسيني الحسني الأنصاري عليه رضوان الباري، ثم دخل البصرة وطاف الأقطار والأمصار ووصل شاسع البلاد وقصي الديار وأكثر من السياحة على القدم في بلاد العرب والعجم وانتهت إليه نوبة الإرشاد في الطريقة وكلمة الإنفراد في علوم الشريعة، وزادت كراماته وكشوفاته عن العد والحصر وتنور به الزمن والعصر، وله مؤلفات عديدة وآثار وحيدة ومنظومات شائقة، وبالجملة فهو غوث الوقت وبركته ووليه وسعد العصر وصفيه وسيد الآل وكعبة الآمال وقد آل أمره بعد مدة طويلة أن شرف إلى بغداد وألم به المرض أيامًا وتوفاه الله بها سنة سبع وثمانين ومائتين وألف من هجرة صاحب المجد والشرف ﷺ وله مقام يزار وتطفح فيه الأنوار، وقد قال فيه عبده وحسيبه وخليفته ونسيبه جامع هذه الرقائق وناظم عقود هذه الدقائق، الفقير إلى الله تعالى محمد أبو الهدى كان الله له، أبياتًا أشرن إلى مرقده وعلو فرقده وانتظمن قصيدة فريدة وقلادة مفيدة وها هي:

لي في العراق إمام ضاء فرقده ... ومهبط الملأ العلوي مرقده
أتى لتجديد أمر الدين منتهضًا ... فليهنأ الدين وافاه مجدده
نعم هو السيد المهدي والأسد الحَبْر ... الذي ضمَّ بحر العلم مشهده
أقامه بيد الإحسان عن مدد ... لنصرة الشرع في الدنيا محمده
فالمصطفى روح هذا الكون مسعفه ... والله عز اسمه فضلًا مؤيده
وهمة ابن الرفاعي الإمام إلى ... مراتب المدد الدوار تصعده
أهدت له نوبة لا تنقضي أبدًا ... تقيمه في معاليها وتقعده
طريقه الحق معليه محمده ... وبابه لرسول الله أحمده
أنعم به من إمام سيد سند ... مدت له من ضريح المصطفى يده
جاء الإمام بهاء الدين عنه لنا ... بمنهج يدرك الأشقى ويسعده
محجب شمسه في العالمين جلت ... طريق دين أولو الألباب ترصده

لاذت بـه أولـيـاءُ الله فـاكـتـسـبـت فضلًا وطابت بكاس طاب مورده
لم يخش ضيمًا ولم يعثر بمزلقة فتىً إمام الهدى المهدي مرشده
شيخ الطريق الذي يرضى الإلٰه به رئـيـس ديـوان أهـل الله سـيـده
رقت معانيه للألباب فهو إذًا في جفن باصرة العرفان أثمده
زوى عن الكل غير الله همّته فالله في سائر الأحوال مقصده
روحي فداء تراب مس أخمصه كواكب العالم العلوي تحسده
نظمت شعري درًا في مدائحه يهدي لعلياه غاليه وجيده
يهتز من طرب في الله سامعه ويفرغ العطر في الأكوان منشده
ويستميل الجبال الشم وارده معنى ويحلو لذي العليا تردده
يرصع الأفق مرفوعًا زبرجده وفي التدلي يزين الأرض عسجده
أقام للشرع ركنًا في القلوب سمت إلى سمٰوات علم الله أعمده
ومزق الغي والبهتان حين جلا نهجًا ملائكة الرحمٰن تحمده
إني له عبد رق لا أميل إلى عتق وكافل أمر العبد سيده
لا زال مهبط نور القدس مشهده دهرًا وباصرة الأكوان تشهده
ولا عدا الغيث قبرًا ضمَّ أعظمه يأتيه بالرحمة العظمى ويرفده
ما صح عنه حديث الفضل متصلًا بجده خير خلق الله مسنده

ونسب سيدنا الإمام الرواس عليه رضوان ربّ الناس متّصل من جهة آبائه الكرام بحضرة القطب الجليل الجيلاني، وخرقته الشريفة رفاعية، وسيرته محمدية، ومذهبه شافعي وفضله أشهر من أن ينبّه عليه أو يشار إليه.

من تصانيفه الكثيرة:

١ ـ ديوان شعر سمّاه مشكاة اليقين ومحجة المتقين.

٢ ـ دلائل التحقيق لأرباب السلوك والطريق.

٣ ـ طيّ السجل في الحديث.

٤ ـ ديوان شعر سمّاه فائدة الهِمَم من مائدة الكرم.

٥ ـ رفرف العناية.

٦ ـ أشرف الخطاب لأشرف الأقطاب.

٧ ـ النائب العام عن كل ما تقدم من الحِكم والأحكام.

٨ ـ فذلكة الحقيقة في أحكام الطريقة.

٩ ـ الدرة البيضاء.

١٠ ـ برقمة البلبل.

١١ ـ فصل الخطاب فيما تنزلت به عناية الكريم الوهاب.

١٢ ـ الحكم المهدوية.

وانظر: معجم المؤلفين لكحالة (٣/ ١٧٤).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على أسعد رُسُل الله سيدنا وسيد خلق الله محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فيقول العبد الفقير ـ في كل الأحوال ـ إلى الله محمد مهدي الملقب ببهاء الدين، والمنعوت في الحضرة بغريب الغرباء، والمكنى بأبي البراهين ابن علي آل خزام الصيادي الرفاعي الحسيني ثم الرديني كان الله له ولوالديه وللمسلمين آمين.

كنت سنة اثنين وخمسين ومائتين وألف في مكة المكرمة، في بيت الله الحرام، وقد استقبلت القبلة واشتغلت بذكر الله تعالى، فسمعت بلبلًا يبرقم بلغة كنت سمعتها في ديوان حضور، وعلّمنيها رجل غيبي، بأمر نبوي، فلذلك فهمت ما برقم به البلبل، يخاطب رفيقًا له، فكتبت قوله والجواب الذي رُدَّ له في هذه الصفحات المباركة القليلة، وسميت هذه الكلمات (برقمة البلبل) وإنها لمن أعجب العجائب، وأغرب الغرائب، يعرف سرها العارفون، وينتفع بها المحققون، ويخشع لمضمونها الموفقون، والأمر بين الكاف والنون.

قال البلبل لرفيقه: يا عبد الله أتظن أن هذه الجماعات من البشر تعرف أن خيوط أرواحهم لها أنوار، كل خيط له نور مضيء، ونور محجوب، ونور مطموس، والنور المضيء له مراتب ودرجات؟ ومن أين يعرفون هذا السر وهم في حجب نفوسهم وآمالهم! كل منهم بين الهوى والنفس والشيطان والدنيا يقوم ويقعد إلا من شملته العناية، ونفحته الهداية، وأولئك لعمري قليل ما هم، وهل يعرفون أن خيوط أنوار أرواحهم متصلة في عالم الأمر، وكل روح تأخذ من خيطها حصة علم على حسب قابليتها، وتتدلى تلك الحصة إلى مركزها القابل انطباعها فيه؟

فترى الخيط المطموس يتموج في حضرة من حضرات عالم الأمر كتموج الخشبة في الماء يُبل ولكن لا يعقل معنى الماء، وما في مادته من أسرار الأرض والسماء، فإذا لامس ذلك الخيط العقل أخذ من البلل حكمًا يناسب حاله، فينفجر في ذلك العقل من ذلك البلل فكر يجره إلى اختراع صنعة أو انتهاض إلى عمل دنيوي، وكل فكر يجري من ذلك البلل في ذلك العقل لا يتعدى الدنيا وما يؤول إليها.

وأما الخيط النوري المحجوب فإنه يأخذ من حصة تموُّجه بللًا يدفعه تارة إلى قلب صاحبه، وتارة إلى عقله، ولكن مع حجابه، فيخفق القلب خفقة متذكر، والعقل يتحرك حركة متفكر، وكلاهما ينتج له نصيبًا مما في طي همته، وحكم جوهريته من الحالين الديني والدنيوي.

وأما الخيط النوري المضيء فإنه على مراتب، منه مرتبة قاصرة تبلج للقلب والعقل ضوءًا قليلًا حسب القابلية، والاستعداد والوهب الإلـٰهي ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: الآية ٤٠].

ومنه مرتبة وسطى تأخذ حظُّها.

ومنه مرتبة شامخة وأهلها نورهم يسعى بين أيديهم فكل أحد منهم على نور من ربه ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: الآية ٣٥].

فقال ذلك البلبل لرفيقه: آه يا عبد الله عالم البشر هو عالم عظيم.

الآدميون مكرمون على الله قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: الآية ٧٠] هذه التكرمة عامة في النوع، ولهم مراتب قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: الآية ٣٢] وإني لا أحتقر ذرة آدمية عظمت أو حقرت لأن طي التكرمة يمكن أن يكون مشتملًا على نشرٍ في تلك الذرة التي يحتقرها الشخص، فإذا بدا ذلك النشر بعد حين وجلا إبّان ما قام فيه بقي للمحتقر الخجل والخسران، وكيف تحتقر ذرة من نوع، ومن ذلك النوع الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام - والصديقون والعلماء العاملون.

ومنهم العارفون، والأولياء الحكميون، والمهيمون، والوالهون، والمطويون في ستر المحبوبية تحت قباء الغيرة فلا يعرفهم سواه سبحانه وتعالى، ومنهم المتصرفون فيَّ وفيك، وفي عوالم الأكوان، والنائبون بإذن الله عن نبي الرحمـٰن ﷺ.

فقال البلبل الأول: يا عبد الله أنا لم أقصد بما ذكرته لك احتقار ذرة آدمية قط، وإنما بينت لك مراتب البشر، ففيهم المحجوب، والمطموس، والمقلوب، والنيّر المضيء الذي هو من الصنوف العالية التي ذكرتها، ومنهم الأنبياء، والأولياء، والعلماء، والعرفاء، والصلحاء، وهم أيضًا مراتب كما جاء في كتاب الله أعني القرآن الذي أنزله الله على حبيب قلوبنا محمد ﷺ.

فقال رفيقه البلبل الثاني: هذا المعنى لا ينكر غير أن الجزء المظلم يحترم لأجل الكل المنير، وكون ولوج نور الكل في الجزء من الممكن، والعاقبة مجهولة، فعليَّ وعليك أن نتأدب مع النوع الإنساني، بل على النوع الإنساني أيضًا أن يتأدب كل فرد منه مع بقية أفراد نوعه قلّ أو جلّ شكر أو كفر، وإذا وعظ فرد منهم أخاه أو أرشده أو دلّه على الله فليكن وعظه منزهًا عن الغلظة والقسوة، ورؤية التفوق عليه والخيرية، وليتذكر سر قوله تعالى لنبيه الذي هو أشرف النوع: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: الآية ١١٠] ولا ينسَ حكم نص: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: الآية ٥٠] وبذلك تتعين المراتب، فلا يعلو صاحب المرتبة العالية، ولا يتجاوز الحدّ صاحب المرتبة السفلى، وأنت تعلم أن النبي ﷺ تنزل لمخاطبة أجلاف العرب، وصعاليك الأعراب الذين لا يكادون يفقهون حديثًا، وقال: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت؟ قال: ولا أنا إن لم يتغمدني الله برحمته»[1].

فقال البلبل الأول: يا عبد الله هذا أدب الصديقين أهل علم اليقين، وحق اليقين؛ ولكن لا تغفل عن قولي الأول: وقليل ما هم، وخلافنا لفظي.

وأنت بالله عليك هل تعرف أن هذا الملتحف بكسائه الرث المستقبل الكعبة هو يعلم لغتنا هذه، وقد فهم كل ما قلناه؟

فقال الثاني: لا والله ما علمت هذا.

قال الأول: بلى وهو من آل رسول الله ﷺ، ومن نوّابه الذين أشرت إليهم، ونوهت عليهم، وهو عالم الزمان، وشيخ الأوان.

فقال الثاني: تعال نتبرك به، ونقبّل قدميه، وقد وجب ذلك بعد أن علمنا أنه علم ما قلناه، وفهم ما ذكرناه.

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٧٣)، ومسلم (٤/ ٢١٦٩).

فتقدما إليَّ الأول ثم الثاني، وعكفا عليَّ وقالا: نرجو منك الدعاء حتى لا نغفل عن ذكر الله، ولا عن محبة رسوله ﷺ.

فدعوت لهما، ثم قلت: يا عالم البلابل كيف ترى الطريق إلى الله؟

قال: أدب الشرع. قلت: وما لبابه؟ قال: الإيمان بالغيب.

إنك لتعلم يا سيدي وابن ساداتي أن الكثير ممن حاربوا جدك ﷺ ونازعوه لو آمنوا بالغيب وصبروا حتى يأتي الله بأمره ويظهر دين رسوله على الدين كله، وتحصل لهم به الحظوة في دنياهم وأخراهم لما حاربوه، ولا نازعوه أمره، فإن جدك عليه الصلاة والسلام أتى بشريعة أحكامها جليّة ليلها كنهارها، ولكن نتائج الفضل المطوي فيها غيبية، ولذلك تحتم الإيمان بالغيب على المؤمن، وأنت تعلم أن المرشدين الكمل أمثالك ـ رضي الله عنهم ـ أول ما يُحكمون في خزائن قلوب أتباعهم حكم الإيمان بالغيب، وكتاب الله هدى للمؤمنين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ومما رزقهم خالقهم وأفاض عليهم ينفقون، وهذا مضمون النص الفرقاني، وسكت.

فالتفت إلى البلبل الثاني فقلت: وأنت يا عالم البلابل ما تقول في درجات الإيمان بالغيب؟

فقال: أولها تصديق ما يرد على لسان النبي الأمي ﷺ وما يُنص في الكتاب مما لم يُحط به السامع المبصر خبرًا بحيث يعتقده كأنه يراه قال ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وثانيها تصديق ما ينبه عليه وراثه أئمة الدين رجال كل وقت، وها أنت والحمد لله واحدهم اليوم، فإنك إن أخبرت بشيء يجب على السالك الموفق الإيمان به البتة، حتى كأنه يبصره ويراه بعيني رأسه. وثالثهما الجزم بأن الله يفيض علوم غيبه لنبيه وإخوانه الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام وهو يفيض لمن أحبه الله من فيض الله، فقول الوارث قول المورّث، وقول ذلك المورّث الأعظم آت عن الله، وإن الله لا يخلف الميعاد.

فقلت للأول: يا عالم البلابل كيف تعرفون الولي الآدمي؟

قال: يسعى نوره بين يديه، وكل واحد منهم أعني الأولياء نوره بقدر رتبته التي أفيضت إليه من حضرة الكرم.

قلت: كيف ترى النور الذي بين يدي؟ طيب قلبي طيب الله قلبك.

فقال: نور صديقية في طرز نبوي على القدم المحمدي، فيه لمحة من شرائف لمحات جدك ﷺ تحمل تلك اللمحة قوة في ضعف، وظهورًا في خفاء، وشهرة في استتار، ومددًا يعم الأقطار، وصيتًا يملأ الأمصار والقفار تشب له قلوب الحاسدين بنار، وتنفلت عليه ألسنة الجاحدين وهي في عقد عجز وانقهار، وها هي صحيفتك البيضاء فوق مقام إبراهيم عليه السلام، فاقرأها واسترح والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فحدقت بصري في الصحيفة فقرأتها بالتدبر، وكمال التأود، فتعجبت من وقاحة الحاسدين، وجهل الجاحدين، وجمعت صفوفهم وصنوفهم في قالب واحد، وخاطبتهم بلسان البرهان، ولا برهان بعد عيان، وهذا نص ما فتح به علي حينئذٍ:

حسَدْتَ عناية الرحمٰن فينا ... وقد أبرزت ذا الحقد الكمينا
ضلالًا تجعل العرفان غيًا ... وجهلًا تكتم الحق المبينا
رويدك أنت مفتون وإنا ... شموس الأولياء العارفينا
ونحن بنو النبي بغير مين ... وعين محمد ترعى البنينا
طويت بزعمك المنبت نشرًا ... نوافح نشره في العالمينا
جهلت شؤوننا طيشًا ويومًا ... ستعلم حقها العلم اليقينا
مكرت بنا ومكرك فيك ماض ... وحفظ الله درع المخلصينا
أقام لهم تعالى الله عزًا ... وأيد بالقبول المتقينا
وأعطى القوم أهل الحق نصرًا ... وعن كرم تولى الصالحينا
فيا من رامنا بالسوء مهلًا ... فإن الله عون العاجزينا
عبثت بنا لتسقط من عُلانا ... وسهم الخزي سهم الحاسدينا
وأعطانا الكريم يد المعالي ... وشاد لحفظنا الحصن الحصينا
وأيدنا بنور منه يجلى ... بطالعة تسرُّ الناظرينا
أتعجب إذ يضيء لنا فخار ... ويملأ بالتجلي طور سينا
ويسري في فجاج الكون طرًا ... ويلمع مشرقًا حينًا فحينا
ورثنا الزهر من أبناء طه ... أئمتنا الكرام الطاهرينا
وإن خوارق العادات إرثًا ... بضاعة بيتنا والسر فينا

وقد طبت بالله تعالى حين قرأت ما في الصحيفة المباركة بشأني، وبشأن ظهور أمر طريقي، وكدت أطير سرورًا لما أمنَّ الله تعالى عليَّ به من إطناب في الألقاب فيها ما نصه بلفظه، هذا غريب الغرباء أبو البراهين، وأحد آل طه ويّس، خلف الأئمة الهادين، بقية أعيان العترة الطاهرين، سيف الرسالة المسلول على أهل الضلالة، المجدد الأكمل، الأشعث الأغبر، سجنجل الحكمة والفراسة المحمدية، رافع ألوية الشريعة الطاهرة الأحمدية، باني مباني أحكام الطريقة المرضية الرفاعية، شيخ الأئمة، نور المدد المصطفوي الذي ستجلى به الظلمة، الرفاعي الثاني، الإمام الأوحد الرباني، طلسم البرهان المحمي الذي لا يدافع، معنى ناطقه البيان النبوي الذي لا ينازع، بحر الفتح، هادم الدعوى والشطح، الفتى ابن الفتى، محمد مهدي بهاء الدين، باب النبي ﷺ في العصر، وجه عليٍّ في الدهر، الفقير الغني، الضعيف القوي، الخفي الظاهر، العاجز القادر، شمس الإفاضة المصطفوية للذرات كلها من التحق بها سلم، ومن أبغضه عن جحد أو حسد ندم، ومن آذى نوابه وأحبابه لم يقم، ولو التفت عليه المحافل، وسارت لأمره الكتائب، وصُفَّت له الصفوف، ومرت لديه من قناطير الذهب المقنطرة الألوف، هذا آية الله المخبأة في دفتر الغيب ينتفع بقراءة فحواها، والاندماج في ظل معناها كل من لله فيه عناية، يصل به الله ويقطع، ويعطي ويمنع، ويرفع ويضع، هذا الزاهد الواجد، الآبد الماجد، هذا بركة الله في الكون، هذا الممهد، هذا الموطد، هذا القائم لله، ولإعلاء كلمة الله، ولخدمة رسول الله، لا لغرض من أغراض الأكوان، ولا لعلو، ولا لغلو، ولا لتقدم، ولا لترفع، ولا لعظمة نفسانية بل هو بحر مطمطم رباني، وكنز مطلسم سبحاني، أفيض له مددنا بواسطة جده سر الوجود، وبارقة النظم الأول في كيانتي النسقين الطموس والشهود محمد ﷺ. هذا سيد عشاق رسول الله، وسيد محابيب الله اليوم في ملك الله، عليه سلام الله، ورضوان الله. وهناك غبت عني، وأُخذت مني، وذبت معنًى، وترقرقت مهنًا، وانطمست بوجدي، وظهرت بمجدي، وتجلجلت وقلت:

يا مَن إليكم أسيرُ ... لكم فؤادي أسيرُ
قد طار سري إليكم ... ومثل سري يطير
أقلامكم في فؤادي ... لها لعمري صرير
بشغله عن سواكم ... مهما لوته أمور
يا محور القلب مني ... دهرًا عليكم يدور
متى خطرتم عليه ... يفاض فيه السرور

قلبي بكم مستنير منى وطرفي قرير
ومذ ملكت هواكم سرًا فملكي كبير
فالجيش ليس بشيء أرومه والسرير
أنتم سرير فؤادي وجيشه والأمير
عشقتكم قبل كوني وقبل يجلى الظهور
فالسر سر قديم والشأن شأن خطير
بكم جميع البرايا في مشهد العين نور
ومن يوالي سواكم ففي الغيوب حقير
منكم لكل محب على الزمان نصير
وعنكم الحق يروى يدري بذاك الخبير
وكل خير وبِرّ إلى حماكم يصير
يثيرني الشوق طورًا لبابكم فأطير
وعند فقد هواكم هو المتاع الغرور
كم مرة جاد منكم لسر روحي البشير
فغبت مذ جاء عني فقدٌ إذًا وحضور
يا مَن لكم كل كلي عذرًا فباعي قصير
ما لي سوى صدق حبي والصدق كنزٌ وفير
طمري لعمريَ رثّ وجزء كلي صغير
لا درهم ضمن جيبي ولا عليَّ حرير
ولا حواليَّ رهط بالاحتشام يدور
ولا غطائيَ مَسح ولا وطائي حصير
فانٍ ومن كل شيء سوى هواكم فقير
أغار مني عليكم إن المحب غيور

الحمد لله ربّ العالمين. وهناك انجلى لي مظهر رسول الله ﷺ وقد ملأ نوره الأكوان، فوقفت أمامه خاشعًا خاضعًا هائمًا وآلهًا أصلي شرائف عبارات الصلاة عليه، وأقدم بضائع ذلي وخضوعي وانكساري إليه، فحنا عليّ وتوجه بالقبول إليّ، وناداني منادي الكرم من قِبَلِه ﷺ قد ملأناك علمًا وفهمًا وحلمًا ومددًا وقدرة وبرهانًا وعرفانًا

ونورًا وحظًا كبيرًا، ورفعنا لك منبرًا لا يسقط، ووهبناك ناطقة تندرج كتائب مددها في الأكوان فلا تسكت إلى يوم الدين، أنت هو المقبول عندنا، المؤيد بنورنا، المبارك بعلمنا، المنصور بمددنا، نوالي من والاك، ونعادي من عاداك، ونصون بعون الله من حَماك، يَرفَع عَلَمَك من أفلاذ بيتنا حبيب لنا فأعد عليه نظر حنانك، وعَلِّمه رقرقة قلبك وناطقة لسانك، ولا توافق أهل البدعة، ولا تلائم أرباب الدعوى، ولا تجنح لا بالقلب ولا باللسان إلى القول بالوحدة المطلقة، ولا تتعمق بالكلام على الذات والصفات، ولا تُعمل الفكر في المتشابهات، خذ مأخذ أجدادك الآل الطاهرين، وسر سير الصحابة، واتبع منهاج السلف، ووافق إمامًا ترتضيه من أئمة المذاهب المتبعة اليوم، فالأربعة على حق، ولا تقلد غير نبيك، وتحقق بالحب لله ولكتابه ولرسوله، ولا تشق العصا، ولا تجمع القلوب عليك بل اجمعها على الله، وعلى شريعة نبيك، وعليك بمشرب جدك السيد أحمد الرفاعي، واثبت على طريقته فإنها الطريقة المحمدية الحقة، ولا تشهد لك فوقية على أحد من خلق الله تعالى، واحفظ وقارك، ابنِ الكلمة، واقْسُ بالهمة، ولا تتبع كل ناعق، واجعل أُذنك عن دعاوى الشطاحين في صمم، وأفرغ أخلاق نبيك وأحواله في الأمة، فإنها لفي احتياج عظيم إلى هذا المنهج القويم، وأكثر من الذكر الحكيم، والصلاة والسلام على نبيك وإخوانه الأنبياء والمرسلين، وأمِلْ قلوب المسلمين إلى العلماء والأولياء، وقل صاحبوهم وزوروهم، ولا تبصر فعلًا لمخلوق استبدادًا، واعلم أن الفاعل المختار هو الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقدم إمامك في الله تقديمًا لا يقضي باحتقار أحد من إخوانه الصالحين، ولا تقيد أحدًا من تابعيك بقيدٍ شيم منه شيء من رائحة التفرقة بين الأئمة، وقل هذا طريقنا إلى الله، فمن رأى طريقًا أقوم منه فليسر فيه، فإن الحق لا يترك لأغراض النفوس، واعلم أنك اليوم خاتمة الصديقين، وشيخ الطريقة القويمة المحمدية ثم الأحمدية، طريقك أقرب الطرق، ومنهاجك أقوم المناهج، وأنت سيد الآل فمن دونهم، وصلِّ عليَّ وسلم، وأنا لك، والله وليك، وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

فغبت عني بعد هذا الخطاب للذة نشأته فما صحوت ستة أشهر لا أفقه إلا أوقات الفروض، وأغيب بالحبيب فشكرت نعمة الله التي وصلتني على يد طير صغير، وأتت بأمر عظيم كبير، وحمدت ربي وله المنّة عليّ فهذا طريقي لا سواه، وصلى الله على سيدنا معلم الخير باب الله وحبيبه، وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

ويسرني كثيرًا ـ وأعلم علم اليقين ـ أنه يسر كل محب إيراد شيء من نظم المؤلف ـ رضي الله عنه ـ وبيان حبه وتفانيه في محبة النبي الكريم ﷺ وبيان شيء مما أكرمه الله به هو ووارثه الذي سبقت الإشارة إليه رضي الله عنهم، وإليك قوله رضي الله عنه مخاطبًا به صاحب الرسالة العظمى ﷺ ومتحدثًا بنعمة الله تعالى عليه:

هل البرق إلا إن تبسمت وانطوى ... هناك التباس حار في فرقه الفكر؟
وذلك مجموع الكيان أم انجلت ... سماتك شخصًا ظله البر والبحر
بك اندمج السر الإلٰهيّ والذي ... أشار له أهل النُهى ذلك السر
وإنك أنت العالَم الأكبر انتهت ... إليك أصول الكون وانبلج السطر
ففي كل مخفي أقيم وظاهر ... بدا لك في طوريهما النهي والأمر
بلى أنت حزب الله كنز فيوضه ... جناحاك في نمط الهدى الرعب والنصر
أشمس الضحى بدر الدجى علة الورى ... سناك المعلى دونه الشمس والبدر
بروجك ألواح القلوب ومنك في ... مطالعها نور الهدى سطعه الفجر
ألا يا حبيب الله يا نور خلقه ... ويا من بدست المرسلين له الصدر
محمد ذرات الوجودات أنت بل ... عصام سماء المجد واحدها الوتر
نشرتَ علوم الله في كل حضرة ... فكلٌ لها طي الحواسد والنشر
وأفرغت طيب العدل فانبسط الشذا ... وفي كل حي من نوافحه نشر
فتقت من الألباب أرتاقها التي ... دهاها ضلال ناطه الظلم والغدر
وطهرت أخلاق الألى قبل كلهم ... جفاة وفي المعنى قلوبهم صخر
وزمزمت بالأبرار لله مجهدًا ... ركاب التقى سربالك اللطف والبِرّ
وساويت بين الناس فالحق قائم ... لأحقر مسكين على من له الأمر
وقمت فأقعدت الشقاق وأهله ... وأسكت بالإيمان من قوله كفر
وأترعت أسرار الرجال بحكمة ... وطابت وفيها أشرق الفكر والذكر
ووافيت بالقرآن نورًا به انمحت ... غياهب غيّ كلها البغي والشر
وقد صنت للتوحيد بالحق رتبة ... لها أذعن الألباب واتضح السر
هداك هو الحق المبين وبعده ... ضلال زعوم كل منطوقها هجر
لك الرفرف المنصوب في الأرض والسما ... فصولتك الدنيا ودولتك الدهر
وأنت الإمام الجامع الآمر الذي ... غدا من عدا عن أمره ما له عذر

نظمت عقود المعجزات بسمطك … العظيم ففيها ازدان من كوننا النحر
طوى الله فيك الأنبياء كما انطوى … بطمطام لج البحر في ظرفه الدر
وإنك بحر العلم والحلم والهدى … يموج وفي تيارك الحزم والصبر
بك الله أحيا الصالحات جميعها … فضاء بمجلى نورك السر والجهر
عرفناك الرحمٰن بابًا فركنه … نجاح به في الترب قد دمج التبر
وظلك للأكوان حصن وملجأ … ونهجك باستمساكه الفتح والنصر
أتتك صنوف الأولياء بهمة … بحبك قد تنحط عن شوطها الزهر
وطافت بأعتاب الرحاب ولوهة … فتم لها المأمول وازدلف الستر
وإنهمو في رتبة الحب من علا … بشأنك منهم حظه ذلك القدر
ألا يا أبا الزهراء يا سيد الورى … ويا من لديه الأمن إذ يُفزع الحشر
تناجيك روحي مثلما الماء ينجلي … عليه نظام البدر جلبابها الفقر
أغثها رسول الله وارحم ضراعها … فأنت لمثلي الكنز والحصن والذخر
طويتُ بك الآمال لم أبغ ذرة … من الكون إلا أنت كيف انطوى الأمر
فخذ بيدي وارفع إلى الله همتي … فكم منك قدَّ العسر في الأزمة اليسر
نشرتُ بمعناك المعاني رقيقة … بها ولهت عن لهفة شعثك الغبر
وأبرزتُ من آيات نعتك في الحمى … نصوصًا بها ما زال ينشرح الصدر
وقمتُ بأعباء الوراثة واحدًا … ببيتك مخفيّ يُرى دونه الظهر
هززتُ لنصر الشرع عزمًا لعزه … تواضع من مرفوع موقعه النسر
ومذ سكنت في ظل بابك جملتي … إذًا خفقت في الكون راياتيَ الخضر
وكل وليّ قام في العصر واصلًا … هو اليوم مطويّ ببرديّ والعصر
علوتُ مقام الغوث غوثًا مؤيدًا … برمشة عين منك منها ليَ الفخر
وفسَّرتُ أرماز الخفايا مترجمًا … فهومك عن حال به يجبر الكسر
وعزمًا سبقتُ السابقين وإن علوا … بتأييدك العالي وإني بهم صدر
وكل له من بحر جودك غرفة … يفاض بلا خمر برائقها السكر
وها أنا قد زمزمتُ أكرع طيبًا … فراح نوال منك كلي له شكر
رفعتَ وضيعي بالعناية محسنًا … فَشُرِّفَ بين الأولياء ليَ الذكر
وأظهرتني شبلًا قويًا بمظهري … وقد كان مني منقضَ الهمم الظهر

وعَدْتَ وحق ما وعدت سينجلي سناي وقد يزهو به الشرق والغور
وتجلى بجلباب المفاخر حضرتي وينفح في فياح روضتي العطر
وينبع من طرز المقامين للورى بحالي بحر موجه البِرُّ والخير
يقوم بهذا نائبي بعد نوبتي فيبرز شمسًا ليس يُحرمها قُطر
وتكنفه جوالة من عصائبي يطم ذوي الأحقاد من صدقها قهر
مكارمك العظمى وإنك أهلها إليك بأمر الله طول المدى الأمر

تمَّ بعونه تعالى

فهرس المحتويات

كتاب راحة الأرواح ٣
كتاب الرقائق الرواسية ٨٧
كتاب الدّرّة البيضاء ١٠٧
مقدمة الكتاب ١٠٧
باب في التوحيد وحقيقة المعرفة بالله تعالى ١٠٨
باب في واجبات التوحيد ١٠٩
باب في معرفة شأن النبي ﷺ ١١٢
باب في وجوب التمسّك بالسُّنّة ١١٦
باب في معرفة مقادير آل النبي ﷺ ١١٨
باب في الجمع بين مشربي العلماء العامِلِين والمشايخ العارفين ١٢٠
باب في تعريف أصناف الأولياء ١٢١
باب في تعريف الاختصاص الذي يُفاض لبعض الخواص ١٢٤
باب في شيء من رقائق الحكم ١٣٣
كتاب صوت الهزار وزيق العذار ١٣٩
كتاب حديقة المعاني في حقيقة الرحم الإنساني ١٩٣
رسالة برقمة البلبل ٢٢٣
فهرس المحتويات ٢٣٩

RĀḤAT AL-ᵓARWĀḤ

Followed by

AR-RAQĀᵓIQ AR-RAWĀSIYAH

And

AD-DURRAH AL-BAYḌĀᵓ

And

ṢAWT AL- HAZĀR WAZAYQ AL-ᶜIḎĀR

And

ḤADĪQAT AL-MAᶜĀNI FĪ ḤAQĪQAT AR-RAḤIM AL-ᵓINSĀNI

And

BARQAMAT AL-BULBUL

by

Abul-Hudā Aṣ-Ṣayadi Ar-Rifāᶜi

And

Muḥammad Mahdi Aṣ-Ṣayadi Ar-rifāᶜi Ar-Rawās

Edited by

Aḥmad Farīd Al-Mizyadi

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH

Beirut-Lebanon